أعلام المسلمين

١١

العلّامة المجاهد

الشيخ محمد الحامد

رحمه الله تعالى

تأليف

عبد الحميد محمود طهماز

دار القلم

دمشق

الطبعة الرابعة
١٤١٥هـ - ١٩٩٥م

دار القلم
للطباعة والنشر والتوزيع
دمشق - حلبوني - ص.ب : ٤٥٢٣ - هاتف : ٢٢٩١٧٧
بيروت - ص.ب : ١١٣/٦٥٠١ - هاتف : ٣١٦٠٩٣

بسم الله الرحمن الرحيم

مقدّمة المؤلف

الحمد لله رب العالمين ، والصلاة والسلام على سيد المرسلين ، وإمام المتقين ، وعلى آله وصحبه ، وتابعيهم ومن تبعهم بإحسان إلى يوم الدين.

أما بعد :

فإن مصيبة الاسلام الكبرى في هذا العصر ؛ فقده لعلمائه الحاملين لشريعته ، والمتمسكين بسنته. فقد بفقدهم ركائزه الفكرية ، ودعاماته العلمية ، وبها قيامه وعليها بنيانه . وهذا فضلاً عن خسارته للنماذج الحية التي تتمثل الاسلام سلوكاً عملياً ، وتدعو الناس بمنهجها العملي إلى الاقتداء بها ، وإن وجودها بين الناس ؛ تذكير لهم بالاسلام وحقائقه ، فبموت العلماء العاملين تغيب المثل العملية من صفوف الأمة ، فتضيع عليها معالم الطريق .

والسبب الرئيسي لهذا ، إعراض المسلمين عن دينهم ، وزهدهم في علومه ، حتى أصبحت بضاعته كاسدة وسوقه معطلة ، ولقد حذر النبي صلى الله عليه وآله وسلم من هذا المصير السيء ، الذي آل إليه المسلمون

في حديث شريف نفيس، يعتبر من أعلام نبوته صلى الله عليه وآله وسلم. ففي صحيح مسلم أن عبد الله بن عمرو بن العاص قال : سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول : « إن الله لا يقبض العلم انتزاعاً من الناس، ولكن يقبض العلم بقبض العلماء، حتى إذا لم يترك عالماً ؛ اتخذ الناس رؤوساً جهالاً، فسئلوا، فأفتوا بغير علم، فضلوا، وأضلوا ». ولئن غابت عنا النماذج السلوكية الحية المتمثلة بالاسلام، فلا أقل أن نسعى إلى تسجيل صفاتها، وتحبير آرائها، ونهج حياتها. علنا في هذا، نضع قبساً من النور في طريق الجماهير، تتلمس بواسطته بعض معالم الطريق، ونقدم للناس نماذج عملية سلوكية عن الاسلام، عاشت في هذا العصر متحدية كل أباطيله وضلالاته، معبرة عن حقيقة الاسلام وخلوده، وصلاحيته للإنسان في كل زمان ومكان.

ولقد كان سيدي الشيخ محمد الحامد رحمه الله تعالى، علم الأعلام الاسلامية في هذا العصر : فكراً، وعلماً، وسلوكاً. لا أقول هذا بدافع المحبة له رحمه الله، إنما أقوله بقناعة الباحث المدقق المحقق، فلست كبعض المريدين، الذين طغت عواطف المحبة لشيوخهم على عقولهم وتفكيرهم ؛ فتراهم يحلونهم المكانة السامية الرفيعة في قلوبهم وعقولهم، دون أن يكون منهم نظر إلى ما يعتري الانسان من ضعف البشر أمام عواطفه البشرية وغرائزه الفطرية. والسبب في هذا أنه — رحمه الله تعالى — ما كان يعوّد تلاميذه على هذا، إنما كان يعودهم على البحث عن الحق أياً كان مصدره. والرجل من يجمع الناس على الحق لا على نفسه،

وكذلك كان رحمه الله تعالى، وعلى ضوء منهجه هذا سرت في هذا الكتاب.

وسيرى القارىء، أن الكتاب ليس مجرد مدح من تلميذ لشيخه، كما عهدنا في كثير من التراجم التي ألفها التلاميذ عن شيوخهم، إنما هو دراسة علمية، لحياة شخصية علمية من شخصيات الاسلام الكبرى في هذا العصر، مع دراسة لآرائه ومنهجه، وهي الغاية من الكتاب. فمن المهمات في هذا الزمن، أن نتعرف على رأي ومنهج الرجل المسلم في الكثير من قضايا العصر الحاضر.

وعلى الرغم من أني لم آل جهداً في استقصاء كل ماعرفته عن سيدي رحمه الله تعالى، أعترف بتقصيري عن الإحاطة بكل جوانب شخصيته العظيمة؛ ولهذا لن يجد من أسعده الحظ بمعرفة سيدي في هذا الكتاب، الصورة الكاملة التي عرفها للشيخ، وليس الخبر كالعيان.

فمعذرة ياسيدي، فأنتم البحر لكن بلا ساحل، وهذا الكتاب منكم وإليكم، وما هو إلا كقول القائل:

كالبحر يسقيه السحاب وماله فضل عليه لأنه من مائه

ولما لج بي الحرص على كتابة كل ما يتعلق بحياته رحمه الله تعالى، ماشهدته منها وما غاب عني، استعنت بشقيقه ورفيقه على درب الحياة، الأستاذ الكريم عبد الغني الحامد حفظه الله تعالى، ففتح لي قلبه، وقدم لي الكثير من الحقائق عن حياة سيدي رحمه الله؛ خاصة ما يتصل بمراحلها الأولى.

كما قام أخي الكريم، السيد عبد المعز الحامد حفظه الله ابن سيدي بجهد مبرور مشكور، في جمع آثار والده الأدبية: النثرية، والشعرية،

وكان فضيلة الشيخ عبد الباسط أبي النصر خلف ؛ صاحب القدح المعلى في رفع صرح الكتاب، فقدتفضل – حفظه الله – فقدم لي الرسائل التي كتبها سيدي – رحمه الله تعالى – إلى شيخه العظيم الشيخ محمد أبي النصر خلف قُدِّس سرُّه ، وهي كما سيرى القارئ زبدة الكتاب وعمدته ، خاصة في بحث التصوف ، وهذا فضلًا عن المعلومات الكثيرة التي قدمها لي عن والده وجده رحمهما الله تعالى .

فجزاه الله وكل من ساهم في هذا الكتاب خير الجزاء ، وخاصة فضيلة الشيخ محمد علي المراد ، الذي ساعدني في الحصول على بعض مراجع الكتاب العلمية .

لهم في هذا الكتاب يد شريفة كريمة ، يكافئهم الله تعالى عليها بفضله وكرمه .

أما الكتاب ، فقد جعلته خمسة أبواب :

الأول منها : لمراحل حياته رحمه الله تعالى .

وثانيها : لمنهجه العلمي ، وآثاره العلمية .

وثالثها : لتصوفه ، وآرائه في التصوف ، ونظرته إليه ، مع تعريف بالطريقة النقشبندية وشيخه فيها .

ورابعها : لبعض شمائله الخلقية .

وخامسها : لآثاره الأدبية من شعرية ونثرية .

وإن كان لي رجاء من تأليف الكتاب ، فهو رجاء الغفران ، والموت على الإيمان ، ودعاء الإخوان .

حماة في ٤ شوال ١٣٩٠ هـ	الفقير إلى الله تعالى
الموافق ١ / ١٢ / ١٩٧٠ م	عبد الحميد محمود طهماز

الباب الأوّل

مراحل حياته

رحمه الله تعالى

حماة

حماة إحدى المدن الرئيسية الكبرى في بلاد الشام ، تقع على طريق دمشق ــ حلب ، شمال مدينة حمص ، على نهر العاصي . وهي من المدن القديمة ، ويرجح بعضهم أنها أنشئت في الألف الخامسة قبل الميلاد . وتعاقب على سكناها العديد من الأقوام . ازدهرت قبل الميلاد عندما سكنها الآراميون ،وجعلوها مركزاً لمملكة حماة الآرامية ، وازدهرت كذلك بعد الفتح الاسلامي ، وخاصة في عهد الأيوبيين ، وقد أعاد نور الدين زنكي بناءها ، بعد أن خربها الزلزال سنة ٥٥٢ هـ - ١١٥٧ م ، وهي المدينة الوحيدة التي لم يتمكن الصليبيون من دخولها أثناء الحروب الصليبية . وازداد ازدهارها سنة ١٣١٠ م عندما ولّى عليها السلطان ناصر[١] المؤرخ الشهير إسماعيل أبا الفداء ، ولا زالت إلى الآن تسمى باسمه « مدينة أبي الفداء » . ولقد أنجبت حماة الكثير من العلماء والأدباء والشعراء .

اشتهرت حماة بمناظرها الطبيعية الرائعة ، وبساتينها ذات الظلال

(١) هو الملك الناصر محمد بن قلاوون .

الكثيفة الوارفة ، وبنواعيرها التي سارت بذكرها الركبان ؛ حتى سميت حماة باسم « مدينة النواعير » قال عنها ابن سعيد الأندلسي: « وفي حماة مسحة أندلسية » أهـ . كما وصفها الرحالة ابن بطوطة ، فقال : « حماة إحدى أمهات الشام الرفيعة ومدائنها البديعة ، ذات الحسن الرائق والجمال الفائق ، تحفها البساتين والجنات ، عليها النواعير كالأفلاك الدائرات ، يشقها النهر العظيم المسمى بالعاصي[1] » أهـ

الشيخ محمود الحامد

وفي حماة عاش الشيخ محمود الحامد والد سيدي رحمهما الله تعالى، غلبت عليه صفة التصوف واشتهر بها ، وكان حار المزاج حاد الطبع ، كثيراً ماتطغى عليه الأحوال الشديدة ، على جانب كبير من الصلابة الدينية والورع ، عفيف النفس ، كريم القلب ، يعيش من كتابه الذي أنشأه لتعليم الأطفال القراءة والكتابة . ولقد حدث سيدي كثيراً ، فيما يذكره عن والده ، وخاصة أحواله الشديدة ؛ حتى إنه وإخوته ، ما كانوا يجرؤون أن يناموا معه في غرفة نومه ، وإذا ساروا في البيت أثناء نومه ، حرصوا على الهدوء والسكون ؛ لذلك كانوا يسيرون على رؤوس أصابعهم . ولقد تربى وتلقى التصوف على يد الشيخ الكبير عبد الفتاح العبد رحمه الله تعالى ، الذي تتلمذ على يد الشيخ محمد سليمان

---

(١) انظر مجلة العمران العدد الخاص عن حماة .

الأروادي رحمه الله تعالى ، وهو أحد خلفاء مولانا خالد النقشبندي رحمه الله تعالى .

ولقد كتب مفتي حماة السابق الشيخ محمد سعيد النعسان رحمه الله تعالى في مذكراته، يوم الاثنين ٢٦ من شهر ربيع الأول ١٣٣٤ هـ، فقال: «.. وفي اليوم نفسه كانت وفاة المرحوم الشيخ محمود الحامد شيخ الطريقة النقشية بحماة ، خليفة المرحوم الشيخ عبد الفتاح العبد ، وكان الشيخ محمود المذكور من الصالحين الجامعين على الله[1] ، يلقن الطريقة ،وتتلمذ له كثير من المريدين وانتفعوا به ، وكان لجنازته وقع في نفوس الحمويين ، خرج فيها كثير من العلماء وأهل الطرق والأعيان ، وصلى عليه الشيخ محمد علي بن المرحوم شيخنا الشيخ سليم المراد » ...أهـ .

ويجدر بي ، أن أنقل فيما يلي جزءاً من مقولة كتبها سيدي رحمه الله في شبابه ، تحدث فيها عن الرحمة التي أودعها سبحانه في قلوب الآباء والأمهات ، تظهر لنا اللوعة التي كان يعاني منها لفقده والديه :« لامرية أن الشفقة موجودة في كلا الوالدين ، ولكنها في الأم أكثر ، بل لو قارنا بينهما ؛ لوجدنا أن رحمة الأب جزء من أجزاء من رحمة الأم ، وهذا أمر بيّن لايحتاج إلى برهان ولا جدل ، لكن لو أردنا أن نعرف مقدار الحب الذي يضمره الابن لأبويه ، وهل هو متفاوت ياترى ، أم هو على السواء ؟ ومن هو الأولى بزيادة الحب والبر والكرامة من الآخر ؟

---

(١) الجامع على الله : هو الذي يجمع الناس على تقوى الله وطاعته .

هذا السؤال يحتاج المجيب عنه ، لان يكون قد حيي حياة عائلية ، تقلب في أعطاف نعمتها ، وحينئذ تسهل عليه الإجابة ، إذ يكون حبه لأوفرهما عليه حناناً ، وأعظمها إليه إحساناً . أما أنا ؛ فإن أجبت عن هذا السؤال ، فالجواب يكون بلسان العلم بما شاهدته من أحوال الناس ، لابلسان الذوق الكامل والوجدان التام ، إذ أني منيت بفقد أبوي وأنا طفل يافع ، لا أقدر على التمييز والتفرقة بين الأمور التي تحتاج إلى نظر وتفكير .

على أني لاأزال أذكر من عهد الصبا ، أني كنت حين أستحق التأديب من والدي رحمه الله تعالى ، كنت أفرق وأخاف ، فأجد من أمي رحمها الله تعالى ملجأ وملاذاً ، أحتمي به ، وأخلص من الضرب ، وإني غير ناس امتنانها علي رحمها الله تعالى بذلك ». أه

ولادته

في هذا البيت ، بيت العلم والتصوف ، ولد سيدي رحمه الله تعالى سنة ١٣٢٨ هـ — ١٩١٠ م ، وكانت ولادته بعد انقطاع حمل أمه عدداً من السنين ، حتى شكا والده إلى بعض خواصه انقطاع حمل زوجته ، فأخبروه أنه كان في حمص شيخ مبارك اسمه الشيخ سليم خلف [١] ، يكتب بعض الكلمات على ورقة يعطيها لمن تشكو إليه انقطاع حملها ،

---

(١) ستأتي ترجمته في الباب الثالث من هذا الكتاب .

فتلحسها ، فتحمل بإذن الله تعالى ، ولقد توفي ؛ لكنْ ولده الشيخ محمد أبو النصر يقوم مقامه في هذا ، وهو يتردد على حماة لتفقد مريديه . وبتقدير الله سبحانه كتبت الورقة بيد الشيخ أبي النصر ، وحملت الأم بعد ذلك بإذن الله تعالى ، وولد الشيخ رحمه الله تعالى . سمعت هذا الحديث من سيدي عدة مرات ، وأشار رحمه الله إلى هذه الحادثة بعد ذلك في إحدى قصائده التي يمدح بها شيخه أبا النصر بقوله :

فيا سيدي إني ببابك واقفٌ وقد تهت في بحر الضلال كثيراً
وأنـّى لمثلي أن يصدَّ ولي بكم صِلاتٌ تبدَّتْ حين كنت صغيراً

وعاش في كنف والديه وبين أخويه ستة أعوام تقريباً ، وفجع في السادسة من عمره بوالده ، وفي العام نفسه فجع أيضاً بأمه ، وذاق مرارة اليتم والفقر عدداً من السنوات، وكانت من أشد السنوات التي مرت على البلاد ، وهي سنوات الحرب العالمية الأولى .

وكان والده يتحدث مراراً أن ولده هذا سيكون عالماً ، ورآه مرة بعض الصالحين ، فأسرع إليه مقبلًا ومعانقاً وهو يردد : الشيخ محمد ، الشيخ محمد .

ولما مرض الوالد مرض الوفاة ، اشتد به القلق على أولاده ، خاصة وأنه لم يتمكن في خلال حياته كلها ، أن يوفر لهم شيئاً من المال يتركه لهم ، والبلاد تلفها المجاعات والأوبئة طيلة الحرب العالمية الأولى ، فأخذ يبحث عن وصي يوصيه عليهم ، فلم يجد أحداً ؛ لأن كل إنسان يشغل خلال الأزمات بنفسه ، فما كان منه إلا أن أوصى الله عليهم ، فكان

يردد في مرض وفاته : « إني أوصي الله على أولادي » وأشار إلى ولده الكبير بدر – وكان حينئذ في سن الخامسة عشرة من عمره – ليقترب منه ، فهمس في أذنه بكلمات ، أوصاه بها أن يعتني بأخويه الصغيرين .

اليتيمان

كانت وفاة الوالد في تلك الظروف القاسية ضربة شديدة ، تبعتها أخرى بوفاة الوالدة ، فلم تحتمل العائلة الصغيرة شدة هذه المصائب ، فتفرق شمل الإخوة ، واضطر الأخ الكبير للانفصال عن أخويه الصغيرين .

فكيف اجتاز اليتيمان سنوات الحرب العجاف بضعفهما وفقرهما ؟. أذكر أن سيدي رحمه الله تعالى ، حدثني عن هذه المرحلة في حياته ، في إحدى رحلاته التي تشرفت بخدمته أثناءها ، حدثني عن مشاعر الألم التي كانت تحز في نفسه ، وتمور في فؤاده ، دون أن يستطيع في ذلك الوقت التعبير عنها ، وأذكر من حديثه أنه قال لي : « لو كان لليتيم لسان يبين به عن لوعاته وآلامه ؛ لأبكى الحجارة الصماء ، مرت بنا أيام ، كنا كثيراً ما نبقى في المدرسة في فرصة الغداء دون طعام ، معظم التلاميذ يذهبون إلى بيوتهم ، ونحن نبقى في المدرسة ؛ لأنه لم يكن لنا بيت ولا طعام ، حتى إن أخي كان يبكي أحياناً من شدة الجوع ، أما أنا فكنت أشغل نفسي باللعب عن آلام الجوع » وحدثني

مرة كيف عثر في الطريق على ليرة ذهبية ، فحملها وهو لايعرف حقيقتها لأنه مارأى مثلها في حياته ، ورآها أخوه بدر معه وهو يلعب بها ، فأخذها منه ليشتري لنفسه وأخويه حاجات العيد المقبل الضرورية . وحدثني عن فرحته الكبرى لأول مرة في هذا العيد ، بالحذاء الجديد ، والثوب الجديد ، ولعبة القطار الآلي التي وعده أخوه بها ، عندما أخذ منه الليرة الذهبية[1] . ولنستمع إلى الأستاذ عبد الغني الحامد – حفظه الله – يحدثنا عن هذه المرحلة :

رزىء محمد بموت أبيه وهو في السادسة من عمره ، وفي أقل من سنة بعد وفاة أبيه ، توفيت والدته ، فأصبح يتيم الأبوين ، وكان قد انقطع بموت أبيه مورد العائلة من المال ، فلم يكن أخوه الأكبر بدر الدين قد زاول من قبل ذلك عملًا ، فهو لايزال يومئذ طالبـاً في المدرسة الإعدادية ، لم يتجاوز الخامسة عشرة من العمر . فاجتمع الرأي من الأقارب والجيران على تفريغ دار العائلة ، وإيجارها لمدة طويلة ، وبيع جميع مافيها من الأثاث والمؤن ، وحفظ المال المتجمع عند رجل أمين ، ليكون هذا المال نفقة لمحمد وأخيه الأصغر عبد الغني ، بعد أن أخذ بدر الدين حصته منه لينفقها على نفسه في إتمام دراسته . لكن بدر الدين قطع تحصيله الثانوي ، والتحق بمدرسة دار المعلمين بدمشق ، يختصر بها الطريق في الوصول إلى عمل يتدارك به أمور المعيشة له ولأخويه .

---

(١) تصدق رحمه الله بعد ذلك على الفقراء بقيمة هذه الليرة بعد أن أخبره أخوه بها .

وخروج محمد وعبد الغني من الدار وهما طفلان صغيران ، لم يحملا منها إلا أمتعـــة النوم والثياب ، وألحقا أول الأمر ببيت عمهما ، ثم صارا ينقلان إلى بيوت أخرى متعـــددة من بيوت الأســـر الفقيرة : بيت منها لأرمـــلة ذات أولاد ، وبيتان لرجلين متزوجين ذوي أولاد كثيرين ، فيضمان إلى أفراد كل أسرة من هذه الأسـر على التوالي بأجور من المال معينة ، تدفع لكل أسرة مما هـو محفوظ لهما عند الرجل الأمين . وكانت هذه الأسر تسكن في أطراف البـــلد ، وتعيش في حالة بؤس وفقر شديد ، بيوتها من اللبن والطـين ، وأرض دورهامن التراب ، وطعامها خشن قليل،قلمايشبـع، والدنيا كلها يومئذ تلفها مجاعة الحرب العالمية الأولى ، فيذهب الجوع كل يوم بالعشرات .

ودامت الحال بمحمد وأخيه الأصغر هكذا مدة سنتين ، كان بدر الدين خلالها يتردد عليهما آتياً من دمشق،فيأسى كل الأسى حين يراهما في بيوت تلك الأسر ويرى الحرمان الذي يعانيانه عندها من كل شيء ، وكيف كانا يعيشان بين أولادها الغارقين في الجهالة والإهمال ، مما حمله على قطع دراسته في دار المعلمين ، والعودة إلى حمـــاة ليتولى شأنهما ، ويسعى في طلب الرزق لإعاشتهما وتعليمهما ، ولا سيما أن المـال المدخر قد أوشك على النفاد .

جهد بدر الدين في طلب الرزق،فزاول بعض أعمال البيـع والشراء الفردية ، وعمل وكيلاً في مزرعـة ، وشارك في دكان صغيرة لمواد التموين المنزلي ، والتجأ بأخويه محمـد وعبد الغني في أثنـــاء ذلك إلى بيت أخواله ، فأعطي غرفة عندهم،ولما أن توفر لديه بعض المال استأجر

غرفة منفردة في دار منعزلة نقل إليها أخويه ، وقد كان لهما في كل مامر بمكان الأم والأب » . أ هـ .

نشأته العلمية

تابع الأستاذ عبدالغني حديثه عن نشأة أخيه العلمية، فقال : « لم يغفل بدر الدين عن تعليم أخيه محمد حتى في أشد أيام البؤس ، فقدأدخله المدرسة الابتدائية ، وهو ما يزال في الفترة التي كان يعيش فيها عند الأسرالفقيرة في أطراف البلد ، وأيقظ فيه روح الجد، لما كان يرى فيه من مخايل الذكاء ، فلم يقبل منه وهو في الصف الاول إلا أن ينال الدرجة الأولى على رفاقه ، فحقق محمد لأخيه ما أراد منه ، وفاز بالدرجة الأولى لذلك العام . وتابع بعد ذلك سيره في المدرسة من صف إلى صف. وفي السنة الثالثة من دراسته ، انفرجت الحياة قليلًا لأخيه بدر الدين من بعد الشدة ، على أثر انسحاب الأتراك من سورية وقيام الحكم الفيصلي فيها، فقد تسلم الشيخ سعيد النعساني مفتي حماة السابق إدارة المدارس الرسمية في البلد، وكان صديقاً لوالده، فعينه معلماً ابتدائياً سنة ١٩٢٠م ، واتسع بذلك نطاق العيش بعض الشيء له ولأخويه ، واستمر الأمر هكذا حتى أنهى محمد مرحلة الدراسة الابتدائية ، وتخرج من الصف السادس سنة ١٩٢٢ م ، فأدخله أخوه المدرسة الإعدادية ، وفي نيته أن يتابع له تحصيله فيها للعلوم العصرية ، لكن محمداً لم ينسجم مع بيئته الجديدة في المدرسة ، وشعر بنفرة منها ، وبدا عليه التقصير في دروسها،

فإن ميله إلى العلم الشرعي والتزامه حلقات بعض الشيوخ في طلبه، وسلوكه الديني الصارم؛ كل ذلك لم يلائم بينه وبين بيئة هذه المدرسة. وشعر أخوه أنه يحمله على الذهاب إليها حملاً، وأنه يقسره عليها من غير رغبة منه، فوجد أن الاستمرار على هذا ضرب من العمل الفاشل ولا يهيء لأخيه في المستقبل عملاً يعتمد عليه للعيش، فأخرجه من المدرسة الإعدادية سنة ١٩٢٣ م، ووضعه عند معلم خياطة للملابس العربية، ليتعلم عنده مهنة الخياطة، ويتابع معها طلب العلم الشرعي كما يريد، فكان محمد يعمل في النهار في الدكان، ويحضر بعد المغرب دروس العلماء في المساجد، وينضم بعد العشاء إلى الحلقات الخاصة لطلب العلم. على أن الأمر لم يطل به على هذا النحو كثيراً، فقد افتتحت في حماة مدرسة دار العلوم الشرعية سنة ١٩٢٤ م، فرغب محمد في دخولها، وكان أخوه بدر الدين في تلك السنة في دمشق يتمم دراسة الصف الأخير من دار المعلمين، فأرسل خاله الشيخ سعيد الجابي يستشيره في إدخاله فيها، فأقر بدر الدين الفكرة، وعلى الفور ترك محمد دكان الخياطة، ودخل المدرسة الشرعية، وتعين بذلك مستقبله العلمي». أ هـ.

المدرسة الشرعية في حماة

كانت أيام المدرسة الشرعية أسعد أيام حياته رحمه الله؛ ففيها تحدد مستقبله العلمي الشرعي الذي كان يطمح إليه، وفيها ظهرت عملياً إمكاناته الفكرية الهائلة التي تفضل الله بها عليه، فرغم صغر سنه بين

أقرانه من طلاب المدرسة كان الاول بينهم . وما كان رحمه الله يهتم لشؤون المعيشة ، إنما كان همه في إرواء ظمأه العلمي وإشباع طموحه الفكري ، ولم تكن المدرسة الشرعية كافية له ، بل كان يتردد صباحاً ومساءً على الدروس العلمية الخاصة التي كان يعقدها بعض الشيوخ في المساجد لخواص طلابهم ، حتى بلغ عدد الحلقات العلمية التي كان يحضرها تسع حلقات في اليوم ، سمعت هذا منه رحمه الله تعالى . وهيأ الله له في المدرسة وخارجها شيوخاً صالحين ، تحدث عنهم ، فقال :

« تأثرت بكثير من أساتذتي وشيوخي الذين لهم الفضل الكبير عليّ ، كفضيلة خالي الكريم الأستاذ الشيخ محمد سعيد الجابي المدرس العام في حماة رحمه الله تعالى(١) ، فهو الذي دفعني في سبيل العلم الديني ، وأمرني بحفظ القرآن الكريم ، وأقرأني مبادىء العلوم الدينية .

ومنهم فضيلة أستاذي الفقيه الجليل ، شيخ الشافعية في حماة ، ورئيس جمعية العلماء فيها ، الشيخ محمد توفيق الصباغ أدام الله توفيقه وجزاه الله عني وعن زملائي طلابه خيراً ، كان مديراً لدار العلوم الشرعية ، وكان يبذل جهداً كبيراً في تثقيفنا وتعليمنا ، ويحنو علينا حنوّ الوالد الرحيم على صغاره . أسأل الله له طول البقاء في توفيق وصلاح .

ومنهم سماحة الأستاذ الجليل الشيخ محمد سعيد النعساني مفتي حماة ، ذو الباع الطويل في العلوم والمعارف ، فقد كان له مع فضل

---

(١) توفي سنة ١٩٤٨ م .

التعليم فضل رفع الهمة إلى معالي الامور ، والترفع عن سفاسفها ، وما يزال أسعده الله في قيد الحياة[1] قد جاوز المائة من العمر ، ونزل به مرض الشيخوخة ، ولزمته العلة . أسأل الله له العافية .

ومنهم فضيلة عمي والد زوجتي ، الأستاذ الفقيه الحنفي ، الحجة العالم العامل ، التقي الورع ، الزاهد في الدنيا ، شمس علماء حماة وبدر شيوخها، الشيخ أحمد المراد رحمه الله وبارك عليه ، إنه من شيوخي الذين لهم عليّ فضل التربية والتعليم ، وقد أكرمني الله فجعلني صهراً له على ابنته ، وقد كان هذا قبل أن يكون لي مورد رسمي ومنزل آوي إليه ، ولكنه التوكل على الله سبحانه والايمان به والوثوق بما عنده . كانت الفتوى في حماة وقراها تدور عليه وترجع إليه ، فقدكان أمين الإفتاء، ولم تصدر عنه فتوى غير صحيحة ، وقد قال فيه سماحة العلامة الجليل مفتي الشام الأستاذ الشيخ محمد شكري الأسطواني رحمه الله تعالى : (**عنه تؤخذ الفتوى**) أه[2].

المدرسة

الخسروية الشرعية في حلب

وفي سنة ١٣٤٧ هـ - ١٩٢٨ م أنهى رحمه الله تعالى دراسته في مدرسة حماة، فرحل في السنة نفسها إلى حلب يبحث عن منهل علمي جديد

---

(١) توفي رحمه الله بعد ذلك قبل سيدي بنحو ثلاث سنوات .

(٢) ضيف الحضارة .

يروي منه ظمأه العلمي، فهيأ الله له سبيل الانتساب إلى المدرسة الخسروية الشرعية فيها، وكانت تعتبر في ذلك الوقت أرقى المدارس الشرعية في بلاد الشام، فالتدريس فيها منوط بنخبة من العلماء الكبار، فضلًا عن المناهج الواسعة التي كانت تدرس فيها. هذه المرحلة من مراحل طلب العلم، تعتبر أهم المراحل في حياة سيدي، ففيها ظهرت شخصيته العلمية بين أقرانه وحتى بين شيوخه، فقد وصفه الشيخ أحمد الشماع - وهو أحد شيوخه في المدرسة - قائلًا: **« بحر علم لاتنزحه الدلاء »** ولم يكن رحمه الله تعالى يكتفي بدروس المدرسة، بل كان يحرص على شهود الدروس العلمية التي تلقى في مساجد حلب، فكان يداوم على دروس عالم حلب الكبير الشيخ نجيب سراج رحمه الله تعالى، ولقد سمعت سيدي يتحدث بعد ذلك كثيراً عن هذه الدروس، وعن الفوائد العلمية الكثيرة التي جناها منها.

ولم يكن رحمه الله تعالى يقتصر في دراسته العلمية على كتب المناهج الرسمية، بل كان يطالع الكثير من المصنفات، يدفعه إلى ذلك شغفه العلمي، وحرصه على بناء شخصيته العلمية بناءً كاملًا، وكم كان يذكر رحمه الله تعالى كلمة أخيه الأستاذ بدر الدين وهو في وداعه قبل سفره إلى حلب، قال له في محطة القطار: «أعوذ بالله من نصف عالم». قال الشيخ رحمه الله تعالى: « هذه الكلمة حفرت في قلبي، ولا يزال تأثيرها في نفسي منذ أربعين سنة ».

وتحدث رحمه الله عن شغفه العلمي، فقال: **« وإني أحمد الله تعالى على توفيقه وتيسيره إياي للتوسع العلمي، ووضعه الشغف به في**

قلبي ، حتى إني لأوثر العلم على اللذائذ المادية التي يقتتل الناس عليها، ولو أني خيرت بين الملك والعلم، لاخترت العلم على الملك والسلطان ، وذا من فضل الله عليّ وعلى الناس . ولم أكن فيما مضى من أيام دراستي مقتصراً على كتب المناهج الرسمية ، كلا . بل إني كنت أطالع عديد الكتب من قديم المصنفات وجديدها ، ولن يسلس العلم قياده لطالبه إلا بنحو هذا ، لأن المناهج الرسمية تعنى بتكوين الشخصية العلمية . أما ملء الذهن بالمعلومات ، فطريقه المطالعة الواسعة يحدوها الشوق ويقودها الشغف»[1] أ هـ .

وأما عن شيوخه في حلب ، فقد تحدث عنهم وعن تأثره بهم ، فقال :

« رحلت إلى حلب ، فانتسبت فيها إلى المدرسة الخسروية الشرعية ، وإنها لأرقى من مدرسة حماة الشرعية . وفيها علماء أجلاء ، فطاحل محققون ، تشد الرحال إليهم ، ويؤخذ العلم عنهم ، ويؤتسى بهم في الدين والخلق، منهم: الأستاذ الشيخ أحمد الزرقا الفقيه الجليل الذي لم أجلس إلى أفقه منه ، حتى المشايخ الذين تلقيت عنهم في مصر من بعد، بلّل الله ثراه وأغدق عليه شآبيب رحمته . كان يتفجر علماً ، ويتفتح تحقيقاً ، ويجري معرفة كالوادي إذا سال ، ولكأن الفقه كان أمامه ، يأخذ منه ما يشاء ويترك منه ما يشاء ، وأشهد أنه كان وقّافاً عند حدود الله في بياناته العلمية ، فإن عرض له إشكال طلب إلينا أن نكتبه

---

(١) ضيف الحضارة .

له ، ثم يضعه في ثنايا عمامته ، ويأتينا في الغد بالقول الفصل ، وكان يقول : « **العلم أمانة** » وهذا الأستاذ الكبير أحد الذين تأثرت بهم من الناحية العلمية .

هذا إلى تأديبه لنا معشر طلابه ، وأخذه أيانا باحترام الأئمة والعلماء ، حتى من غير الحنفية ، ولا أزال أذكر قوله في حلقة الدرس: (**إني أتصور الإمام الشافعي رحمه الله تعالى جبلاً من العلم**) وقد كان رحمه الله تعالى ذا هيبة عظيمة ، وشيخوخة نيّرة ، ولكنك إذا خالطته ، لمست فيه نفساً طيبة متواضعة ، **يمزج تقريراته العلمية بمزح** لطيف ، ومداعبات حلوة .

ولم يكن من أهل الشطح والكبر ، الذين ينكرون فضل الفضلاء السابقين ، بل كان يتهم نفسه ، ويقول :« استرحنا من حيث تعب الكرام» مع أنه كان في تلقيه عن والده الجليل الأستاذ الشيخ محمد الزرقا رحمه الله تعالى، تمر به سنون لا ينام من الليل إلا قليلاً، ويطالع نحواً من عشرين كتاباً علمياً فقهياً على الكتاب الذي كان يتلقاه عن والده ، وكان يرجع إلى الكتب التي نقل عنها المحقق الشيخ ابن عابدين في حاشيته الشهيرة ، التي سماها « رد المحتار » وكان يرجع إليها ، فيجده واهماً في بعض النقول ، أخبرنا بهذا عن نفسه .

وهناك غيره في المدرسة ، أفذاذ فضلاء : كالشيخ أحمد الكردي مفتي الحنفية في حلب، والشيخ عيسى البيانوني ، والشيخ إبراهيم السلقيني العالم العامل والتقي الورع ، والشيخ محمد الناشد ، والشيخ راغب الطباخ ، والشيخ أحمد الشماع ، والشيخ عبد المعطي ، الواسع المعرفة

في فقه المواريث ، والشيخ فيض الله الايوبي الكردي المحقق العظيم في علمي التوحيد والمنطق ، والشيخ محمد أسعد العبجي مفتي الشافعية حالياً في حلب ، وهو والشيخ عبد الله حماد الباقيان في قيد الحياة من مشايخي ، جزاهم الله خير الجزاء ، وبارك عليهم أحياءً وأمواتاً[1]» أ هـ .

ومما يزيد في أهمية هذه المرحلة بالنسبة لسيدي رحمه الله تعالى ؛ أنه فيها حصل له التحول الكبير عن أفكار دعاة السلفية ، التي كان يتبناها منذ كان في حماة ، إلى السلوك في طريق التصوف على يد شيخه العظيم الشيخ محمد أبي النصر خلف الحمصي النقشبندي رحمه الله تعالى ، وسيمر معنا تفصيل هذا التحول في بحث التصوف إن شاء الله تعالى .

العودة إلى حماة

وفي سنة ١٣٥٣ هـ عاد رحمه الله إلى حماة بعد أن أنهى دراسته في حلب ، ولم تطل فترة استقراره في حماة ، فقد رحل عنها سنة ١٣٥٦ هـ إلى مصر ، ملتحقاً بالأزهر الشريف . لكنها كانت رغم قصرها ذات أهمية كبرى في حياته رحمه الله تعالى .

ففي هذه السنوات الأربع أثبت الشيخ مكانته العلمية ، فجذب أنظار علماء البلد إليه ؛ حتى إنهم أكرهوه على أن يستلم

(١) ضيف الحضارة .

بعض المناصب الدينية في البلد ، وكان لها كارهاً ، ففي سنة ١٣٥٤ هـ كلف بالخطبة في جامع الأشقر ، وألقى أول خطبة في الجامع المذكور يوم الجمعة لأربع خلون من ربيع الآخر . ذكر ذلك رحمه الله في رسالة أرسلها إلى شيخه أبي النصر ، قال فيها :

« فقد توجبت على الفقير ولدكم خطبة الجمعة في جامع الأشقر ، بعد أن عرضت عليّ فرفضتها ، ولكن المشايخ – حفظهم الله تعالى – أصروا على قرارهم ، وعملوا جهدهم لإقناعي ، فقبلت وخطبت في الجامع المذكور يوم الجمعة الماضي ، وإني أحمد الله تعالى على توفيقه ، الذي لا شك في حصوله ببركة انتمائي إليكم ، وانتسابي لسدتكم العالية ، وقد طلب مني بعض جيران المسجد درساً عقب الصلاة ، كما كان يفعل الخطيب السابق ، ففعلت ولطف الله تعالى بي ، وله سبحانه الحمد على كل حال » أ هـ .

وفي هذه الفترة أيضاً ، خاض الشيخ صراعاً فكرياً عنيفاً ضد الذين كانوا يناوئون الصوفية في حماة ، وهم أتباع خاله الشيخ سعيد الجابي رحمه الله تعالى ، ومن المعلوم أن سيدي كان موافقاً لهم قبل رحلته إلى حلب ، بل إن خاله الشيخ سعيد كان يعده ليكون خليفته في هذا ، فأصيبوا بتحوله إلى الصوفية بخيبة أمل مريرة ، زاد من مرارتها، الموقف الصارم الذي وقفه الشيخ منهم ، حتى تمكن رحمه الله من تثبيت أقدام الصوفية في البلد ، بعد أن زعزعتها الحملات العنيفة التي كان يشنها الشيخ سعيد عليهم في دروسه العامة .

وإن موقف سيدي – رحمه الله – هذا، هو الذي أدى إلى تركه

الخطبة في جامع الأشقر ، لكن الله سبحانه وتعالى عوضه عنه بجامع السلطان، كما جر عليه كثيراً من التعب والعناء ، فنصحه شيخه أبو النصر أن يبتعد عنهم ، وعن مكالمتهم ومجادلتهم . وأنى له هذا وهو قريب منهم! ولذلك كتب إلى شيخه رحمه الله قائلاً : « كنتم أرسلتم لي كتاباً تأمرونني فيه بالابتعاد عن المنكرين بقدر الإمكان ، وعدم مكالمتهم ومجادلتهم فيما يتعلق بأمر الطريق ، وقد وفقني الله تعالى لامتثال أمركم حسب الطاقة، ووجدت له أثراً حميداً في نفسي وأشعرتُ بالتقدم والزيادة من الخير ببركتكم وعطفكم ، غير أني لا بد لي يا سيدي من الخلطة ببعضهم ، والاجتماع بهم ، وأنا من هذا تجاه أمر واقع ، أتمنى الخلاص منه ، فلا أقدر عليه ، ولا يخفى على مولاي — أعزه الله تعالى — أن المنكر لا يصبر عن الجدال مصداقاً لقوله ﷺ : « ما ضل قوم بعد هدىً كانوا عليه؛ إلا أعطوا الجدل[1] » وعن هذا تقوم المجادلات بيننا ويشتد الخصام، ولا نتوصل لنتيجة مرضية ، ويتعبني ذلك تعباً عظيماً وعناءً كبيراً ، وأحس بظلمة أرواحهم تسري إلى قلبي ... هذا وقد صار لي سوء الحظ بهم ، وليتني أتمكن من النجاة منهم ، فلا أراهم ولا أسمع بهم » أ هـ .

ومع كل هذا لم ينقطع الشيخ رحمه الله تعالى عن دراسته العلمية ، فقد كان دائب المطالعة ، يحضر الحلقات العلمية . وقد سهل الله تعالى له أن يستلم حجرة في الجامع الجديد، جعل منها بعد ذلك مكاناً لدراسة العلم مع بعض زملائه ، من شباب المشايخ في البلد . كما أنه

---

(١) رواه أحمد والترمذي وابن ماجه والحاكم . انظر الفتح الكبير .

بدأ يلقي دروسه العامة في هذه الفترة ، ففي سنة ١٣٥٣ ﻫ عهد إليه الشيخ أحمد المراد – رحمه الله تعالى – بالتدريس مكانه بعد الظهر في الجامع الجديد . وبعد تركه جامع الأشقر ، طلب منه الشيخ أديب الحوراني – رحمه الله تعالى – أن يخطب عنه في جامع السلطان ، وبعد مدة كلفه بالتدريس . ومنذ ذلك الوقت أصبح مسجد السلطان المركز الرئيسي لجهوده التعليمية .

الرّحلة إلى مِصر

وفي عام ١٣٥٦ﻫ الموافق ١٩٣٨م سهل الله تعالى له سبيل الارتحال إلى مصر ، والانتساب إلى الأزهر ؛ ليتمم دراسته العالية فيه . والواقع أن هناك عدة أسباب لرحلة مصر . أهمها ذكره في رسالة أرسلها إلى صديق له في مصر قبل انتهاء دراسته في حلب بسنة ، فقال في هذه الرسالة: « أريد أن أتحدث إليك بشيء يجول في ذهني ، وإن كان هذا الحديث سابقاً لأوانه ، يوشك أن أنهي دراستي في المدرسة ، إذ ليس بعد الصف السادس شيء آخر ، وقد يعرض لي الآن أني أين أذهب بعد ذلك لتحصيل العلم ؟ وهل ثَـمَّ منهل علمي عذب يروي ظامىء العلم ويبرد غلته ؟ إذ لا يكفيني أن أحظى بالشهادة المدرسية ، ثم ارتد إلى بلدي ، ولا يعلم إلا الله ما يكون لي بعدئذ من القواطع والشواغل ، أفكر في هذا الأمر ، فصح عزمي على التغرب عن الوطن ، ولا أجد في عيني مكاناً أكبر من الأزهر الشريف ، وأرغب في الرحلة إليه والانتظام في سلك طلابه » .

ومنها أيضاً سبب ذكره في رسالة أرسلها إلى شيخه أبي النصر بعد عودته إلى حماة ، قال فيها : « إن موقفي في حماة أحرج موقف ، فقد عاداني أقاربي وأتباع خالي ، وهم أكثر الناس عندنا ، وأصبحت غير مقبول النصح عندهم ، ومخدوشاً من الوجهة العلمية في نظرهم ، إذ يرون أن علمي خرافات وبدع جئتهم بها ، وقد فسد الرأي العام عندنا ، وأصبحت غريباً في وطني ، وغير خافٍ عليكم ضعف الطلب في حماة ، وإني امرؤ أرغب في العلم ، لهذا كله استأذنتكم فأذنتم لي ، وإني أعلم ما سأحمله من المشقة في البعد عنكم وعن إخواني ، ولكن الغاية التي أطلبها تدفعني إلى احتمال المصائب وتلقّي الشدائد ، وقد قال لي أحد أشياخي لما ذكرت له أن الشوق لسيدي يكاد يحملني أحياناً على العدول عن الأزهر : (إن هذا السفر سعادة نلتَها بسر شيخك . وذكر لي أن الذي يريد نشر الطريق في حماة ، ينبغي أن يكون واسع العلم ، لا يعبأ بالمنكرين ، بل يقيم الحجة عليهم ، ويلزمهم الحق بالدليل ، وهذا أمر لا تقدر عليه بدون تعلمك في الأزهر الشريف) فوجدت لقوله وجهاً من الصواب » . أ هـ

وقامت في وجه رحلة مصر عقبات ، لم يستطع رحمه الله اجتيازها حتى عام ١٣٥٦ هـ ، ففي هذه السنة سافر إلى مصر ، وهو يظن أن المجتمع المصري لا يفترق كثيراً عن المجتمعات في حلب وحماة ، وإذا به يفاجأ باختلاف كبير ، فقد سبقت مصر البلاد العربية في تأثرها بأفكار الغربيين وعاداتهم ، فانتشر فيها السفور والاختلاط بين الرجال والنساء انتشاراً كبيراً ، وخاصة في القاهرة والإسكندرية ، ولم يكن

الشيخ رحمه الله تعالى يحتمل رؤية المنكرات ، وما كان يطيق صبراً في السكوت عنها ، وحتى في الأزهر لم يجد المجتمع الصالح الذي كان يعيشه في حلب وحماة ، ففي إحدى رسائله إلى شيخه ، قال : «ماذا يأمل طالب العلم الحقيقي في مصر ، وهو يرى المحرمات من بين يديه ، ومن خلفه ، وعن يمينه ، وعن شماله . ويأخذ عن قوم غير عاملين بالسنة ، وليس عندهم شيء من الروحانية ، ومع طلبة يحلقون لحاهم وشواربهم ، وكثيرون منهم لا يصلون ، وهم يشاغبون أثناء الدروس ، ويقرؤون في الجرائد ، لعدم رغبتهم في العلم ، وقلة تشوقهم له ، ولئلا تكثر عليهم المقروءات ، فيصعب الفحص ، فهم طلاب شهادات لا طلاب علم ، إذ لا يقرؤون إلا بعض المقرر عليهم ، ويعطلون أكثر العام .

كتب إليّ بعض الناس من حماة ؛ بأن ألزم غرفتي ولا أخرج منها ، كأنهم يظنون أن مصر كحماة ، وغفلوا عن أني أمر في طريقي إلى المدرسة على ألف منكر ومحرم . إني كنت أقرأ في بلادي أكثر مما كنت أقرأ في مصر وأستفيد أكثر مما أستفيده اليوم . والله تعالى مسبغ عليّ نعمه الكثيرة ، ولكن النفس لم ترض بذلك ، حتى فارقت الخير إلى الشر ، ولله الأمر من قبل ومن بعد[1] » . أ هـ

ولم يستطع رحمه الله تحمل رؤية المنكرات ، فما كان منه بعد بضعة أيام من وصوله ، إلا أن عاد إلى حماة . ولكن الناس في حماة استهجنوا عودته ، ولاموه أشد لوم ، وأصبحت عودته حديث الأندية،

---

(١) من رسائل مصر .

فأينما ذهب تأخذه الأبصار ،وحيثما سار تتبعه الغمزات والابتسامات .
وسبب ذلك أن الناس كانوا ينظرون إلى الأزهر نظرة إجلال وإكبار، ويعتبرون الدراسة فيه نعمة كبرى ، وفرصة عظمى ، لا يجوز في نظرهم تفويتها والإعراض عنها ، ولهذا استقبلوا سيدي رحمه الله بما استقبلوه به ، وأنكروا عليه إنكاراً لم يستطع احتماله ، فكر راجعاً إلى مصر وترك حماة ليلاً ، ولم يتمكن من زيارة شيخه لوداعه . فكلف أخاه الأستاذ عبد الغني أن يكتب إليه معتذراً ، ولما وصل إلى مصر كتب إليه يشرح له حاله،وما لاقاه من الناس، ويعتذر عن عدم وداعه ، فقـــال :

« السلام عليكم ورحمة الله وبركاته ، وبعد: فإني أكتب إليكم هذا الكتاب من مصر ، وقد شاء الله تعالى عودي إليها ، بعد أن خرجت منها على أن لا أعود إليها ، ولكن إرادة الله تعالى فوق كل إرادة ، وحكمه سبحانه نافذ لا محالة . إني ياسيدي بعد أن فارقتكم إلى حماة ، لقيت من دهشة الناس واستغرابهم لمجيئي أمراً عظيماً ، وهماً جسيماً ، ووقعت في خجل كبير ، وصرت كاسف البال ، حزين القلب، محتاراً في أمري ، وكانت أسئلة الناس موجهة إليّ، فكنت أجيب كل إنسان بما أظن أنه يقنعه ؛ ولكن هيهات هيهات ! فقد كنت ألمح الاستخفاف بي ، والحكم عليّ بالجنون من نظراتهم ،وأخيراً اضطرتني الحال إلى أن خرجت إلى البرية وقضيت فيها بضع ساعات فراراً من الناس وتوارياً عنهم . وتقرر بالمذاكرة مع أخويّ ، أن أرجع إلى مصر لأن بقائي في حماة أمر صعب جداً ، وقد اتضح لي أني لا أستطيع

القيام بالتدريس والخطابة كما كنت من قبل ؛ لأن نفسي انكسرت انكساراً عظيماً ، فلم يعد لها من النشاط ما كان لها أولاً ، فكان خروجي من بلدي على حال تشبه حال المضطر إلى الخروج .

فسافرت ليلاً ، ولم يخرج معي إلى المحطة إلا أخي عبد الغني ، وكان قصدي الوصول إلى بيروت للتأشير على الجواز، ولم يقسم لي المرور عليكم والحصول على بركة إذنكم الشريف . . . . بت ليلة في بيروت ، وثانية في حيفا ، وفي أواسط الليلة الثالثة ، وصلت مصر، فأنا اليوم فيها ، طالباً دعاءكم لي بالتثبيت ، وتوجهكم إلي بإصلاح قلبي[1] » أهـ .

والحقيقة أن ما يراه الزائر لأول وهلة في مصر ، لا يعبر عن حقيقة المجتمع المصري ، فالمجتمع المصري ينطوي على خير كثير ، ولا يزال في مصر الكثير من العلماء والصالحين ، وهذا ما حصل لسيدي رحمه الله ، فبعد بضعة أشهر تغيرت نظرته إلى المجتمع المصري ، فكتب إلى شيخه قائلاً :

« الآن علمت وتحققت ، أن في مصر عدداً كبيراً من الصالحين، فإن هذه الأيام أيام مولد سيدنا الحسين رضي الله تعالى عنه ، فيحضر أهل القرى والبلدان والأقاليم إلى القاهرة ، وتكثر فيها الناس من أهل الطرق ، وتزخر بهم ، ويقيمون حضرات الأذكار في مسجده رضي الله تعالى عنه ، وقد رأيت في هؤلاء الذاكرين وجوهاً شريفة ، تدل

(١) من رسائل مصر .

على قلوب طيبة وأسرار بالله عامرة ، وكنت أقف مع كل حلقة قليلاً متبركاً ، وأكثر وقوفي في حلقة الشيخ عبد الخالق الشبراوي الرجل المخلص الذي تظهر البركة عليه وعلى أتباعه » أ هـ .

وانقلب الكره والنفور عنده إلى محبة لمصر وأنس بالمصريين ، فتعرف على كثير من الصالحين ، وأقام صداقات قوية معهم ، واشتهر بينهم بلقب الشيخ الحموي ، وكانوا يراسلونه عندما يعود أثناء العطلة الصيفية إلى حماة . ولما أنهى دراسته فيها ، ألحوا عليه بالبقاء ، وأخبروه أنهم يستطيعون تأمين عمل له ، وأنهم مستعدون لتزويجه ومساعدته في هذا الأمر ، لكنه رحمه الله تعالى آثر العودة إلى بلده ، فودع مصر باكياً على فراقها في عدة قصائد ، منها :

ذبتُ يامصرُ مذ عزمتُ رحيلاً ولو اسطعتُ عشتُ فيكَ طويلاً
كنت ممن رَمَوكَ بالنكر لكن عادَ صوتُ النكير قولاً جميلاً(١)

وفي مصر تعرف على الشهيد حسن البنا رحمه الله تعالى ، وتحولت هذه المعرفة إلى علاقة حبية عالية بينهما ، تحدث عنها سيدي رحمه الله تعالى ، فقال :

« والذي أثر في نفسي تأثيراً من نوع خاص ، وله يد في تكويني الشخصي ، سيدي وأخي في الله وأستاذي ، الإمام الشهيد حسن البنا رحمه الله ، وأغدق عليه غيوث الإحسان والكرم ، صحبته في مصر سنين ، وحديثي عنه لو بسطته ، لكان طويل

---

(١) القصيدة كاملة في الباب الخامس من هذا الكتاب .

الذيل ، ولكانت كلماته ، قطعاً من قلبي ، وافلاذا من كبدي ، وحرقاً من حرارة روحي ، ودموعاً منهلة منسجمة تشكل سيلاً من فاجع الألم وعظيم اللوعة .

ولكنني أكتفي بالإيجاز من الاطناب ، وبالاختصار من التطويل ، وقد بكيته كثيراً بعد استشهاده على نأي الدار وشط المزار ، ولا أزال أذكره حتى ألقاه في زمرة الصالحين إن شاءالله تعالى وتبارك .

إنه أخي قبل إخوتي في النسب، ولما وافاني نبأ اغتياله قلت: إن موت ولدي - ولم يكن لي غيرهما حينئذ - أهون عليّ من وفاة الأستاذ المرشد .

وكنت رأيت فيما يرى النائم ليلة قتل ، ولا علم عندي بالذي حصل ، رأيت أننا في معركة مع اليهود ، وقد بـدأ التقهقر في جندنا ؛ حتى إني لأمشي منحنياً لئلا يصيبني رصاصهم ، فاستيقظت واستعذت بالله مـن شر هذه الرؤيا . وفي النهار ألقى إليّ بعض الناس الخبر ، فكان وقعه أشد من شديد ، وكان تأويل رؤياي .

إني أقولها كلمة حرة ولابأس بروايتها عني ، أقول: إن المسلمين لم يروا مثل حسن البنـا منذ مئات السنين ، في مجموع الصفات التي تحلى بها ، وخفقت أعلامها عـلى رأسه الشريف . لا أنكر إرشاد المرشدين ، وعـلم العالمين ، ومعرفة العارفين ، وبلاغة الخطباء والكاتبين ، وقيادة القائدين ، وتدبير المدبرين ، وحنكة السائسين.

لا أنكر هذا كله عليهم ، من سابقين ولاحقين ، لكن هذا التجمع لهذه المتفرقات مـن الكمالات ، قلمـا ظفر به أحد كالإمام الشهيد رحمه الله .

لقد عرفه الناس وآمنوا بصدقه ، وكنت واحداً من هؤلاء العارفين به، والذي أقوله فيه قولاً جامعاً: هو أنه كان لله بكليته، بروحه وجسده ، بقالبه وقلبه، بتصرفاته وتقلبه ، كان لله ، فكان الله له واجتباه وجعله من سادات الشهداء الأبرار .

إن سيدي وأخي الإمـام الشهيد ، ذو وفاء في حياتـه وبعد وفاته ، فقد تراءى لي في المنام كثيراً في مدى سنين ، وقد رأيت فيما يرى أني جالس معه في جملة من أصحابنا ، على مائدة فيها أطباق خبز وأطباق ريحان يؤكل ، لكنه ريحـان مـــن النوع الممتاز . فاستيقظت، وذكرت قول الله تعالى: « فأما إن كان من المقربين. فروح وريحان وجنة نعيم »[1] أهـ .

وفي مصر أيضاً ، التقى بالعالم الكبير الشيخ زاهـــد الكوثري رحمه الله تعالى[2] ، وقد نصح سيدي أن لا يختلط بالناس كثيراً، وذلك

---

(١) ضيف الحضارة. والآيتان هـــا ٨٨و٨٩ مـــن سورة الواقعة .

(٢) كان وكيل المشيخة الاسلامية في دار الخلافـــة العثمانية ، وأستاذ العلوم القرآنية في (معهد التخصص في التفسير والحديث) وأستاذ الفقه وتاريخه في القسم الشرعي من الجامعة العثمانية، وأستاذ العربية في دار الشفقة الاسلامية. لجـأ إلى مصر بعـد سقوط الخلافـة العثمانية وتوفي فيهـا سنة ١٣٧١ هـ رحمه الله تعالى .

لما لاحظه عند سيدي من شدة نفوره من المنكرات ، وتألمه من رؤيتها

وفيها أيضاً تعرف على الرجل الصالح ، والعالم العامل ، فضيلة الشيخ مصطفى الحمامي رحمه الله تعالى ، تأثر به كثيراً وأعجب بصلاحه وتقواه ، وكان كثير الزيارة له ، وبعد عودته من مصر ، كان كثير الحديث عنه .

ومن الملاحظ أن أكثر الذين تأثر بهم سيدي في مصر ، كانوا من خارج الأزهر ، ولم يستفد من الأزهر زيادة في علمه . فقد قالوا له بعد اختبار الانتساب إلى الأزهر : **« إنك عالم لاتحتاج إلى الدراسة فيه »** ولكنه كان يعلن أنه استفاد من دراسته في الأزهر طريقة تحقيق المسائل وتدقيقها ، وهو أمر ظاهر في آثاره العلمية وفي أجوبته الفقهية ، وكان زملاؤه في الدراسه يدهشون من كثرة معلوماته ، وغزارة محفوظاته ، وخاصة في الأحكام الفقهية ؛ حتى إن الشيخ مصطفى السباعي رحمه الله تعالى - وكان زميل الشيخ في الدراسة الأزهرية - كان كثيراً ما يقول له : **« إنك مدهش ، من أين لك معرفة كل هذه الأحكام؟!»**

ولما أنهى دراسته العالية بتفوق ، طلب منه المشرفون على الأزهر أن يدخل قسم التخصص العالي ، ولكنه رحمه الله تعالى أبى وآثر العودة إلى بلده ؛ لشدة حاجة البلد إليه . ولأنه رحمه الله ملّ الدراسات المقيدة ، ذات الصبغة المدرسية المحدودة . يظهر لنا هذا مما كتبه إلى شيخه قبل امتحان السنة الأخيرة ، فقد قال : « ولعل الدعاء لي بالنجاح غير منسي منكم ، فقد طال عهدي بالغربة ، ووقعت منها في الكربة . طال عهدي بالدراسات الرسمية ، وأصبحت توّاقاً إلى

الدراسات الحرة، التي يروى بها قلب الظمآن ، وينهل من مناهلها العذبة الباردة ما يبرد غلته ، ويطفىء أوامه[1] ، كما طــال عمري في الحياة المشردة غـير المستقرة، وصرت ميالاً بقوة إلى حياة هادئة مطمئنة ، لا اضطراب فيها ولا انتقال »[2] أ هـ .

الاستقرار في حماة

وفي عام ١٣٦٢ هـ / ١٩٤٢ م عاد رحمه الله إلى حمـاة ، ليعيش آخر مراحل حياته . وفي هذه المرحلة أثمرت جهوده ، وأينعت ثماره ، ومع أنها مرحلة الاستقرار ؛ فإنهـا كانت أكثر مراحل حياته ، تعباً ومشقة ، فهي مرحلة الجهاد ، لا في ميدان واحد ، وإنمـا في ميادين متعددة أهمها :

جهاده الوطني

لما عاد الشيخ إلى حماة ، كانت البلاد في ذروة جهادها الوطني من أجل الحصول على الاستقلال ، وهـذا أحد الأسباب التي دفعت الشيـخ الرجوع إلى بـلده . ليضم صوته إلى أصوات المطالبين بالاستقلال ، ويذكي بخطبه الحماسية جذوة النضال والجهاد في قلوب الأمة ، داعياً إلى

---

(١) الأوام كغراب : العطش أو حره . أ هـ قاموس .

(٢) من رسائل مصر .

الثورة على المستعمرين ، وتطهير البلاد منهم ، وهو الأمل الذي كان يراوده منذرآهم يدخلون البلاد، وكان وقتئذ في العاشرة من عمره ، فلقد سمع بعض تلاميذه منه أنه عندما رأى موسيقاهم في شارع المرابط في حماة ، يتقدمهم قائدهم وهو يلعب بالعصا ، بكى تأثراً بدل أن يُسرّ لمنظرهم ، كما هو الشأن عند الأطفال ، ودعا الله سبحانه وتعالى ببراءة الطفل وصفائه ، أن يريه خروجهم من حماة كما شاهد دخولهم ، ولقد حقق الله أمنيته هذه ، وأقر عينه برؤيتهم يخرجون من نفس الشارع ، والناس يرمونهم بما يصل إلى أيديهم أيام الجلاء . وفي إحدى خطبه قال :

« أما بعد : فالمعهود بإزالة النجاسة استعمال الماء ، وإن تفاحش غلظها أضيف إليه التراب ، قال عليه الصلاة والسلام: (إذا ولغ الكلب في إناء أحدكم ، فليغسله سبعاً إحداهن بالتراب[1]) ولكن هناك نجاسة لابستنا ربع قرن، ولا ينفع في إزالتها ماء ولاتراب ، إذ ليس مايقلعها إلا الحديد والنار[2] » أهـ .

ولم يبال رحمه الله بطغيان المستعمرين وإرهابهم وبطشهم ، بل اندفع يزأر من فوق منبر السلطان ، داعياً إلى الجهاد والثورة المسلحة ضد المستعمرين . ومما قاله في ذلك : « أيها المسلمون ، أعدوا أنفسكم للجهاد ، وطنوها على الموت ، موت شريف خير من حياة تعيسة ،ضربة

---

(١) رواه الإمام مسلم وأبو داود والنسائي وأحمد والترمذي . انظر الفتح الكبير .

(٢) من الخطب المكتوبة .

بسيف في عز خير من صفعة بيد في ذل ، طعنة برمح في شرف أحب إلى القلب الكبير من نظرة شزراء في مهانة، ركوب الصعاب والأهوال في ارتفاع أجمل بكثير من الراحة والدّعة في استخذاء .

أيها الإخوان لقد استخفت فرنسا بنا ، وخاست بكل العهود ، ولم ترع المواثيق حرمة ، لقد طلبت منا آخراً أن نقبل أموراً ، فيها ترسيخ أقدامها في هذه البلاد واستعباد أهلها ، فاغضبوا ثم اغضبوا ، وثوروا ثم ثوروا ، فما عاد السكون ينفع ، وما عاد السكوت يفيد ، لقد كان نبيكم صلوات الله عليه وسلامه يرتجز هو وأصحابه قائلين :

المشركون قد بغَوا علينا وإن أرادوا فتنة أَبينا

أَبينا أَبينا

وما أجدرنا إعادة ذلك الرجز قائلين :

هذي فرنسا قد بَغَت علينا وإن أرادت فتنةً أبينا

رددوا معي : أبينا . أبينا . أبينا

أيها الإخوان ، إن العالم يرقبكم ، وينظر من قرب ومن بعد إلى هذا الصراع بين الحق والباطل ، بل إن رسول الله صلى الله عليه وسلّم وأصحابه ينتظرون ما أنتم فاعلون ، بما خلفوا لكم من تراث مجيدعجنوه بدمائهم الزكية ، فهل ياترى تختلط دماؤكم بدمائهم في هذه الأرض،أم تضنون بها،فلايكون لكم حظ من هذا السخاءالشريف[1]» .

---

(١) من الخطب المكتوبة .

وأثناء إضراب البلاد احتجاجاً على المستعمرين ، كان ينبه الناس لمساعدة العمال الفقراء الذين انقطع مورد رزقهم أثناء ذلك ، ففي إحدى خطبه قال : « وأمر آخر أيها الإخوان ، له أهمية وله قيمة ، هو العطف على العمال الفقراء الذين برهنوا على وطنية صادقة ، وإيمان متين باستمرارهم في الإضراب مشاركين إخوانهم في إظهار الشعور المجيد[1] » أهـ .

ولم ينقطع – رحمه الله تعالى – عن خطبه المنبرية أيام الجمع في أشد ساعات الخطر ، فلقد خطب وطائرات المستعمرين تضرب حماة ، وتلقي قنابلها على المساجد . ولما كلل الله جهاد الأمة بالنجاح ، ونالت استقلالها ، شارك الشيخ – رحمه الله تعالى – في أفراح الاستقلال ، ورفع بيده علم الاستقلال على الثكنات العسكرية، التي كانت مركزاً لحامياتهم العسكرية في مشارف البلد الغربية، بعد أن أذّن بنفسه فيها.

ولما وقعت مأساة فلسطين، تألم الشيخ كثيراً، ودعا إلى الخروج للجهاد ، وأراد رحمه الله أن يخرج بنفسه ، ولكن كبار العلماء أشاروا عليه بالبقاء لحاجة الأمة إليه ، ولكثرة عدد المجاهدين، فانضم إلى اللجان المشكلة لأجل مساعدة اللاجئين ومواساتهم ، وجمع المعونات المادية لهم ، وكان يطوف على الناس بنفسه لهذا الغرض . ولقد استحوذت قضية فلسطين على اهتمامه ، فخصص لها الكثير من خطبه المنبرية ، وكتب عنها عدداً من المقالات في الصحف والمجلات .

---

(١) من الخطب المكتوبة .

وكان يرى رحمه الله تعالى ، أن حالنا مـــع اليهود لا تحلها إلا القوة ، ولقد جعل ذلك عنواناً لمقـال نفيس ، نشره في بعض المجلات وضمّنه كتابه المشهور ردود على أباطيل ومما قاله فيه :

« همّ قد أقلقني وأبعدني عن الهدوء،وزج بي في غمرات الحزن، ولم لا أحزن والخطر يدنو ، والشر يكبر ، والأمر لايزداد على الأيام إلا شدة ، وقوى الشر لاتنفك تزيد العدو المغتصب ، وتدفـع عنه ، وتمده بمايزيده لجاجاً في باطله، وإمعاناً في غيه !! أي شر هذا الشر الذي منينا به ، وأية غفلة غفلتنا عن تقدير حقيقته ؟ الويـل لنا إن دامت غفلتنا ، وطال ثواؤنا على الأباطيل ، وتعلقنا بالأماني والأحلام ، دون أن نواجه الحقائق المرة القاسية .... حالنا مع اليهود لا تقبـل هدنة ، ولا تدنو من صلح ، إنها عقدة لاتحلها إلا القوة وإنهم ليسابقوننا إليها، ليأكلونا بها ، ويذيبونا في أحشائهم ، فلنأخذ نحن بأسباب هذه القوة التي تخضد شوكتهم ، وتكسر رؤوسهم ، وتردهم على أعقابهم مدحورين ، وإنهـــا لتعتمد قوة النفس وصلاحها ، وصلتها الوثقى بالله تعالى العزيز القدير ناصر المؤمنين ، كما تعتمد إعداد السلاح، ولن تتم القوة والميوعة أصل لدينـــا معتمد ، والحرب للدين طريق معبد ، ومحاربة الله بالفسق عن أمره معلن بها[1] » أ هـ .

وكان دائم الوصية للشباب ، لينضموا إلى الجيش ، ويكونوا من ضباطه وجنوده ، وفي عام ١٩٥٦ م أثناء الاعتداء الثلاثي على مصر

---

(١) انظر ردود على أباطيل .

انضم الشيخ إلى صفوف المقاومين الشعبيين ، وحمل السلاح بنفسه ، وكان يخرج على رأس إحدى المجموعات إلى حقول التدريب . ولما وقعت نكسة حزيران عام ١٩٦٧ م اتصل رحمه الله بمحافظ البلد ، وعرض عليه نفسه وجهوده ، وأخذ يشد من عزيمة الناس ، ويعمل على تقوية معنوياتهم ، ويدعوهم إلى التدرب على استعمال السلاح ، وقد خرج بنفسه رحمه الله إلى حقول التدريب والرمي ؛ ليتدرب على إصابة الهدف بصورة عملية . وعين عضواً في اللجان المشكلة حينئذ لتنظيم الدفاع عن البلد ، كما قام بدعوة لجان من الأحياء المختلفة ، بواسطة جمعية العلماء ، لمساعدة المحتاجين وأسر المجاهدين .

جهادهُ الاجتماعي

منذ أن استقلت البلاد ، أدرك الشيخ - رحمه الله تعالى - أن الأمة أصبحت على مفترق الطرق ، فقد ظهرت فيها دعوات مختلفة الاتجاهات ، تدعو إلى الميوعة ، والتحلل من التكاليف الدينية ، ونشر الفساد في البنية الاجتماعية للأمة ؛ وذلك بتشجيع السفور والتبرج ، واختلاط الرجال بالنساء . هذا فضلاً عن أفكار تشكك الناس بعقيدتهم وتدفعهم إلى الإباحية والإلحاد .

ورأى أن واجبه الأول في هذه الحياة ، أن يقف في وجه هذه التيارات، وأن يعمل للحفاظ على عقيدة الأمة وذاتيتها المستقلة، وكيانها المتميز ، فقام رحمه الله تعالى بهذا الواجب ، متحملاً كل متاعبه ومسؤولياته ، ومعرضاً نفسه لمخاطر جسيمة .

ولقد امتاز جهاد الشيخ في هذا المضمار بصفات أهمها :

أولاً : السلاح الوحيد الذي استعمله الشيخ في جهاده هذا هو العــــلم ، والرد العلمي المقنع المؤيد بالأدلة والبراهين ، تزينه العاطفة الصادقة ، النابعة بصدق وإخلاص من قلبه الكبير .

ثانياً : لم يكن الشيخ في جهاده ، يعادي إنساناً معيناً أو فئة خاصة ، فقد كان يعتبر نفسه لجميع الناس ، ولهذا لم ينضم إلى جماعة معينة ، ولم ينتظم في سلك فئة من الفئات . بل على العكس ، كان يرى أن كثرة الفئات والجماعات في الأمة ، خطر يهدد وحدة الأمة ، ويمزق كيانها . ويرى أن العالم يجب أن يكون لكل الناس ، وفوق كل الفئات والجماعات ، حتى يبقى مسموع الكلمة والنصح عند الجميع .

ثالثاً : كان – رحمه الله تعالى – في معارضته للتيارات الفكرية الفاسدة ، يحرص على السلم والأمن ، ويتجنب إثارة الفتن والفوضى ، لئلا يؤدي ذلك إلى فساد أكبر ومنكر أعظم . وكان كثيراً ما يردد: « نحن عنصر سلام ، وأينما حللنا حل السلام . لانريد الشر لأحد من الناس ، ونتمنى أن يخلق الله الخير على يد أي إنسان » ولقد ظهر موقفه هذا بصورة عملية ، في الحوادث الكبيرة التي مرت على حماة سنة ١٩٦٤م عندما قام رحمه الله تعالى بدور كبير ، لتهدئة القلوب ، وإعادة الوئام والسلام إلى النفوس . وكان في هذا عنصر الرحمة والخير والبر ، هيأه الله سبحانه لهذا البلد ، مواسياً للمحزونين ، ومساعداً للمحتاجين ، ومخففاً كرب المكروبين . ولم يكن رحمه الله يقتصر في مجاهدته للمفاسد الاجتماعية والفكرية على جانب واحد في الأمة ، إنما كان جهاده موجهاً

إلى كل مصادر الفساد والإضلال ؛ ولهذا لم يغفل -- رحمه الله تعالى — عن المترفين والمبذرين ، الذين كانوا مطية الشيطان الكبرى في إدخال مفاسد كثيرة إلى البلد ، فلقد أنكر عليهم ترفهم وتبذيرهم ، وخصص لهذا الأمر بعض الخطب المنبرية التي كشف فيها الكثير من مفاسدهم وجورهم وعسفهم .

وفوق كل هذا لم ينس — رحمه الله تعالى — أن يقف في وجه أدعياء العلم ، الذين يأكلون الدنيا بالدين ، ويسكتون عن المنكرات، بل ويمالئون فاعليها ، ويزينون للناس المعاصي ، ويعلمونهم الحيل ؛ لخرق أسوار الشريعة . حتى إنه في إحدى الخطب نادى بصراحته المعهودة قائلًا :

« والله ما أفشى المنكرات وعممها ، وجعلها ظاهرة لايبالى بها، إلا إغضاؤنا على القذى ، وسكوتنا على الباطل ، وممالأتنا لأصحابه . ماضر الجماهير شيء كسكوت الواعظين ، حين يرون المخالفات العلنية ، فلايزجرون عنها . وما كثر عدد المبطلين إلا عدم تقريعنا أدنياء الهمم ، وصغار النفوس ، الذين يطلبون رضاء الناس بسخط الله عز وجل . هذا هو الذي زعزع كثيراً من الناس عن المبادىء الشريفة ، وجعلهم يسعون وراء أبناء الدنيا ، لينالوا من حطامها وأوساخها التي يرميها إليهم المترفون[1] » اهـ .

هذا الجهاد الاجتماعي في ميادينه المتعددة ، كان أبرز الأمور في

(١) من الخطب المكتوبة .

حياته رحمه الله ، وأكثرها تأثيراً ، ولقد صرح بهذه الحقيقة عندما سئل في مجلة حضارة الاسلام عن أبرز الأمور التي كان لهـا كبير التأثير في حياته ، فأجاب رحمه الله بمايلي :

« أبرزها على العموم ، وقوفي موقف المضاد للإلحاد ، الذي فشا في الجيل الصاعد ، وعملي على رد هؤلاء الشاردين عن الحقيقة إليها ؛ رحمة بهم واستخلاصاً لهم من مهاوي الشقاء . أما الثابتون منهم على الاسلام فما أزال دائباً في تغـذيتهم بالعلم الواقي ، والمعرفـة الدارئة ؛ كي تقوى فيهم ملـكة المناعة الايمانية ، فلا يجد الزيـغ سبيـلًا إلى قلوبهم ليفسدها[1] » . أ هـ

وفي هذا يشير رحمه الله تعالى إلى أهمية العلم، وأن العاطفة الايمانية المجردة من العلم لا تـكفي . وهذا أيضاً ميدان آخر من ميادين جهاده، ولقد حدثني عن هذه الناحية كثيراً ، حدثني رحمه الله ، كيف أنه منذ عشرين سنة ، وهو يدعو الشباب إلى العلم ، ويبين لهم أهميته ، وأن العواطف المتأججة في قلوبهم حماساً للاسلام لا تفيد الاسلام ، إذا بقيت مجرد عواطف ، لأنها سرعان ما تخبو وتنطفىء ، وقـد تؤدي بصاحبها بعد ذلك إلى الانحلال والميوعة ، عكس ما كان عليه في الماضي، وذكر لي أن الكثير من الشباب الذين عرفهم؛ كانوا ممتلئين حماساً للاسلام، وإذا بهم بعد أن هـدأ حماسهم ، ينقلبون على الاسلام ، ويسيرون في طريق تخالفه . ذكر لي كل هذا رحمـه الله ، والحسرة تملأ قلبه ؛ وتحز في

---

(١) ضيف الحضارة

نفسه على هؤلاء الشباب الذين فوتوا فرصة التعليم على أنفسهم ، فخسر الكثير منهم أنفسهم ، وخسروا دينهم »

جهاده التعليمي

المدرسة والمسجد هما الميدانان الرئيسيان لجهاده التعليمي . أما المدرسة فقد كانت مركز عمله الرئيسي ، فمنذ أن عاد من مصر ، اختار طريق المدرسة ، وفضله على منصب القضاء ، لأنه رحمه الله كان حريصاً على نشر العلم ، مع أن منصب القضاء كان ميسراً له ؛ نظراً لشهادة التخصص في القضاء التي حصل عليها من الأزهر ، وقبل أن يعود إلى بلده كتب لشيخه بهذا الموضوع فقال :

« وأرجو سيدي ، أن يدعو لي بالنجاح في هذا العام وبالتوفيق؛ حتى أعود إلى بلدي، وأعمل على خدمة الله تعالى بنشر العلم ، فإني لا أرَب لي بتولي القضاء ، وأوثر العمل لخدمة الاسلام في هذا الوقت ، الذي عمل فيه الموت عمله بالعلماء ، حتى قلّ عددهم ، ورزقي على الله تعالى وتبارك . هذه نيتي ، أن أعمل في صالح الاسلام والمسلمين ، بما يفيضه عليَّ ربي تبارك وتقدس ، من علم وهدى وروحانية ، وهو حسبي ونعم الوكيل ، ولا حول ولا قوة إلا بالله العلي العظيم[١] » . أ هـ

وبدأ عمله في تجهيز حماة بشكل تكليف ، يتقاضى أجره بحسب

(١) من رسائل مصر

الساعات التي يقوم بتدريسها، ثم بعد سنتين ثبت مدرساً في ملاك وزارة التربية والتعليم لمادة الديانة والعربية ، وبقي في عمله هذا دون انقطاع ، حتى أجهده المرض ، ونصحه الأطباء بالتخلي عن ثلثي أعماله ، عندها ترك رحمه الله المدرسة مضطراً متألماً لتركها ، حتى إنه كلما مرّ قرب المدرسة، ظهرت على وجهه الشريف علامات اللوعة والحسرة لفراقها ، فقد كانت بالنسبة له ميداناً رئيسياً من ميادين جهاده .

وفي إحدى خطبه المكتوبة ، تحدث رحمه الله عن مبدأ جهاده التعليمي في المدرسة ، فقال :

« لا أخفي عليكم أيها الإخوان ، أنه لما وجهت عليّ وزارة المعارف تدريس الديانة والعربية في تجهيز حماة، كنت كثير التشاؤم من حال الطلاب ووضعهم ، فكنت أخشى الغربة الدينية فيما بينهم، ولكن بعد قليل من الزمن ، تبدل تشاؤمي تفاؤلاً ، وانقباضي انبساطاً واستبشاراً ، لأني وجدت وجوهاً قد استنارت بنور الهدى بقليل من الجهد ، لا يقاس بغيره من باقي الجهود لو شئنا المقايسة . وهذا أكبر دليل على استعداد الطلاب الفطري للخير، وسيرهم في اتجاهه ، لو وجدوا توجيهاً دينياً صالحاً ، وإن واتاهم توجيه لا ديني ، نشأوا لا دينيين؛ لأن نفوسهم تقبل التطبع بشتى الأشكال . ولقد صدق المصطفى ﷺ في قوله الكريم :

« كل مولود يولد على الفطرة ، فأبواه يهودانه ، أو ينصرانه ، أو

يحسانه »[1]. حثثتهم على إقام الصلاة والمداومة عليها ، فصاروا يصلون ، ويحضر بعضهم الدرس العام في هذا المسجد مساء ، وقذف الله تعالى النور في قلوبهم ، فشعروا بتفريطهم في الماضي ، فطفقوا يسألونني عن أحكام تتعلق بقضاء الفوائت ، ومن قريب سألني أحدهم عن حكم يتعلق بقيام الليل مبدياً رغبته في قيامه . وهذه والله حال تسر كل مؤمن. أولادكم يامسلمون ، فيهم استعداد طيب ، فهلا تسعَون إلى استثمار هذا الاستعداد في الخير دون الشر ، أشفقوا أن تلقوا أفلاذ أكبادكم في النار بترك الغوائل اللعينة تغتالهم [2] » أه .

وأما المسجد ، فقد كان الميدان الثاني لجهاده التعليمي . وكما كانت المدرسة وسيلة لاتصاله بالطبقة المثقفة في الأمة ، كان المسجد وسيلة اتصاله بأفراد الأمة جميعاً ، يلتقي بهم كل جمعة في خطبه المنبرية التي كان يتناول فيها موضوعات مختلفة . بعضها في العقيدة ، وبعضها في عرض مسائل علمية يحتاج إلى معرفتها الناس ، وأكثرها في بحث مشاكل الأمة التي تعاني منها . وقد كان رحمه الله تعالى ، يختار في أكثر خطبه المواضيع ذات الصلة بحياة الامة ، ولا يقتصر على نوع معين من المواضيع شأن أكثر خطباء المساجد في ذلك الوقت ، وفي أول عهده في الخطب المنبرية، كان أكثر الخطباء يلقون خطبهم المكتوبة بشكل مسجوع بلحن خاص ، فخالفهم الشيخ رحمه الله بخطبه التي كان

---

(١) رواه الترمذي من حديث أبي هريرة ، ورواه أبو يعلى في مسنده ، والطبراني في الكبير من حديث الأسود بن سريع . انظر الفتح الكبير .

(٢) من الخطب المكتوبة .

يرتجلها دون مراعات للتقاليد القديمة المتوارثة . ولذلك كان في خطبه أقرب إلى قلوب العامة وأفكارهم من غيره من الخطباء ، نظراً لصدق نيته ، وصفاء سريرته ، وحسن عرضه لأفكاره بلغة يفهمها العامة وتحظى بإعجاب الخاصة .

وأما الدروس العلمية في المسجد ، فلها حديث خاص سأفصله إن شاء الله في بحث المنهج العلمي عند سيدي رحمه الله تعالى .

المرحلة الأخيرة

وما ترك رحمه الله ميادين جهاده هذه حتى آخر حياته ، إلى جانب أعماله العلمية الكبيرة ، وواجباته الاجتماعية الكثيرة، ولم يفطن – رحمه الله تعالى – وهو في خضم أعماله ومسؤولياته إلى العلة التي تسربت إلى كبده ، والتي ساعد على سرعة سريانها الأثقال الكثيرة التي ينوء بحملها العديد من الرجال . ولما بدأ أثرها يظهر في إضعاف جسده ، كان – رحمه الله – يتألم لما يشعر به من ضعف ويعجب منه ، ومع ذلك كان يجاهد ضعف جسمه بقوة روحه وشدة عزمه ، فيمضي رحمه الله في معاناة واجباته وأعماله المتزايدة مع مرور الأيام ، معتقداً أن هذا الضعف أمر عارض ، سرعان ما يزول بإذن الله تعالى ، ولكن الضعف العارض أصبح لازماً . ومع ذلك لم ينثن رحمه الله عن ميدان من ميادين جهاده ،ولم يتخل عن أي عمل من أعماله،حتى أثخنته الجراح، وأجهدته الآلام ،ولم يبقَ له من الجسد إلا قبضةالسيف ومؤخرة الرمح

وهوى بما تبقى له من جسده على فراش الابتلاء والمرض ، وصدق رسول الله ﷺ في الحديث الشريف ، الذي رواه ابن ماجــه والحاكم على شرط مسلم ، عن أبي سعيد رضي الله عنه ، أنه دخل على رسول الله ﷺ وهو موعوك ، عليه قطيفة ، فوضـع يده فوق القطيفة ، فقال : ماأشد حُمَّاك يارسول الله ؟ قال : «إنا كذلك ، يشدَّدُ علينا البلاء، ويضاعف لنا الأجر » ثم قال : يا رسول الله : من أشد الناس بلاءً ؟ قال : « الانبياء » قال ثم من ؟ قال : « العلماء » قال ثم من ؟ قــال : « الصالحون . . . الحديث » .

ولم يستطع المرض بآلامه وشدائده أن يصرف الشيـخ عن ميادين جهاده ، بل كان ميداناً جديداً انضم إلى ميادين جهاده . فكيف كان الشيـخ في مرضه ، وما هي مراحل المرض وتطوراته حتى قضى به رحمه الله تعالى ؟

أصدق إنسان في هذا، الأخ الطيب ، السيد سلمان نجار حفظه الله تعالى ، لأنه كان ألصق الناس بروح الشيـخ وقلبه وجسده . شرفه الله تعالى بخدمة الشيـخ وملازمته طيلة فترة المرض . لهـذا طلبت منه أن يكتب في وصف هذه المرحلة من حياة الشيـخ ، فكتب ـ جزاه الله خيراً ـ هذا الفصل التالي .

بسم الله الرحمن الرحيم

ذكرياتي

عن العلامة الراحل في آخر المراحل

الحمد لله رب العالمين ، والصلاة والسلام على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه أجمعين ، ورحمة الله تعالى وبركاته عليك يا فقيدنا الراحل .

كنتَ السوادَ لمقلتي ... فعَمِي عليكَ الناظرُ
من شاء بعدكَ فليمتْ ... فعليكَ كنتُ أحاذرُ

وبعـــد :

عهد إليّ نفر من خُلّص إخواني ، أن أكتب عن مرض فقيدنا رحمه الله تعالى ، وأحواله فيه ؛ باعتباري وقفت على مرضه منذ عدة سنوات، وتشرفت بخدمته عند سفره الأخير إلى بيروت لإجراء العملية الجراحية. ولقد وددت لو أن غيري من المحبين كفاني هذه المهمة الصعبة، لما أعلم من ضعفي في مثل هذه الأحوال ؛ ولكنه جهد المقل .

وأبدأ كلامي هذا بإعطائي لمحة موجزة عن المرض الذي توفاه الله تعالى به ، وهو مرض تشمع الكبد .

تعريف تشمع الكبد .

من التعاريف المقبولة للتشمع ، أنه ازدياد النسيج الليفي في الكبد ، مع اضطرابات في انتظام الخلايا ووظائفها . وله أسباب كثيرة معروفة في المطولات من كتب الطب . وهو مرض مزمن عضال ، لا يقبل التراجع فيما أصاب من خلايا الكبد (في العامّ الأغلب) . وغاية المعالجة الدوائية فيه بصورة عامة ، تعويق امتداده إلى ما تبقّى من خلايا ، أو إيقافه .

لمحة عن الدوران في الكبد .

يرد إلى الكبد وريد الباب الذي يأتي بالدم من معظم أحشاء البطن ، ويصدر عن الكبد أربعة أوردة تسمى بالأوردة فوق الكبد ، تصب في الوريد الأجوف السفلي ، وهو بدوره يصب في الأذينة اليمنى من القلب ، ويغذي الكبد الشريان الكبدي ، وفي الكبد نظام دوراني معقد لا يتسع المجال لشرحه .

لمحة عن وظائف الكبد .

تعتبر الكبد أكبر غدة في الجسم ، ومما يدل على أهميتها البالغة ، أن خلاياها البسيطة ، تشترك في معظم أعمال البدن ، التي يستحيل بعضها دون تدخل عمل الكبد . ومن المعروف أن استئصال الكبد مميت بعد ساعات قليلة ، ومن أهم وظائفه :

١ – وظيفة إفرازية : (عمل الصفراء وإفراغها)

٢ – وظيفة استقلابية : (تستقلب بها المواد الغذائية المختلفة التي تمتص عن طريق جهاز الهضم) .

٣ – وظيفة تخريب السموم .

٤ – وظيفة تكوين الدم .

٥ – وظيفة التخثر الدموي .

٦ – وظيفة تولد الحرارة .

ماذا ينتج عن تشمع الكبد .

١ – ضعف وظائف الكبد جميعها ، مما يجعل الحياة متعذرة في مراحل المرض الأخيرة .

٢ – فرط توتر وريد الباب ، وتكوين دوالي المريء :

يتسبب فرط توتر وريد الباب عن الركودة الدموية ، المتأتية عن تضيق شعبه الدقيقة في الكبد ، وانسداد بعضها لازدياد النسيج الليفي فيه (والشعب الأخرى في طريق الانسداد) مما ينتج عنه ضخامة الكبد (التي تضمر أخيراً) والطحال ، واحتقان الأحشاء التي يصب دمها في وريد الباب ، فيؤدي إلى تكوين دوران جانبي معيض ، تنشأ عنه دوالي المريء المؤدية إلى النزف بانفجارهاوالقضاء على حياة المريض، قبل أن يقضي عليه التشمع بالذات .

٣ – تكوين الحبن : وهو سائل يتجمع في جوف البطن ، وتشترك فيه ثلاثة عناصر :

١ – فرط توتر الدم في وريد الباب .

٢ – نقص مادة الآلبومين من مصل الدم (لأن صناعة الآلبومين من وظائف الخلية الكبدية) .

٣ – اضطراب هرموني في توازن العوامل المدرة والمضادة للإدرار ، فتنقلب العوامل الأخيرة ، ويزداد حبس السوائل في البدن .

العمل الجراحي .

إن غاية العمل الجراحي ، تخفيف الضغط عن وريد الباب بإجراء وصلة بينه وبين الوريد الأجوف السفلي Porto Cava Shumt فيزول الدوران المعيض ، وينفي خطر النزف من دوالي المريء المتكونة ، ويخف الحبن ، ويفسح المجال أمام ما تبقى من خلايا الكبد للنشاط والتجدد إن أمكن ، فيترك عندها المريض ليعيش ضمن إمكانيات كبده ، آمناً من خطر النزف الذي يقضي على حياته ، قبل أن ينتهي عمر كبده .

ظهور المرض .

كان مرض فضيلة الشيخ رحمه الله تعالى كما وصفته مرضاً عضالاً . من أهم أسبابه ، تلك الأحداث الخطيرة التي واجهته في حياته ؛ سواء منها ما حل ببلدته حماة خاصة ، أو ما حلّ بالعالم الإسلامي عامة . وكثيراً ما كنت أسمعه يقول بيني وبينه : « أخشى أن أقع في مرض عضال لا أشفى منه » ، وقد حدث فعلاً ما كان يخشاه ، إذ وقع فريسة لمرض السكري منذ أكثر من خمس سنوات ، ثم كشف عنده قبل وفاته

بسنة تقريباً ، أنه مصاب بتشمع الكبدالذي ظهر بعرضه الخطر المسمى بالحين ، وإن السكري عنده مظهر لضعف الكبد ، بسبب اختلال وظيفته الاستقلابية ، وليس ناشئاً عن قصور غدة المعثكلة (البانكرياس) والتي تعتبر المتهم الأول لظهور السكري ، عند الأشخاص الذين هم في مثل سن الفقيد رحمه الله تعالى .

ورب سائل يسأل . لِمَ لَمْ تكشف أعراض قصور الكبد قبل ذلك الحين ، طالما أنبأتْ عن نفسها بزيادة نسبة السكر ، فتكون العلة بأولها ، والعلاج عندها أنجع ؟

والجواب على هذا يعود إلى السبب الرئيسي التالي :

إن فضيلته رحمه الله تعالى ،كان مشغولاً عن مرضه بجهاده العلمي الطويل الذي ملك عليه أوقاته ، ولم يفسح له المجال لتتبع أسباب علته تتبعاً دقيقاً ، بالسفر إلى أطباء مختصين في دمشق وغيرها ، إلا بعد أن ألحت عليه العلة بشكلها الواضح . وكأنه رحمه الله تعالى ، يعلم حاجة المسلمين إلى أمثاله ، وأنه مرابط على ثغرة من ثغور الاسلام الحنيف يتعذر على غيره سدها ، ولا يجب أن تؤتى من قبله ، ويؤكد هذا المعنى عن فضيلته ، أنه ما حج نفلًا بعد حجة الفريضة ؛ رغم تشوقه إلى هاتيك الديار كما صرح بذلك .

وقد ضيقت عليه الحمية زيادة على الحمية السابقة بسبب السكري ، ونصحه الطبيب المختص « الدكتورموفق المالكي » - أسعده الله تعالى - عندما راجعه في دمشق ، بتركه سبعين بالمائة من أعماله التي اعتاد عملها . وكانت هذه النسبة هي نسبة إصابة الكبد عنده . ولما كان

ترك قسم من أعماله أمراً محتماً ، قال لي : « يا بني إني أعمل مدرساً في ثانوية ابن رشد ، ولي صفة شرعية في البلدة : خطابة ، وتدريساً ، ورداً على أسئلة المستفتين من الناس. وإني أختار ما هو أنفع للمسلمين في دينهم ، سأترك المدرسة علماً بأن نصف راتبي سينقص بهذا الترك ، وأن تكاليف التداوي ستثقل كاهلي » ؛ وتركها فعلاً ثقة بالله وتوكلاً عليه .

وخفف أعماله نسبياً ، لكنه رحمه الله تعالى لم يستمر على هذا يوماً واحداً ، بل شغل وقت راحته من المدرسة في زيادة إنتاجه العلمي ، وبحوثه الدقيقة ، والرد على أسئلة السائلين ، وفتاوى المستفتين ، التي كانت تأتيه من جميع المناطق والأقطار ، بالاضافة إلى التدريس العام والخاص ، والخطابة المنبرية ، وذلك حرصاً منه على نشر العلم وعدم كتمانه في زمان قلّ فيه العاملون ؛ وكثر فيه المنتحلون والمتشدقون والمتاجرون بدين الله ، الذين يأكلون عرض الحياة الدنيا بالدين والعياذ بالله تعالى . ولقد كان يجيب من يذكره بضعفه واعتلال صحته : « اني **لا طاقة لي بلجام من نار** » ويروي الحديث الشريف : « من كتم علماً مما ينفع الله به الناس في أمر الدين ، ألجمه الله بلجام من نار »(١) .
وكثيراً ما أقول له كطبيب : « يا سيدي إن أعمالك كلها بما فيها العبادة ، تأخذ فيها بالعزيمة ، وتدع الرخصة ، وخاصة بصيامك رمضان المبارك » ، بيد أن كلامي هذا ما كان يزيده إلا إصراراً على الأخذ

---

(١) رواه ابن ماجه عن أبي سعيد الخدري ، ورواه ابن عدي عن ابن مسعود . انظر الفتح الكبير .

بالعزيمة ، لما عرف عنه رحمه الله تعالى من ورع وتقوى ، عمّر بهما آخرته وأضر بدنياه .

تطور المرض .

ثم تطورت عنده العلة ، وداهمه العرض الأخطر لتشمع الكبد، وهو النزف الداخلي الشديد المتسبب من انفجار دوالي المريء ، والذي تكرر ثلاث مرات في حماة ، كاد يودي بحياته ، لولا أن تداركته عناية الله تعالى ، بما بذله أطباء بلدته الكرام من إسعافات ، كنقل الدم وسهر متواصل على صحته الغالية ، وخاصة الطبيب المؤمن الدكتور عبد الرزاق الكيلاني حفظه الله تعالى ، وقد التف تلامذته ومريدوه حول بيته الشريف المتواضع ، لا ينامون الليل طيلة ثلاثة أشهر قبل سفره إلى بيروت ، بقلوب وجلة ، وأعين ساهرة ، أن يداهم حبيبهم الغالي ما يكرهون ، وليسعفوه بدمائهم الزكية ، لأن كل واحد منهم يعتقد أن حياته لا قيمة لها إلا بالمحافظة على حياة حبيبه ، الذي حل منه محل الروح من الجسد ، والسواد من العين . ولا تحدث عن بكاء أحدهم وأسفه عندما كانت زمرته الدموية لا توافق دم شيخه وحبيبه .

ولقد كان يقول — رحمه الله تعالى — أمام هذه المشاعر الفياضة والعواطف الجياشة : « إنه إن شفي من مرضه هذا ، فسيعمل للاسلام — وكأنه ما عمل قط !!— وأن عمله كله سيكون جارياً في صحائفهم » ويضفي على كلامه شيئاً من دعابته المعهودة ، وخفة روحه المألوفة ، فيقول : « كيف لا وأنا أعيش بدم غيري ! وقد جدددمي مرتين !» . أي عشرة لترات تقريباً .

ولا تظنن أيها القارىء الكريم، أن الشيخ رحمه الله تعالى ، قد ترك جهاده العلمي ، وبيان الحقائق الشرعية في هذه الحال ؛ بل إنه لم يترك ذلك . ويدلك على مبلغ حرصه ، أنه كان يستحلف بالله الأشخاص الذين كانوا يوصلون إليه الرسائل التي ترده من البلاد والآفاق ، هل أخفى أحد منهم رسالة عنه ؟ ويقول : « ما وضع رسول الله صلى الله تعالى عليه وآله وسلم سيفه في غمده حتى لقي ربه » .

السَّفَرُ إلى بَيرُوت

الخميس ٢٤ ذي الحجة سنة ١٣٨٨ هـ الموافق ٣ آذار سنة ١٩٦٩ م

بعد زيارة الدكتور المالكي له في حماة ، تقرر سفره إلى بيروت لدراسة إمكانية عملية جراحية ، من شأنها قطع النزف وتخفيف الحبن ، وتركه بعدها يعيش ضمن إمكانية كبده ، فعمره في عمر كبده ، كما تقول لغة الطب ، والأمر كله بيده سبحانه وتعالى .

ومن المواقف التي أذكرها ولا أنساها قبل وفاته بشهرين تقريباً ، ساعة الوداع ، عندما غادر بيته المبارك متوجهاً إلى لبنان ، وقد تحلق حوله لفيف من محبيه وتلامذته ، يكفكفون دموعهم ، ويكتمون زفراتهم ، خشية أن يتأثر فضيلته – رحمه الله – من هذا الموقف ، وخوفاً منهم أن يكون آخر عهدهم بحبيبهم وحبة قلوبهم ، وكأن ابن زريق عناهم بقوله :

ودعتُه وبودي لو يودعني ... صفوُ الحياة وأني لا أودعهُ

ولقد سمعناه وهو يلقي آخر وصاياه إلى ولده البار ، الأستاذ السيد محمود بقوله : « تصدق على الجيران » وكأنه يشير إلى الحديث الشريف : « داووا مرضاكم بالصدقة »[1] .

ثم انطلقت سيارته مع صوت المؤذن : الله أكبر .. الله أكبر، تطبيقاً للسنة الشريفة « الأذان ساعة السفر » وتيمناً بالعودة سالماً بإذن الله تعالى ، ومع الدموع السخية والقلوب الوجلة .

وفي الطريق إلى بيروت ، كنت ثالث ثلاثة من أطباء بلدته ، رافقناه لنرعى شأنه ، ونسعفه إذا احتاج الأمر . ولما وصلنا إلى حمص زار قبر شيخه سيدي « محمد أبي النصر خلف النقشبندي » قدس الله سره[2] . والذي كانت له المنزلة الأولى في نفسه حياً وميتاً ، وفاءً له وتبركاً بروحه الطاهرة .

وكانت معظم أحاديثه - رحمه الله تعالى - تدور حول أهل الله والشوق إلى الحبيب ، فتراه ينشد أشعارهم الرقيقة في المحبة ، وطوراً يبكي ويقول:« **غداً نلقى الأحبة محمداً وصحبه** » ويكررها كثيراً، كأنما كوشف بدنو الأجل ، وأوصى الله تعالى على أولاده ، كما فعل

---

(١) رواه أبو الشيخ في الثواب عن أبي أمامة ، ورواه الديلمي في مسند الفردوس عن ابن عمر بلفظ :« داووا مرضاكم بالصدقة ؛ فإنها تدفع عنكم الأمراض والأعراض » انظر الفتح الكبير .

(٢) قدس الله سره أو قدس سره: دعاء يستعمله الصوفية مع شيوخهم. ومعناه : اللهم طهِّر باطنه .

والده سيدي الشيخ محمود الحامد النقشبندي – رحمه الله تعالى وقدس سره – من قبل .

وهذا يذكرني بآخر كتاب قرأه على الناس في الدرس العام ، وهو كتاب « مختصر تذكرة القرطبي » في أحوال الآخرة للإمام الشعراني قدس الله سره ، وكأنه قد ودع الناس به كما فهم بعض خاصته رحمه الله تعالى .

في مستشفى المقاصد الإسلاميّة

وقد كتب لي شرف الخدمة بجوار سريره المبارك في مستشفى المقاصد الاسلامية في بيروت ، وكنت أرى الوفود الكثيرة المختلفة من أهل العلم وغيرهم ، يتسابقون للتشرف بزيارته ، وسماع حديثه العذب ، ولطالما سمعوا عن فضيلته الكثير الطيب ولم يروه . وقد رأيته يحدث كل أناس بما يناسبهم ، وتحولت غرفته الميمونة في المستشفى إلى ندوة علمية ، يبلغ فيها أحكام الله تعالى ، ويسدي النصائح الدينية والتربوية للشباب الذين تهافتوا عليه تهافت الفراش على النور . وكان – رحمه الله تعالى – شديد الحرص على سلامة عقائدهم وصيانتها، لكثرة ما يخامر عقول الشبيبة في هذا الزمن ، من فكر منحرفة مضللة ، وعقائد فاسدة . وكان يقول رحمه الله تعالى : « بدع العقائد ، تخلد صاحبها في النار . أما بدع الأعمال ، فتعرض صاحبها للعقوبة أو الغفران » .

وهرع السوريون في لبنـــان – وخـاصة الحمويين منهم – إلى زيارته ، والاطمئنان على صحته ، والتبرك بخدمته بكل حرارة وحماسة.

وحدث مرة وهو في بيروت – رحمه الله تعالى – أن قال له أحد السالكين – جهلاً منه – : «إن جسد النبي صلى الله عليه وسلم نور خلقةً». يعتقد بهذا زيادة في شرفه ﷺ وسلم ، فاستتابه – رحمه الله تعالى – من ذلك الاعتقاد ، وجدد له إيمانه ، وعقد نكاحه ، بعد أن أخبره بأن هذا القول كفر وأن النبي صلى الله عليه وآله وسلم إنما هو بشر ، خلق من تراب ، لكن النور يتخلل جسده الشريف حساً ومعنىً . وكثيراً ما كنت أقول له رحمة به : « لا تنس أنك مريض » ولأن مجرد الكلام محظور عليه طبياً ، لكنه رحمـــه الله كان ينسلخ من حـال علته أمام جليسه ، حتى يخيل إليك أنه سليم وما به من علة . إلا أنها روحه القوية الطاهرة التي ما برحت تفيض على زائريه ، فتمثل الشيخ في عنفوان الشباب وأوج القوة ، ويجيبني : **« إن الله تعالى سائلي عـن هذا العلم ماذا صنعت به ؟ فبم أجيبه ؟ وقد يسر لي التحصيل العالي ، وسماع الكلمة ، وقبولها عند الناس ، وقد جاؤوني وأنا أحب أن أنصح لهم لله تعالى »** .

وأذكر أنه زاره شيخ شابٌ ، كان على جـانب عظيم من المحبة لفضيلة الشيخ رحمه الله تعالى ، رغم حداثة عهده به . وما أن لاحت بوارق محبة الشيخ – قدس الله سره – للنبي صـلى الله عليه وآله وسلم أمـــام ناظريه ، وأن فضيلة مولانا أحد الأقطاب المؤسسين للمجلس الشريف في الصلاة على النبي صلى الله عليه وآله وسلم في حماة ، وغيرهـا

من البلاد الشامية ، حتى اشتعلت في قلبه محبة الرسول الاعظم صلى الله عليه وآله وسلم ، وطلب إجازة من الشيخ رحمه الله تعالى في إقامة مجلس شريف في الديار اللبنانية ، لتعود على لبنان بالخير والبركة . فأجابه رحمه الله وشجعه على ذلك ، وقال : « **لو استطعت أن آمر حفظتي بالصلاة عليه لفعلت** » .

وكان هذا المجلس الشريف من بركة زيارته إلى بيروت رحمه الله تعالى .

النزفة الرابعة

وفي خلال إقامة مولانا ــ قدس الله روحه الطاهرة ــ في المستشفى ، فاجأه النزف الرابع قبل إجراء العملية الجراحية ، لكنه مر بسلام بعونه تعالى ، وتداركه أطباء المستشفى بالسرعة المطلوبة .

وبهذه المناسبة ، لايسعني إلا أن أعرب عن شكري الجزيل للشباب المؤمن في لبنان ، حيث سارعوا للتبرع بدمائهم الزكية ، لتعطى للشيخ رحمه الله تعالى ، كما فعل إخوانه في حماة من قبل . وأذكر هنا أن الشيخ ــ رحمه الله تعالى ــ كان يصر على أن لا يأخذ الدم ، إلا من إنسان يحافظ على طاعة ربه ، وكان يقول : « **لاأحب أن يخالط دمي إلا دم مؤمن ركع لله وسجد** » .

ولقدأمنني على تنفيذ هذا . ولشدما كانت فرحته رحمه الله تعالى عظيمة ، عندما بلغته أن هؤلاء الفتيان ، تبرعوا بدمائهم ، وهم

يذكرون ربهم سبحانه وتعالى . ومن طريف ما حدث أن زاره أحد الشبان ، فأحبه لمجرد رؤيته له ، وسارع إلى التبرع بدمه ، فاستوقفه إخوانه ، لأن فضيلة الشيخ رحمه الله تعالى لن يقبل منه هذا التبرع ، إلا إذا تاب توبة نصوحاً ، وعاهد نفسه على القيام بطاعة الله تعالى . فما كان منه إلا أن أعلن توبته ، وإقلاعه عما فرط به في حق نفسه ، فقبلوا منه عند ذلك أخذ الدم .

فتأمل يا أخي الكريم قوة حال هذا المرشد الكبير ! كيف قلب حطب المعاصي إلى رطب الطاعات ، وجمر الآثام إلى ثمر الحسنات بإذن الله تعالى . فكان رحمه الله تعالى من القوم الذي لا يشقى بهم جليسهم ، إذا نظروا أسعدوا ، وإذا رُؤوا ذُكر الله عز وجل . وذكر أحد طلاب العلم أمام فضيلة — مولانا رحمه الله تعالى — أن إعطاء الدم ، فيه إحياء للسنة الشريفة ، وهي سنة الحجامة ؛ يريد بذلك الحديث الشريف : « إذا اشتد الحر فاستعينوا بالحجامة لا يَتَبَيَّغ[1] الدم بأحدكم فيقتله[2] » ، ويشكرونه رحمه الله تعالى أن ساعدهم على إحياء هذه السنة المطهرة ، فأجاب رحمه الله تعالى : « إن الفصادة لا تكون سنة ، إلا حيث يتبيّغ الدم ، ويثور في البلاد الحارة ، أما في بلادنا فليست كذلك ، لاعتدال الطقس عندنا » فقلت : ولو أن يوماً قائظاً في بلادنا وتبيّغ فيه الدم ؟ فقال رحمه الله تعالى : « حيثما كان ثوران الدم وتبيّغ ، كانت الفصادة سنة » .

---

(١) البيغ ثوران الدم ، وتبيغ الدم : هاج وغلب ، كما في القاموس المحيط .

(٢) رواه الحاكم في المستدرك عن أنس بن مالك . انظر الفتح الكبير .

وكأنه يريد أن العلة تدور مع المعلول وجوداً وعدماً . ثم أضاف قائلًا : « **إني إذا ظفرت بالنص الشرعي أسلم إليه ، وأقف عنده وأبحث عن الحكمة فيه ، وأغوص عليها ، فإن وجدتها حمدت الله تعالى ، وإلا بقيت على أصل التسليم** ». فكان رحمه الله تعالى – كما قال لي أحد الأولياء فيما وصفه به –: **سالم ، مسلم ، مسلّمٌ لله ورسوله، سعيد في الدنيا والآخرة إن شاء الله تعالى** » .

فتأمل معي – رحمك الله تعالى – هذه الحادثة الطريفة، وكيف أن مولانا قدس سره ، كان وقافاً عند حدود الله سبحانه وتعالى ، لا يحرف الكلم عن مواضعه ، لم يرض أن يُعطى الدم إليه ، علماً أنه كل شيء في إنقاذ حياته من الوجهة الطبية – على حساب تفسير خاطىء للحديث الشريف، وإن اعتقد أن هذا العمل في ذاته خير محض مثاب فاعله إن شاء الله تعالى .

وليس هذا موقفاً غريباً عنه رحمه الله تعالى ، وهو الذي صرح مرات عديدة : **أن دينه أغلى عليه من ماله وولده ونفسه التي بين جنبيه** .

وكان في هذه الفترة ، كثيراً ما ينشد أشعار المحبة في الله تعالى، والشوق إلى لقائه ، فيبكي ويبكينا ، فتقول له أهله الطاهرة : « **أشفق على نفسك** » فيقول : « **دعينا نمت في حب الله ورسوله ، دعينا** » ويزيد في البكاء حتى نرحمه .

قبيل العملية الجراحية

ولما كان النزف بشبحه الرهيب يتهدد حياة الشيخ رحمه الله تعالى، مرة في كل خمسة وعشرين يوماً ، ومن المعلوم لدى أرباب مهنة الطب، أنه كلما تكرر النزف ؛ زاد مقداره ، وعظم خطره ، وقضى على المريض بشكل صاعق ، حتى إذا جاوز النزفة الرابعة ، أضحى الطبيب وأهل المريض سواءً ، كلاهما ينظر إليه وهو يلفظ آخر أنفاسه ، مع آخر قطرة من دمه ، وإن كان إمكان العمل الجراحي في هذه الحالة الجراحية ، فهو في أسوأ ظروفه وأبشع نتائجه .

وبعد إيضاح ما تقدم لفضيلة مولانا — رحمه الله تعالى — وبناءً على رغبته الملحة ، وإصراره الشديد ، وموافقة الجراح الذي كان يشرف على علاجه في المستشفى ، وهو الدكتور حسن طبارة، حُدِّد موعد لإجراء العملية الجراحية رغم خطورتها ، لتخليصه رحمه الله تعالى من حالات النزف الطارىء الذي يتهدد حياته بخطر أكبر .

وعلى هذا ، فالعملية من باب اختيار أخف الضررين ، وأهون الشرين ، وهي ملطفة ، وليست شافية ، تعالج اختلاط المرض « وهو النزف » ولا تقضي على المرض الحقيقي ، الذي لا يقبل التراجع (وهو تشمع الكبد) . وهذه العملية تجرى في بيروت كأي بلد أوربي متقدم طبياً . وهذا مما أثلج صدر فضيلة الشيخ رحمه الله تعالى ، ووافق رغبته بإجرائها في بلد إسلامي ، لا يغيب عنه صوت المؤذن فيه ، كما كان يقول .

وإني لأشهد أن ذلك الطبيب المؤمن ، أضفى على فضيلة مولانا رحمه الله تعالى كل عنايته ، التي استمرت نحواً من شهرين ، وهي مدة المكث في بيروت كما يصوّر لنا جلياً من قوله: « **إني لأرعاك كأحسن جوهرة نادرة موجودة في هذا العالم ، حتى إني لأخشى عليك من النسيم** » . وكم كنت أعجب من شدة محبته للشيخ رحمه الله تعالى ، وتعلقه به في هذه الفترة الوجيزة التي تعرف بها عليه ، وقد أسر لي مرة ، أنه قد وقع في شراك حبه ، وبادله فضيلة مولانا — رحمه الله تعالى — بما فطر عليه من وفاء حباً بحب ، وتفاؤلاً حسناً باسمه الحسن ، كما صرح له عند أول لقاء . ومن فائق عناية هذا الطبيب الحاذق ، المتضلع بجراحة الأوعية ، أنه لم يشأ أن يستبد برأيه ، بل استدعى رئيس الجراحين في الجامعة الأمريكية ، وآخر يشغل منصب أستاذ جهاز الهضم فيها ، للتشاور معها في أمر العملية الجراحية ، وقد أقر الجميع بوجوب إجرائها قولاً واحداً ، على ضوء ما تقدم من تفصيل .

العملية الجراحية

الثلاثاء بتاريخ /١/ نيسان سنة ١٩٦٩ م .

وفي صباح اليوم الذي حدد لإجراء العملية الجراحية ، دخلت على فضيلة مولانا — قدس الله سرّه — في حجرته ، فوجدته يصلي على النبي صلى الله عليه وسلم، وسبحته في يده الشريفة، رابط الجأش، هادىء النفس ، مستسلماً لقضاء الله وقدره ، فلما رآني قال لي : « يابني اشهد

بأني مسلم ، مؤمن بالله ورسالاته » . ثم أحضر إلى غرفة العمليات ، وهو لا ينفك عن ذكر الله تعالى في قلبه الشريف ، كما هو معهود عن السادة النقشبندية في مثل هذه الأحوال . ولقد شاهدت مع اثنين من أطباء حماة العملية التي كانت على درجة عظيمة من الصعوبة، استغرقت نحواً من ست ساعات ونصف ، ولم يستعمل خلالها مخدر ، يؤثر على الكبد الضعيف تأثيراً ضاراً ، وقد نجحت ، وخرج فضيلة مولانا رحمه الله تعالى بسلام .

فترة الصَّحو

وفي خلال الفترة التي أعقبت العملية ، حيث يبقى المريض تحت تأثير المخدرات لمدة ما ، كان فضيلة الشيخ رحمه الله تعالى ، لا ينفك عن ذكر الله تعالى ، ورسوله صلى الله عليه وسلم ، وقراءة القرآن الكريم بشكل صحيح ، وضبط متقن للآيات الكريمة ، حتى إنه كان يجيب ولده عندما كان يسأله عن موضع الآية من سور القرآن الكريم ، وهو أمر غير معهود في مثل هذه الحال ، إذ تصيب المريض اضطرابات تعتري تفكيره ، وهذيان ، وبوح للأسرار . وإني لأذكر أن فضيلة مولانا – رحمه الله تعالى – قال لي قبل إجراء العملية : « يا بني إن الشيوخ بيوت أسرار المسلمين ، وأخشى أن أقول شيئاً ، وأنا أصحو من المخدر ، فإذا حدث شيء من هذا ، فلا أسمح ببقاء أحد عندي إلا أهلي » . ولكن الله سبحانه وتعالى استجاب دعاءه ، وحفظ لسانه ، من أن يبوح بشيء مما كان يخشى التكلم به .

كما أذكر من خلال هـــذه الفترة ، أنه كان يأمرنا بالتصدق على الجيران ، وتهيئة الطعام للعصافير التي إعتاد أن يطعمها يوميـاً في بيته المبارك ؛ لشدة رحمته بالحيوان ، وشفقته على الضعفاء من خلـــق الله تعالى . وقد أحببت أن أتحدث عن ذلك ؛ لأظهر كيف كانت فطرة الشيخ رحمه الله تعالى : سليمة ، رحيمة ، نبيلة ، تمثـل رحمة الاسلام العظيمة ، التي يستودعها الله تعالى قلوب عباده المسلمين الصادقين .

كما أذكر بمزيد من العجب ، كيف كان فضيلة مولانا ــ قدس الله روحه ــ يفيق في أوقات الصلوات ، وكأن إنساناً يوقظه ، فيصلي مضطجعاً على قدر استطاعته ، ثم يعود بعدها إلى الإغفاء ، بسبب بقاء أثر المخدر في جسمه الشريف .

وقد حدث أن صحا فضيلة الشيخ رحمه الله تعالى بعد ذلـــك ، صحواً جيداً لفترة لا بأس بها ، زاره خلالها كثير من إخوانه وأحبابه من شتى البلاد ، وتهافتت عليه البرقيات والمكالمات الهـاتفية من بلدته الكريمة حماة وغيرها ، التي ما انقطعت عنه طيلة مكثه في بيروت ، للسؤال عن صحته ، وشريف خاطره ، وتهنئته بنجاح العملية الجراحية ، وهو يحمد الله تعالى ، ويشكره على ذلك . واستمر على هذا النحو بضعة أيام ، أعقبها سبات حدث نتيجة الضعف كبده ، أفاق منه بعد أربعة أيام تقريباً ، فصحا صحواً جيداً عـــاد فيه إلى أحاديثه المألوفة وكلامه المعتاد .

وكـنت أسمعه وهو في حـالة استغراق روحي ، يقطعه عمن حوله ، يردد عبارات أهل الله في أعلى مقاماتهم ، فكان يقول : «ليس

كل كمال في حق الشاهد شرطاً في كمال المشهود » ويكررها كثيراً . وهذه درر ، يعرف معناها ، وعظيم دلالتها ، ورسوخ قدم قائلها في مقام المشاهدة القلبية والتمكن فيها ، أربابُ القلوب ، والسائرون إلى الله تعالى ، ومن ذاق عرف . وكان يسمع منه الترحيب بأقطاب أهل الله وأبدالهم ، ويناديهم ليتفضلوا بالدخول إلى حجرته الشريفة ، رحمه الله تعالى ، ويقول لي : « ألا ترى ... افتحوا النوافذ » وكأنهم يستأذنون بالدخول عليه رحمه الله تعالى ، ويقول : « يا أحمد ... يا أحمد » . ثم يقول : « صلى الله عليه وآله وسلم »، وقد كان أرباب القلوب من أهل الله تعالى ، بشروه قبل إجراء العملية ، أن الأولياء لن يفارقوه .

حَفاوة العُلمَاء بعَالم الأوليَاء

وكان رحمه الله تعالى ، من الذين يقال فيهم : **« من كانت له فكرة ، كانت له بكل شيء عبرة »** . فكان إذا ظهر الصباح ، قال: « النهار من آثار صفات الجمال لله عز وجل » . وإذا جنّ عليه الليل قال : « الليل من آثار صفات الجلال » . وكان لا يترك صغيرة ولا كبيرة ، إلا ويوجهنا إلى الحكم الشرعي ، والأدب مع الله تعالى فيها . وإني لأذكر إذ كنت واقفاً تلقاء قدميه الشريفتين ، أدلكهما لآلام حلت بهما من طيلة المكث في السرير ، فأشار إليّ بالتنحي عن وجهة قدميه ، لأن القلم الذي أحمله في صدري ، أصبح قبالة قدميه

الطاهرتين ، وهذا لا يليق بالقلم ، مشيراً إلى القلم الذي ذكره الله تعالى في اللوح المحفوظ ، وتأدباً مع سلاح العلم والعلماء .

وإني لأذكر أن بعض الفضلاء ، الذين يقومون بنشر الكتب الاسلامية وطباعتها ، وتربطهم به علاقة أخوة ومحبة وتضحية ، كانوا يزورونه فيرشدهم إلى مواطن الخطأ في بعض مطبوعاتهم التي قرأها ، وكان رحمه الله تعالى ، يسألهم عن بعض الكتب العلمية ليقتنيها ، ويضيفها إلى مكتبته العامرة ، حرصاً منه على سعة الاطلاع وطلب العلم ، وقد بلغ من حبه لنشر العلم ، أن فوض هؤلاء الفضلاء بإعادة طبع مؤلفاته على رواجها ، وتكرار طباعتها ، متنازلاً — كعادته — عن حقوقه في الطباعة والنشر . وكان من إخلاصه — رحمه الله تعالى — أنه لا يرى لنفسه حقاً في أخذ العوض على نشر مؤلفاته . مما حدا ببعض إخوانه العلماء إلى القول له : « إن الإخلاص في التأليف ، أصعب منه » . وكنت أقول له : أليس مابك من ضعف ، يشغلك عن وصاياك هذه ، فيجيب : « **أحب أن ألقى الله تعالى وأنا أطلب العلم** » .

وإني لأذكر أيضاً ، أن الطبيب المحلل في مستشفى المقاصد الاسلامية ، سأله - وهو في أشد حالات مرضه رحمه الله تعالى — : إن الله تعالى واحد ، فلم يقول سبحانه : نحن ، في الآية الكريمة (إنا نحن نزلنا الذكر وإنا له لحافظون)؟ : فأجاب رحمه الله تعالى : « هذا من أساليب العربية ، وهو من قبيل المجاز ، وليربي العظمة في نفس السامع ، أي عظمته سبحانه وتعالى » . وأفاض بكلام طويل في هذا الخصوص .

وأذكر بعد هذا ، أنه زاره خلال هذه الفترة مفتي الأردن سماحة الشيخ القلقيلي ، وجرى بينهما حديث طويل ، حضره لفيف من أهل العلم ، حول المقالة التي كان سماحة الشيخ القلقيلي كتبها منذ عدة سنين ، وبين فيها عدم جواز التأمين على الحياة ، فأخذ رحمه الله تعالى يستحثه على إعادة نشرها ، ويذكر له مصادر علمية أوسع من التي اعتمد عليها في كتابة هذه المقالة ، وفنَّد فكرة التأمين على الحياة[1] تفنيداً دقيقاً ، وحشر له الأدلة العلمية على ذلك . فأطرق سماحته إجلالاً لهذا العالم النحرير ، والبحر المتدفق من العلم ، مع ضعف جسده ، وبعده عن كتبه ومراجعه .

فكان رحمه الله تعالى بحر علم لا تنزحه الدلاء ، كما قال له ذلك بعض شيوخه في حلب . فهو عالم الأولياء ، ووليُّ العلماء ، ذو الجناحين : جناح الشريعة ، وجناح الحقيقة . قد اجتمعت عليه كلمة أرباب القلوب من أهل السلوك إلى الله عز وجل ، فشهدوا له بولاية العصر ، وإمامته بلا منافس ، وأنه نفحة من نفحات سلفنا الصالح ، هبت في القرن الرابع عشر الهجري لتنير الطريق للسالكين ، دون ماخروج قيدشعرة عن الكتاب والسنة ، ومذاهب الأئمة رضي الله تعالى عنهم أجمعين ، وكان يردد قول شيخه « سيدي محمد أبي النصر النقشبندي الحمصي » قدس الله روحه : **« أنا بريء من كل ما خالف**

---

(١) كان يرى رحمه الله تعالى : أن التأمين بجميع أنواعه حرام ، وليس التأمين على الحياة فقط ، وكتب في هذا الموضوع مقولة علمية نشرها رحمه الله تعالى في حياته .

الكتاب والسنة » . يتبرك بمريديه وأصحابه ، على شدة تعظيمهم له ، وإذا أراد أحدهم أن يقوم له ، قال : « **كانما تقومون على قلبي فلا تفعلوا ذلك** » . على أنه حدثت بيني وبينه رحمه الله تعالى ساعة مباسطة في بيروت ، حدثني عن نعم الله عز وجل عليه ، فأخبرني بأنه — عز اسمه — تجلى عليه بأسمائه الحسنى ، فقال : « كنت ضعيفاً ، فتجلى الله تعالى علي باسمه القوي ، فقواني ، وكنت مغموراً فتجلى علي سبحانه باسمه الظاهر ، فأظهرني ، وتجلى علي باسمه العزيز ، فأعزني . » .

وأذكر أيضاً بكل تقدير ، أنه زاره في تلك الآونة أصحاب السماحة المفتون والسادة علماء لبنان الأجلاء ، ومنهم رئيس الرابطة الاسلامية ، الذي تربطه مع مولانا رحمه الله تعالى روابط أخوة ومحبة، وزمالة أزهرية قديمة ، تمثلت بوفاء نادر وإخلاص فريد .

وأذكر شاكراً أعضاء جمعية المقاصد الاسلامية الخيرية ورئيسها، في زياراتهم المتكررة ، وما أبدوه من اعتناء واهتمام جزاهم الله عنا كل خير .

قبيل العودة الى حماة

وقد كنت أسمع منه بين الحين والحين ، بعض الأدعية المباركة ، والأذكار المأثورة . أذكر منها : « اللهم إني أعددت لكل هول ألقاه في الدنيا والآخرة لا إله إلا الله ، ولكل هم وغم ما شاء الله ، ولكل نعمة الحمد لله ، ولكل رخاء وشدة الشكر

لله ، ولكل أعجوبة سبحان الله ، ولكـــل ذنب استغفر الله ، ولكل مصيبة إنا لله وإنا إليه راجعون ، ولكل ضيق حسبي الله ، ولكل قضاء وقدر توكلت على الله ، ولكل طاعة ومعصية لاحول ولا قوة إلا بالله العلي العظيم » . وقد ردده حتى كان من آخر كلامه.

ثم أخذت صحته تسير نحو الانحدار شيئاً فشيئاً ، وهوآسف لذلك أشد الأسف . يتمنى أن تكون صحته في حـــالة تسمح له بقيام الليل ، وعبادة الله تعالى في جوفه ، وذلك عندما كان يفيق أثناء الليـــل إفاقـات متقطعة . ولشد مـا كان حزنه وأسفه ، يتضاعف إذا سمع نداءات المؤذن يدعو إلى صلاة الجمعة ، فيبـكي ويقول : « أنا كنت أجمع الناس للجمعة وأخطبهم ، وأنا الآن لا أستطيـع أداءها . والله إنها لحرقات في قلبي » وكان صوت المؤذن للصلوات الخمس يطرب سمعه المرهف ، ويحـدث السرور في نفسه الطيبة ، فيطلب منـا أن نفتح النوافـذ ليكون الصوت أوضح في سمعه الشريف .

ولطالما استبطأ دخول الوقت ، فيكرر الأسئلة عنه ، وكأنه يذكرنا بقول رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم : « أرحنا بها يابلال» ولا تسل عن حسن صلاته إذا شرع بها ، وعظيم سروره ، كيف لا ، وقد جعلت قرة عينه في الصلاة ، أسوة برسول الله صلى الله تعالى عليه وآله وسلم . وحدث أن زاره الحلاق قبل عودته إلى حماة ببضعة أيام ، وكان قد خدش صفحة عنقه الشريفة من قبـــل ، فغضبت وصرفته ، وقلت : « إنه لا يجيد الحلاقة » فقال لي رحمه الله تعالى بصوت خافت،

ممزوج بالألم والأنين : « لا تغتب أحداً ، لا تغتب أحداً » كررها عليّ ثلاث مرات . فاستغفرت الله تعالى ، وتبت إليه . فكان رحمه الله تعالى وقدس سره يصون سمعه الشريف عن الغيبة، فمجالسه المباركة أبعد ما تكون عنها .

وَدَاعُـهُ الدُّنيـا

وقبيل عودته إلى حماة ، ألمت به وعكة شديدة، قال لي خلالها: إنه سوف ينزل إلى حماة بعد خمسة أيام إن شاء الله تعالى . وعلى أثر هذه الوعكة ، عزف عن الطعام والشراب ، وذكر الأصحاب والأحباب، كأنه قد ودع هذه الدنيا ، فاتجه بقلبه إلى ربه ، لايشرك أحداً في حبه ، مازجاً مرارة الألم بحلاوة الايمان ، فأشهد أنه راضٍ عن ربه سبحانه وتعالى . فاشتدت لوعتي ، وتضاعف حزني ، وشرقت بدمعي ، حتى حسبت أن عيني ستبيض ، وكبدي ستنفلق ، وأن قلبي لا بد منفطر أسفاً وحسرةً ، وجفاني النوم ، وأقلقني شبح الفراق ، فكنت أقضي ليلي متململاً وجلاً ، واضعاً رأسي عند صدره الشريف ، أطمئن على أنفاسه التي تعبق مسكاً أذفر، أنتظر كلمة منه تنعش قلبي، وتحيي ما مات من آمالي ، وكلما استحكم بي اليأس ، واشتد بي الأسى أعزي نفسي ، وأقول : نحن بخير ما دام سواده فينا ، إنما أشكو بثي وحزني إلى الله ، وحسبنا الله ونعم الوكيل . وكان

هاتفاً يهتف في قلبي : (لا يسأل عما يفعل وهم يسألون)[1] ، سبحان الله رب العرش العظيم ، ولا حول ولا قوة إلا بالله العلي العظيم .

العودة إلى حماة

السبت ١٦ صفر لعام ١٣٨٩ هـ الموافق ٣ أيار ١٩٦٩ م .

وبالرغم مما كان يعانيه فضيلة مولانا ، قدس الله روحه الطاهرة، من ضعف بالجسم ، وشدة في المرض ، فإني لم ألحظ عليه أنه فقد وعيه وغاب عن الدنيا ؛ بل كان مالكاً لوعيه ، لكنه لا يستطيع النطق بسبب ضعفه الشديد، وقدسافر إلى حماة في اليوم الثاني بعدتلك الوعكة، بعد أن يئس الطبيب من العلاج ، وفوض أمره إلى الله تعالى ، فقال: « هو أرحم به منا » وودعه أهل المستشفى ، والمحبون في بيروت ، بين باكٍ عليه – رحمه الله تعالى – وفارغ الفؤاد ملتاع على فراقه . كما استقبل أهل بلدته نبأ قدومه المفاجىء بالذعر والهلع .

إلى جوار الرحمن

وفي يوم الإثنين الثامن عشر من صفر عام تسعة وثمانين وثلاثمائة وألف هجرية . الموافق الخامس من أيار لعام تسعة وستين وتسعمائة

(١) الآية ٢٣ من سورة الأنبياء .

وألف ميلادية ، في الساعة الثامنة وثمان دقائق زوالي تقريباً ؛ أي بعد صلاة العشاء بقليل ، بعد أن تليت عليه سورة يسن ، ووصل القارىء إلى الآية الكريمة :

« الذين آمنوا وعملوا الصالحات ، طوبى لهم ، وحسن مآب »

من سورة الرعد ، فاضت روحه الشريفة رحمه الله تعالى إلى بارئها ، وأنا أقرب الناس إليه ، أرطب فمه الشريف بالماء ، وأشتم منه رائحة العطر الزكية ، وإني لأرى النور يتلألأ من وجهه الشريف كالبرق المتلاحق ، فكان والله أجمل ما رأيته في حياتي ، وقد عمّ الجميع صمت سكنت فيه قلوبهم وجوارحهم ، بما أفاضه الله عليهم من سكينة وروح ، وكأنها عاجل بشراهم له في رحمة الله ورضوانه وفسيح جنانه : (يا أيتها النفس المطمئنة . ارجعي إلى ربك راضية مرضية . فادخلي في عبادي وادخلي جنتي)[1] . ثم انطلق الدمع سخياً وحاراً على فقيدهم ، وقرة أعينهم ، من مقل مقروحة وأفئدة مجروحة ، فصليت العشاء عنده ، وكنت آخر من ودعه في حجرته المباركة ، قبلت قدميه الطاهرتين ، وألقيت نظرة على وجهه المشرق كفلقة القمر ، ورجوت الله تعالى أن أكون أول لاحق به رحمه الله تعالى رحمة واسعة .

تشييع الجثمان الطاهر

ونعته نشرات الأنباء إلى العالم الاسلامي عدة مرات ، وضجت

(١) الآيات ٢٧ و ٢٨ و ٢٩ من سورة الفجر .

مآذن حماة وحمص في اليوم الثاني بالتهليل والتكبير ، وإذاعة النبأ على الناس ، وقد حضرت الجموع الغفيرة من أهل العلم وغيرهم من أقاصي البلاد ، وبعد صلاة الظهر ، أذيع على جميع الناس من مآذن حماة المقالة التالية : **« أيها الأخوة المؤمنون ، من كان له حق على فضيلة الشيخ محمد الحامد رحمه الله ، فليتقدم به إلى أهله ، وذلك بناء على وصيته »** .

ثم غسل بالأنوار ، وكفن بالأسرار ، وصلت عليه الملائكة الأخيار ، وودعه تلامذته ومريدوه بالدهشة والبكاء ، ثم شيع جثمانه الطاهر في موكب شعبي ورسمي ، كالحشر حافل في الساعة الثالثة من بعد ظهر الثلاثاء ، وأنت تسمع للناس ضجيجاً بالبكاء كضجيج الحجيج إذا أهلّوا للإحرام ، وقد صلى عليه ولده البار الأستاذ « محمود الحامد » في جامع السلطان ، وألقيت الكلمات والأشعار في رثائه ، ثم خرج الموكب من المسجد على صوته الشريف المسجل : « اللهم اسقنا الغيث ، ولا تجعلنا من القانطين » فاستجاب الله دعاءه حياً وميتاً ، وأظلت الناس الغمام، بعد أن كان اليوم قائظاً ، وبكته السماء ، وتزاحم الناس لحمل جثمانه الشريف ، كتزاحم الحجيج على الحجر الأسود ، يتبركون به ، ويحملونه على الأعناق .

وعلا الناس مهابةٌ وجلال ، وهم صامتون على غير ما اعتادوا عليه ، من بدع في رفع الصوت أمام الجنائز بالأذكار ، وقد زاحمت ملائكة السماء جموع الأرض في تشييعه رحمه الله تعالى ، وأضحت حماة يتيماً مات والدها ، وأغلقت حوانيتها ومتاجرها ، وهجرت

بيوتها ، وخرجت عـن بكرة أبيها : شيباً وشباناً ، نساءً وأطفالاً ، الأمر الذي يذكرنا بقول القائل : إن الجنائز تظهر عظمة الرجال .

خرجوا والكـل باكٍ حـولـه　　صَعِقَاتُ موسى حينَ دُكَّ الطورُ

رحم الله الفقيد رحمة واسعة ، وإني لأشهد أنه كان راضياً عـن ربه ، كثير الاتهام لنفسه ، يعتقد أن المرض كفارة لذنبه ، لارفعٌ لدرجاته ، وأن طلبه للمعالجة الطبية ، لم يكن بسبب حبه لهذه الحياة الدنيا ، بل ليستعيد صحته ونشاطه ؛ حتى يتابع رسالته في نشر العلم والدعوة إلى الله تعالى . وكأنه أدرك حاجة المسلمين إلى علمه النافع ، لكنه لما شعر أن أمنيته هذه أصبحت متعذرة، سمع منه بعض أولاده، ما يشير إلى أنه أحب لقاء الله تعالى ، ومغادرة هــذه الحياة الدنيا التافهة ، متمثلاً قول شيخه سيدي أبي النصر النقشبندي رحمه الله تعالى في آخر حياته ، وقد ضعف عن العمل :

« من لا يعمل خيراً في هذه الدنيا فالموت خير له » .

الطريق الى الله تعالى

وكان من آخـر وصاياه لي ولبعض إخواني في بيروت : أن لا نترك بعـد وفاته الصلاة على النبي صلى الله عليه وسلم في كل يوم ألف مرة على الأقل .

أهيمُ بليلى ما حييتُ وإن أمتْ　　أوكّلْ بليلى من يهيم بها بعدي

وكان يأمرنا بها حال حياته المباركة أيضاً ، وكنت أفهم منه أن

في القلب طاقة لا يسدها إلا محبة الله ورسوله ، ومن لم يظفر بذلك ؛ فحياته كلها هموم وغموم وآلام وحسرات ، ومن ظفر بها ؛ كانت قوتاً لقلبه ، وغذاءً لروحه ، وفرحات تتوالى . بها يتنافس المتنافسون ، وبأريج نسيمها يتروّح العابدون ، حتى إنني سمعته مرة يقول : « **على حقارة شأني[1] لو خيرت بين الملك ، وما أنا فيه من لذة التحصيل العلمي ، والسلوك إلى الله تعالى ؛ لاخترت ما أنا عليه** » . ويردد قول العارفين :

« **لو يعلم الملوك ما نحن عليه من لذة ، لجالدونا عليها بالسيوف** » . وكتب لي في هذا مرغباً .

من ذاقَ طعم شرابِ القوم يدريه ومن دَرَاه غدا بالروح يشريهِ
ولو تعوّض أرواحاً وجادَ بها في كل لمحةِ عين لا تساويهِ

وكثيراً ما كنت أسمع منه أن الصلاة على الرسول صلى الله تعالى عليه وآله وسلم ، تنوب مناب المرشد الكامل ، عندما يفتقد في آخر الزمان .

وإني لأشعر بأن وصيته هذه ، إنما هي دلالة لمن أراد بعده السلوك إلى الله تعالى .

وإليك نصاً من كلامه في كتابه « ردود على أباطيل » :

« على تقدير فقدان هذا المرشد ، العالم العامل بعلمه ، التقي النقي الورع ، الذي تربى بصحبة غيره وغيره بغيره . وهكذا إلى أن

---

(١) هذا الكلام منه رحمه الله تعالى شدة تواضع لله عز وجل .

ينتهي الأمر إلى السيد الأعظم صلى الله تعالى عليه وسلم . فقـــد ذكر العلماء أن العمل بتعاليم الاسلام ، مع الإكثار من الصلاة والسلام على سيدنا رسول الله صلى الله تعالى عليه وآله وسلم نحواً من (ألف مرة) في اليوم على أقل تقدير .

أقول: هذا يقوم مقام المرشد، من حيث أن بركات روح الرسول عليه وآله الصلاة والسلام ، تعود على من يكثر الصلاة والسلام عليه وعلى آله ، فتكون روحه الشريفة مربية لروح هـذا المصلي عليه ، وينتظم أمرهُ إن شاء الله تعالى . فيسلس قيادة نفسه للشرع ، وتزول عنهـا رعوناتها ، وتذوب منها أخباثها ، وتتجه إلى العلم الصحيح عن طريـق الفهم الطيب ، الذي يلقيه الله تعالى في النفس ، فيكون التوفيق لهـا رفيقاً والاسلام لها طريقاً » .

ثم يقول بعد كلام رحمه الله تعالى :

« وليكن ثواب هذه الصلاة والسلام مهديـــاً إلى حضرته عليه الصلاة والسلام ؛ فإن ذلك مما يعود بالنفع على المهدي ، من غير أن ينقص من أجره شيء ، وقد قال النبي صلى الله عليه وآله وسلم لفاعـل هذا : « إذاً تُكفى همك ، ويغفر ذنبك[1] » .

* * *

(١) قـال ذلك صلى الله عليه وآله وسلم لأبي بن كعب رضي الله عنه ، عندما قال له : أجعل صلاتي كلها لك ؟. والحديث رواه الترمذي وحسنه .

خاتمة

فأنت ترى مما تقدم ، أن مولانا ـ قدس الله سره ـ من أولي العزم من الأولياء ، عظيماً من العظماء ، آتاه الله تعالى من مظاهر العظمة ما خضعت له قلوب العباد على رضىً منها ، فأخذ بأزمتها إلى الله تعالى ، راسخاً في العلم ، عليماً وحبراً فهيماً ، بعيداً عن الزلل ، محفوظاً ، ناطقاً بالحق ، ما خان الله تعالى في حكم ، غير هيّاب غطرسة الحكام ، ولا جهل العوام.

صوفياً قطباً ، ليست له شطحة ، قهر أحواله حتى استولى عليها، فاستوى متمكناً على عرش الإرشاد كاملاً مكمِّلاً ، يشعل في السالكين جذوة الحال ، فيطوي لهم السير ، وينشر في سرهم الأسرار ، أوتي من قوة الروحانية ، ما جعله ينفذ إلى قلب كل مريد كأنه له وحده .

رحمه الله تعالى ، كنت أفتقده وهو حي ، وأشتاقه وهو أمامي ، وأحن إليه وأنا قريب منه ، عزائي فيه أنه قال لي : « ليس برجل من حجبه عن مريده ذراع من تراب » .

رحمه الله رحمة واسعة ، وجزاه عنا أحسن الجزاء ، وقد كان له علينا من الفضل والمنة أكثر مما للأب الرحيم على ولده البار ، وإني أعترف له بذلك عليَّ خاصة . فقد شرفني تربية بخدمته ، وسلوكاً بالانتساب إلى خرقته العلية ، ثم زادني على ذلك ، فكان من تواضعه الشريف رضاؤه أن يرفعني إليه ، فأخطبني ابنته الصغرى ، وأوصى لي بذلك ، وإنه لشرف عظيم .

ولا أقول إني وفيت حقه في ذكر مناقبه ، وجميل صفاته ، فإنه رحمه الله تعالى ، يعز على الأقلام أن تترجم مثله كعظيم .

ضن الزمان بأن يجود بمثله إن الزمان بمثله لضنين

وبعد : أستميح جنابه العالي ، رحمه الله تعالى ، عذراً عن كل تقصير في أداء حقه العظيم ، فقد أسلفت أنه جهد المقل ، وقد تحريت الصدق في نقولي ومشاعري ، من غير زخرفة ولا تزويق .

ما أمر عيش من فارق الأحباب ، وغيب قلبه في التراب ! فما عيش من فقدت وحيدها في حجرها ، لا ترقأ عبرتها ، فلا ينقضي حزنها؛ بأقل من حزني عليه وحرقتي ، فقد غطى كل مصاب بعده .

وكنتُ أعيرُ الدمع قبلَكَ مَنْ بكى

فأنت على من مات بعدك شاغل

وإنا لله وإنا إليه راجعون .

الدكتور محمد سلمان النجار

* * *

الباب الثاني

محامدُهُ العِلميَّة

« ونحن بأي حال ، نحترم البحث العلمي الصحيح ، ونعظم القول فيه ، كائناً ما كان ، ومن أي مصدر كان »

محمد الحامد

تمهيد

إن كل دارس لمراحل حياة الشيخ رحمه الله تعالى ، يدرك أنه عاش طيلة حياته مدافعاً عن الحق ، ساهراً حول حريمه وحدوده ، ولم يستطع الباطل – رغم قوته ، وكثرة حيله ، وتعدد أشكاله وألوانه – أن يجد ثغرة ينفذ من خلالها ، أو ثلمة يتسلل منها ، فكلما اقترب من حمى الحق ، وجد الشيخ الحامد رحمه الله تعالى متصدياً له ، راصداً لحركاته ، شاهراً في وجهه سلاح العلم ، رامياً له بقذائف الايمان ، فلا يملك إلا أن يولي هارباً ، قبل أن تتزلزل أركانه ، ويندك بنيانه .

ولما كان العلم أمضى أسلحته التي دافع بها عن حياض الشريعة ، وجدت لزاماً عليّ أن أقدم هذا الفصل قبل عرض آرائه رحمه الله تعالى في التصوف ، وفاءً مني للعلم الذي أخلص له ، وللرسالة التي قدّم لها عصارة فكره ، وسقاها برحيق روحه ، وعطرها بشذيّ أنفاسه ، ولأن العلم هو الأمير في حياته على كل شيء ، وهو القائل في رسالة لأحد تلامذه :

« العلم أمير على التصوف ، لتقيه عنه بدعاً ودخائل ، قد تعلق به على الأيام والدهور . . ! » .

القرآن الكريم

وهو مع السنة الشريفة المحوران الأساسيان لحياته العلمية رحمه الله تعالى ، فقد كان حافظاً له، متقناً لعلومه . بدأ بحفظه وهو في العاشرة من عمره من مصاحف الجوامع ؛ لأنه ما كان حينئذ يملك مصحفاً ، وأتمه أثناء دراسته في مصر ، ففي رسالة مؤرخة بيوم الثلاثاء لخمس بقين من صفر ١٣٥٩ هـ ، كتب إلى شيخه أبي النصر رحمه الله تعالى قائلاً :

« أحمد الله تعالى ، على أني قد تمت نعمة الله عليّ ، فأتممت حفظ الكتاب المجيد ، فأنا أعدُّ اليوم في حفظة القرآن الكريم ، وتلك نعمة أعترف بأنها كبرى، وأني عاجز كل العجز عن شكرها ، ولكني أعلم أن فضل الله عليّ عظيم ، وأن كل خير منه جل شأنه ، وفي الحديث الشريف :« من آتاه الله القرآن ، فظن أن غيره أوتي خيراً منه ، فقد حقّر عظيماً وعظّم حقيراً [1] » « وأنه من حفظ القرآن ، فكأنما أدرجت النبوة بين جنبيه إلا أنه لا يوحى إليه[2] » وأنه يشفع لحامله

---

(١) ذكره الغزالي في الإحياء بلفظ : « من قرأ القرآن ، ثم رأى أن أحداً أوتي أفضل مما أوتي ، فقد استصغر ما عظمه الله » وقال العراقي فيه : أخرجه الطبراني من حديث عبد الله بن عمرو بسند ضعيف .

(٢) ذكره في الترغيب والترهيب بلفظ : « من قرأ القرآن ، فقد استدرج النبوة بين جنبيه ، غير أنه لا يوحى إليه » رواه الحاكم وقال : صحيح الإسناد .

يوم القيامة[1] ، ويدفع عنه ، فالحمد لله على ما أولى وأنعم .. إ هـ » .

وبهذه المناسبة أحب أن أشير إلى كتاب في موضوع علوم القرآن ، كان سيدي رحمه الله يثق بـه ويحب مؤلفه ، وهو كتاب « مناهل العرفان في علوم القرآن » للشيخ عبد العظيم الزرقاني رحمه الله، مدرس علوم القرآن وعلوم الحديث بكلية أصول الدين في الأزهر الشريف ، قرأه سيدي رحمه الله أثناء دراسته في مصر، فوجد فيه بعض الأخطاء العلمية الصغيرة ، فنبه المؤلف إليها ، فتقبلها — رحمه الله — واستدركها في الطبعة الثانية للكتاب ، وأهدى سيدي نسخة منها .

وقد خصص رحمه الله للقرآن الكريم يومين من درسه العام ، الذي كان يلقيه كل يوم ، قبيل صلاة العشاء في مسجد السلطان خلا ليلة الجمعة ، يلقي فيهما دروس التفسير، حتى تمكن من تدريس تفسير القرآن مرتين تقريباً .

وما كان رحمه الله يلقي درساً ، حتى يحضر له تحضيراً كاملاً ، يصرف له وقتاً كبيراً، يمتد أحياناً من بعض الظهر إلى غروب الشمس، لا يترك — رغم غزارة علمه — مرجعاً في التفسير ، إلا ويعود إليه ، جل اعتماده في تفسير آيات الأحكام على كتاب « الجامع لأحكام القرآن» للقرطبي ، وكتاب « مذكرة تفسير آيات الأحكام » الذي كان مقرراً تدريسه لطلاب كلية الشريعة — إحدى كليات الجامع الأزهر — سنة ١٣٥٣ هـ .

---

(١) وهو معنى حديث صحيح في مسلم ولفظه : « اقرأوا القرآن ؛ فإنه يأتي يوم القيامة شفيعاً لأصحابه » .

يضع أمامه على منصة الدرس كتاب تفسير الخازن ، ولكنه يضع في قلبه عصارة الجهد الطويل الذي بذله في تحضير درسه، حتى أخذ درسه العام صفة الدرس المنهجي الخاص ، فلم يثبت عليه إلا صفوة من تلاميذه وأبناء روحه ، استعذبوا صعوبته ، وعشقوا غوصه على المعاني العميقة ، وتبحره في الفروع الدقيقة ، يقف أحياناً عند الآية الواحدة عدة دروس ، حتى يستكمل بيان معانيها ، والأحكام المتفرعة عنها ، واستدلالات العلماء المختلفة منها .

ولقد كنت أخشى عليه من كثرة ما يبذل من جهد وعناء في هذه الدروس ، فأرجوه أن لا يتوسع كثيراً في شرح الآيات ، وألا يقف عندها طويلاً ، فيجيبني – رحمه الله تعالى –: **« العلم لا يكون إلا هكذا »**. يستعين لتفسير الآيات الأخرى بأوسع المراجع، أفضلها عنده كتاب « روح المعاني » للآلوسي ، وأكثرها تحقيقاً في نظره ابن كثير، وأدقها في العقيدة كتاب « مفاتيح الغيب » للفخر الرازي .

يقرر عقيدة أهل السنة ، من خلال تفسيره للآيات التي فيها بعض صفات الله سبحانه وتعالى ، ومباحث العقيدة لها الصدارة عنده ؛ لعلمه بخطرها ، وكثرة مزالقها ، وشدة حاجة الناس إليها ، قال رحمه الله في ذلك : **« الاعتقاد الحق هو الأصل الأصيل ، وهو الركن الركين، وهو الأول الأول والعمل الصالح ، يقع ثانياً في المرتبة**[1] **. إ هـ ».**

ومعاني العقيدة الدقيقة الخطرة ، لا يستطيع التعبير عنها إلا

(١) ردود على أباطيل .

الأفذاذ من العلماء ، ولقد كان رحمه الله ، يعرف مقدار تمكنه في هذا الميدان ، حتى صرح لي مرة ، بأن في العقيدة معاني ، لا يستطيع أن يعبّر عنها سواه ، ولم يقل رحمه الله ذلك افتخاراً ، إنما قاله ؛ تحدثاً بنعمة الله عليه، وغرساً للثقة به في قلوب تلاميذه ، حتى يكمل انتفاعهم به ، وانتفاع التلميذ بأستاذه بمقدار ثقته به . وليرجع كل من يريد أن يتأكد من هذه الحقيقة إلى رسالة صغيرة لسيدي رحمه الله في موضوع القدر ، سماها : « التدارك المعتبر لبعض ما في كتاب القضاء والقدر » وفيها خاتمة في أفعال العباد واتصالها بالقضاء والقدر .

وكان — رحمه الله — يحب التخصص في ميادين العلم ، ويتمنى أن يوجد متخصصون في علم التفسير . وقد سمعته مراراً يقول : « إن في علم التفسير بحوثاً شائكة ، قامت حولها معارك علمية كبيرة ، وحبذا لو كان عندنا متخصصون في كل فرع من فروع العلم ، أصبحنا يابني مضطرين إلى التنقل من علم إلى علم ، ومن فن إلى فن ؛ لنسد الفراغ ، ونملأ الساحة.. إ هـ ». وأشهد ويشهدمعي كل من عرفه وقرأ له،أنه ملأ الساحة العلمية بكل أبعادها وجوانبها ، ولقد دلني رحمه الله على بعض هذه البحوث،وسمعته يتناول بعضها عندما مر بها خلال دروس التفسير؛ فما جاوزها حتى خاض غمارها ، وحل عقدها ، وأزال لبسها ، وخرج ظافراً منتصراً ، وقد حفظ لمستمعيه — من العامة والخاصة — سلامة عقيدتهم ، وصفاء قلوبهم .

القرآن الكريم في نظره — رحمه الله — كتاب هداية وإرشاد ، وقد جعل ذلك عنواناً لمقولة قال فيها : « أنزل الله سبحانه القرآن

الكريم هادياً ومرشداً إلى السبيل الحق، وموجهاً إلى السعادة الصحيحة، أنزله الله سبحانه ناصحاً ومربياً ، وضمّنه من التشريعات الصالحة ، ما تكفل للعامل به الهناءة في دنياه وأخراه . تقويم للاعتقاد ، تصحيح للخلق ، ترغيب في الثواب ، ترهيب من العقاب ، قصص حق ؛ يريك الماضي حاضراً ، وينقلك إليه ، حتى لكأنك شاهد دعوة الرسل عليهم الصلاة والسلام إلى الله تعالى .. إ هـ[1] » .

وليس القرآن الكريم عنده -رحمه الله- كتاب نظريات علمية، وحسابات رياضية ، وحول ذلك قال رحمه الله : « **إياك أن تتوهم أن القرآن الكريم ، جاء يبحث النظريات العلمية تفصيلاً ، إن هذا الوهم لاينبغي أن يطيف بالأذهان ، فما يستهدفه القرآن هداية وإرشاد، لا تقرير لقاعدة حسابية، ولا برهان على نظرية هندسية، ولا تفصيل لدقائق الكيمياء ، وإن دعا إلى التبحر في كل علم نافع للحكمة التي ذكرناها ، إن محاولة استنتاج النظريات العلمية من القرآن الكريم تعسف لا يرضى ، وتكلف لا يحمد ؛ فليعلم هذا ، فقد زلت فيه بعض الأقدام وربنا سبحانه نعوذ من الزلل. إهـ[2]** ».

والحقائق العلمية التي أشار إليها القرآن الكريم في معرض دعوة الناس إلى التفكير في بديع صنع الله تعالى، لا تتعارض مع العلم الصحيح، قال رحمه الله : «القرآن الكريم يعرض على الانسان صور هذا الكون عرضاً صحيحاً،

---

(١) ردود على أباطيل .

(٢) المرجع نفسه .

لا غبار عليه، ولا يقرر إلا الواقع الذي لا يتصل بالخيال ، ولا يناقض العلم الصحيح أيضاً ، وهذا العرض حكمته الأولى توجيه القلوب إلى بارئها ، ولذا أمر بالتفكير في المصنوعات الربانية ، وشيء آخر هو الانتفاع بما خلق الله وسخر للانسان ، من مكونات تفيده في قطع مراحل حياته، فيعيش عيشاً رغداً متمتعاً بثمارهذا الكون ..إ هـ[٣] ».

جل اعتماده في تفسير القرآن الكريم على القرآن . وكان — رحمه الله — يقول : « لا بد لمن يريد تفسير القرآن من حفظ القرآن » ولهذا كان يوصي تلاميذه بحفظ القرآن الكريم ، ويحضهم عليه ، حتى أصبح بينهم عدد لا بأس به يحفظ كتاب الله تعالى ، ويستعين بعده بالصحيح المأثور عن سيدنا رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم، والمنقول عن أصحابه والسلف الصالح من علماء التابعين . يقف من الإسرائيليات موقف السلف الصالح ؛ فما عارض منها نصوص الكتاب والسنة رده ، وما وافق قبله ، مع بيان مصدره و كشف هُويته .

ويزيد في جمال دروسه في التفسير قوة في بيانه، وسلاسة في طبعه، وفصاحة في لسانه ، وعذوبة في منطقه ، تمده ذاكرته الجبارة بروائع الشعر ، ونفائس الحكم ، ونوادر الأمثال ، يلف كل ذلك بوشاح مستمد من روحه القوية الخاشعة أمام كلام الله، وبتوجهات قلبه الكبير العامر بذكر الله تعالى .

وما أكثر ما تمر به آية كريمة ، تلامس الحس في قلبه الشريف ،

---

(٣) المرجع السابق .

فتفيض دموعه ، ويرتفع نشيجه ، ويعلو ويهبط صدره . وتزين ذلك كله هيبة العالم ، وجلال الذاكر ، وخشوع العابد . ألا ما أعذب هذه السويعات ، وما أحلى هذه الأوقات ، ذهبت بذهابه ، وانقضت بموته، فلا حول ولا قوة إلا بالله العلي العظيم .

يقسم آيات كل سورة إلى مجموعات صغيرة ، متجانسة متقاربة ، يبدأ الدرس بتلاوتها ، بصوته ذي النبرة العذبة، والنغمة الحلوة ، ويعيد تلاوتها في ختام الدرس ، ويتفرق تلاميذه وفي آذانهم عذوبة الصوت ، وفي قلوبهم يقين الايمان ، وفي أفكارهم صفاء المعرفة ... لا يترك شبهة ولا يغادر بدعة، إذا أحس أن أحداً من تلاميذه متأثر ببدعة أو شبهة، ارتفع صوته، واحمر وجهه أثناء الدرس ؛ غضباً لدين الله تعالى، ولحرمة كتاب الله ، وما أجمله إذا غضب ، يزأر زئير الأسد ، ويتدفق العلم من فمه تدفق السيل ، ولا يهدأ حتى يطهر قلوب تلاميذه وعقولهم من أي أثر لشبهة أو بدعة ، كان — رحمه الله — سريع الغضب ، سريع الرضى ، وما كان غضبه إلا لدينه ولربه ، وهو في غضبه متمكن راسخ كالجبل ، فلا يزلُّ لسانه ولا يتغير جَنانه ، تدفعه أمانته العلمية إلى عرض كل أقوال العلماء في تفسير آيات كتاب الله تعالى ، ثم يختار منها أقربها إلى روح كتاب الله تعالى ، فيقوّيه ، مبيناً وجهة نظره ، شارحاً أدلته وبراهينه ، مقارناً لها مع أدلة الآخرين ، وأحياناً لا يكتفي برأيه — رحمه الله — بل يحمله تواضعه لسؤال من حوله من تلاميذه عن رأيهم في ذلك ، يفسح لهم مجال المذاكرة والمناقشة ، حتى يقتنع بقناعتهم ، ويطمئن لحسن فهمهم ، وربما أعاد النظر في رأيه ، وأخذ برأي بعض

تلاميذه ، وأعلن تراجعه عن رأيه القديم ! ولو بعد مرور عدة أيام .

وبعد كل هذا ، فقد خصص لتلاوة القرآن الكريم جزءاً من يومه يتلو فيه آيات الكتاب لنفسه ، ويغرف بقلبه الكبير من بحار نوره وحدائق نوره .

وكان يدعو الناس لذلك ، قال رحمه الله في (نصيحة إلى الشباب) :

« وليكن لكل منا مجلس مع ربه سبحانه ، يتلو كتابه ، ويذكره بما يشاء من صيغ الذكر ، فإن الذكر يصقل القلب ، ويهذب النفس ، وينعش الأرواح ، وما خير المسلم إذا كان جافاً ، لا يرق له قلب ، ولا ينهمر منه دمع ، إن قساوة القلوب تداوى بذكر الله . إهـ[1] » .

وكم كان يشكو رحمه الله ويتألم من كثرة أعماله العلمية والاجتماعية لأنها تحرمه أحياناً من قراءة كتاب الله تعالى ، وتحول بينه وبين متعته الكبرى في تدبر آيات القرآن العظيم .

السُّنَّة

وهي المحور الأساسي الثاني لنشاطه العلمي ولحياته العلمية رحمه تعالى ، وعمله العلمي فيها ذو فرعين رئيسين : السيرة الشريفة والحديث الشريف .

---

(١) ردود على أباطيل .

السيرة الشريفة

أما السيرة الشريفة ، فكان رحمه الله مشغوفاً بها ، مولهاً بدرسها وتدريسها، ولاعجب في ذلك، فحبه لها تعبير عن حبه العظيم لرسول الله صلى الله عليه وآله وسلم، فقدوصل رحمه الله في طريق محبة الرسول ﷺ إلى نهاية مابعدها نهاية، وإلى قمة ليس فوقها قمة، وشرب كأس المحبة كله فما أبقى منه شيئاً. الشوق إلى الله تعالى وإلى رسوله صلى الله عليه وآله وسلم مركبه، ما أنس إلا به ، وما سعد بسواه ، وما أكثر دموع الشوق التي ذرفها في هدآت الليل وفي الخلوات والجلوات ! وما أعظم الآهات والزفرات التي صدرت من ذلك القلب التقي النقي المرهف الشعور والإحساس ! لقد بلغ رحمه الله من رهافة حسه ودقة شعوره ، إلى أن أوصى كل من أراد الحج ، ألا يأتي لتوديعه ، يخشى رحمه الله ألا يتحمل قلبه هجمات الشوق ، ودفقات الحنين . ولقد حج رحمه الله مرة واحدة في حياته ، وكان يتمنى الحج والزيارة كل عام ، لكن ورعه وتقواه منعاه من تحقيق أعز أمانيه ، كان يقول : « **كيف أذهب الى الحج وأترك البلد خالية ليس فيها من يفتيها ، ويحل قضاياها الشرعية ، بعد أن ذهب معظم العلماء الى الحج ؟ كيف أذهب إلى حج النفل ، وأترك طلابي في المدرسة، وهم أمانة في عنقي، أسأل عنهم أمام الله تعالى !** » ولما أحيل على التقاعد بطلبه ، كان يمني نفسه بالحج والزيارة ، ولكن المرض ما أمهله ، وقضى رحمه الله ، واللوعة تأكل قلبه ، وحرقة الشوق تذيب فؤاده .

استأذنه أحد المتيمين بحبه من أهالي بيروت ، أن يأذن له بإقامة مجلس شريف للصلاة والسلام على سيدنا محمد صلى الله عليه وآله وسلم ، فأجاب رحمه الله وهو يعاني آلام المرض في المستشفى : « لو استطعت أن آمر حفظتي بالصلاة على النبي صلى الله عليه وآله وسلم ، لفعلت »

وقد يلومني بعضهم ، ويدعي أنني خرجت عن نطاق البحث ، وتجاوزت الحد . لا تتسرع بالاتهام ولا تعجل ، إن الحديث عن سيدنا رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم لا يمكن أن يكون حديث عقل فقط بل لابد للقلب أن يتحدث مع العقل ، وكان سيدي رحمه الله ، يتخير من كتب السيرة ما كتب بعقل مؤلفه وقلبه ، حتى يتوفر له تحقيق العالم ، وعاطفة المحب الصادق .

اختار لدرس السيرة المسائي كتاب « السيرة النبوية والآثار المحمدية » لمؤلفه السيد « أحمد زيني » المشهور « بدحلان » رحمه الله ، وخصص له ليلة كل أسبوع هي ليلة الخميس ، وكان رحمه الله يقول ، « هذه ليلة محمد صلى الله عليه وآله وسلم » . هذه الليلة كانت أجمل ليالي الأسبوع في جامع السلطان ، تلتقي فيها أنوار السيرة الشريفة ، مع توجهات القلب الكبير المتيم بحب المصطفى صلى الله عليه وآله وسلم ، فيفيض النور ، ويزداد السرور ، وتتلاشى أربعة عشر قرناً من عمر الكون ، لتعيش الأرواح والقلوب مع النبي صلى الله عليه وآله وسلم ، كأنها ولدتْ في تلك الساعات ، وشهدتْ معه صلى الله عليه وآله وسلم تلك المشاهد . وإن كل من شهد هذه الدروس ، لن ينسى حلاوتها ، ولن يغيب عن قلبه أنسها ، ولنستمع إلى مستشرق ألماني يدعى الدكتور

« غونتر رودمان »، طوف في بلاد العرب من أقصاها إلى أقصاها ، ومر في تطوافه على حماة ، وبقي فيها قرابة شهر ، داوم خلال إقامته فيها على دروس سيدي — رحمه الله — الصباحية والمسائية ، وبعد انتهاء جولته وعودته إلى بلده، كتب رسالة مطولة إلى سيدي رحمه الله، وصف له جولته على المعاهد العلمية الشرعيـة في مختلف البلاد العربية ، وسجل له بعض انطباعاته عن الاسلام والمسلمين، ومن جملة أقواله في هذه الرسالة : « وفي الختام أريد انتهاز الفرصة ، لأقدم لكم شكري العميق على ضيافتكم الكريمة ، التي أتاحت التعمق في روح الاسلام الذي أثر على تفكيري كثيراً ، وإنني أتذكر دائماً بشوق دروسكم، وخاصة مساءً في المسجد. في هـذا المجـال ظهرت شخصيتكم الكريمة بوضوح ، وإنني لن أنسى تأثيركم الشديد خلال قراءة سيرة الرسول ، الذي لمس قلبي ، وجعلني ألحظ إيمانكم العميق،وإنني أتمنى لجهودكم كل النجاح ، وأرجو التوفيق في إنهاء كتابكم الجديد الذي شهدت تصنيفه .. إ هـ[1]»

وقـــد تمكن رحمه الله من تقرير السيرة تدريساً عدة مرات ، وأراد في آخر حياتـه تدريس كتاب « الشفا في حقوق المصطفى » صلى الله عليه وآله وسلم للقاضي عياض رحمه الله ، ولكن المرض عاجله وحال بينه وبين مايريد،فأوصاني رحمه الله عندما عدته في بيروت وقت

---

(١) كان من عادة الشيخ رحمه الله تعالى مراجعـــة كل ما يكتب من كتب ورسائل في الدرس الصباحي الخاص أمام خاصة تلاميذه ، ولقد شهد هذا المستشرق بعض هذه الدروس التي كان الشيـخ رحمه الله تعالى يراجع فيها كتابه « نكاح المتعة حرام في الاسلام » .

وداعه ، أن أقرأ في الدرس كتاب الشفاء . والحق أن هـذا الكتاب من أنفس ما كتب في موضوع السيرة ، ما سبقه في ترتيبه وتبويبه أحد وما لحقه ، انفرد بتحقيقات علمية كبيرة ما تمكن غيره منها ، وهو في الوقت نفسه حديث عالم مترع القلب بحب النبي صلى الله عليه وآله وسلم ، أشرقت على كلماته أنوار النبوة ، ولمعت بين سطوره علامات المحبة .

رحمك الله ياسيدي ما رأيت مثلك أحداً يعرف أقدار العلماء ، ويدل على مواطن الفضل .

وكم كان يتألم حين يلمس بين الناس جهلاً بسيرة النبي صلى الله عليه وآله وسلم ، وإعراضاً عن درسها ومدارستها ، وانكباباً منهم على دراسة حياة من لا يصلحون خدماً لنعل النبي صلى الله عليه وآله وسلم ، فلا يملك رحمه الله سوى التألم والتأسف والتحرق ، ولقد عبّر عن حرقته هـذه بخطب منبرية خصصها لموضوع السيرة الشريفة ، بيّن فيها وجوب تعلمها وتعليمها لجيل الأمـة الناشـىء ، وكان يذكر الناس بقول سعد بن أبي وقاص لأولاده وهو يعلمهم مغازي النبي صلى الله عليه وسلم . كان رضي الله عنه يقول لهم : « خذوها يابنيّ ، فإنها شرفكم » .

وما كان رحمه الله يعتذر عن محاضرة أو خطبة بأي مناسبة تتصل بحياته صلى الله عليه وآله وسلم . أذكر أنه طُلب منه منذ سنتين ، أن يلقي كلمة في الحفل الرسمي في ذكرى ميلاده صلى الله عليه وآله وسلم ، وكانت بوادر العلة التي توفي بها قد بدأت تتعبه ، وكثرة الأعمال أخذت ترهقه ، فشكا لي رحمه الله كثرة أعماله ، وسوء صحته ، فقلت له : ياسيدي لو اعتذرتَ عن هذه الكلمة ، فكان جوابه رحمه الله : « إنني أستحي

من النبي صلى الله عليه وسلم ، أن آدعى للكلام في ذكرى مولده الشريف ، ولا أتكلم بها شيئاً » وتكلم رحمه الله زهاء الساعة ، وتكلمتْ معه قلوب الناس ودموعهم .

الحديث الشريف

وبمقدار حبه العظيم للنبي ﷺ ، أحب الحديث الشريف واعتنى به رحمه الله عناية كبيرة ، لأنه في نظره – فضلاً عن كونه كلام المصطفى صلى الله عليه وآله وسلم – الركيزة الثانية للدين الحنيف وللشريعة المطهرة ، التي عاش طيلة حياته خادماً لها مدافعاً عن حياضها ، محافظاً على صفاء جوهرها وسلامة عنصرها ، وفي هذا قال رحمه الله : « **النبي – عليه وآله الصلاة والسلام – سراج منير ، أنى سار أنار ، وحيثما اتجه أضاء . قوله شرع ، وفعله شرع ، وتقريره شرع . إ هـ** [1] » أنس به أنسه بصاحبه صلى الله عليه وآله وسلم ، فكان يرتاح بقراءته من عناء الجهد العقلي الكبير الذي يبذله في دروس الفقه الصباحية ، فكلما ختم درس الفقه الصباحي لجأ إلى الحديث الشريف يستروح منه الروح والريحان ، ويستنشق منه عبير أنفاس النبي صلى الله عليه وآله وسلم ، فينسى متاعبه ، وتزول عنه آلامه .

وهكذا قرر كتاب « تيسير الوصول للشيباني » وهو كتاب من أنفس ما ألف في موضوع الحديث الشريف ، اختصر فيه مؤلفه أحاديث الكتب الستة لأعلام مؤلفي الحديث : مالك ، والبخاري ، ومسلم ،

---

(١) ردود على أباطيل .

وأبي داود ، والترمذي،والنسائي رحمهم الله. وبوبها بحسب الموضوعات ورتب موضوعاتها بحسب ترتيب الأحرف الأولى منها

وخصص رحمه الله ليلة في الأسبوع هي ليلة الأربعاء لتدريس الحديث الشريف في الدرس العام ، وكان آخر كتاب درسه كتاب الأربعين مع شرحه للإمام النووي رحمه الله ، وقبله الترغيب والترهيب للمنذري ، وقبله الجامع الصغير للسيوطي ، ولا أدري ماذا قرأ قبل الجامع الصغير، وإن كنت أرجح كتاب الصحيح للبخاري رحمه الله .

وفي درس الحديث الشريف ، كان يسرع رحمه الله ، حتى يقرأ أكبر عدد ممكن من الأحاديث الشريفة ، ويقف طويلًا عند أحاديث الصفات ، فيشرحها شرحاً وافياً ، مبيناً مذهب السلف والخلف فيها ، مبعداً عن قلوب تلاميذه كل شبهة ناتجة عن سوء فهم لظواهر الكلم النبوي الشريف. ويقف أيضاً عند أحاديث الأحكام ، ليقرر كل الأحكام الشرعية المستنبطة منها، ويبين استدلالات الأئمة المختلفة منها ، ويرجح أحياناً بعض الاستدلالات على بعض ، ويقول : هـذا الحديث يشهد للإمام الفلاني ، وهذا يشهد لفلان ، ولكنه يختم بحثه بقوله : « **لكل دليله ، رحمهم الله جميعاً** » ولا ينسى رحمه الله أن ينشر خلال ذلك كله قواعد مصطلح الحديث ، شارحاً لها ، وموضحاً لغوامضها ، يضرب لها الأمثال الواقعية ، مما يمر به من أسانيد ومتون ، ولكثرة حبه وشغفه بالحديث الشريف ومطالعته له ، تكونت لديه رحمه الله ملكة علمية ، يستطيع بواسطتها أن يميز بين الحديث الصحيح والموضوع ، فكان إذا سئل عن حديث موضوع يقول: «لا تلوح على هذا الكلام أنوار النبوة »

لكنه رحمه الله لأمانته العلمية ما كان يتسرع في حكمه ، حتى يرجع إلى المصادر الحديثية ليتأكد من هوية الحديث .

يغضب أشد الغضب ممن يراه يرد حديثاً نبوياً شريفاً ، ويوصي بأن يؤخذ كل علم شرعي من منابعه الأصلية ، فعلم التفسير يجب أن يؤخذ من كتب التفسير ، والحديث من كتب الحديث ، والفقه من كتب الفقه .

الفقه

احتل الفقه في حياته العلمية ـ رحمه الله ـ المكانة الأولى ، واستهلك قدراً كبيراً من جهوده العلمية ، وذلك لعدة أسباب ، منها :

١ ـ الفقه ثمرة الكتاب والسنة ، ولهذا المعنى كان رحمه الله يردد كثيراً : « الفقهاء هم الأطباء ، والمحدثون والمفسرون هم الصيادلة » وهو من كلام الأعمش لأبي حنيفة رحمهما الله تعالى .

٢ ـ الفقه علم الحلال والحرام ، وهذا يحتاج إليه الانسان في شتى شؤون حياته ، وقد بين رحمه الله هذا المعنى في تصديره لكتاب « الحيض والنفاس » فقال : « لست أقصد في تصديري لهذه الرسالة إلى بيان فضل علم الفقه الاسلامي ، فإنه غني عن البيان ، إذ هو الاسلام والايمان ، وقد دخل مع متبعيه كل مدخل ، وخرج معهم كل مخرج ، وهو الدين بمعناه الكامل الذي ارتضاه الله سبحانه لنا : عبادات ،

ومعاملات ، ومناكحات ، وحدوداً وزواجر ، وخططاً ندرأبها عنا؛ لنأمن شر العدو المغير الذي يريد تدميرنا ، وطمس المعالم التي قام عليها مجدنا وعمرت بلادنا . هذا إلى أحكام توزيع التركات في المواريث ، وتقسيمها في المستحقين . إ هـ »

وقوله رحمه الله عن الفقه : « إذ هو الاسلام والايمان » لأنه عماد الدين ، فقد روى الدارقطني والبيهقي ، عن أبي هريرة رضي الله عنه عن النبي صلى الله عليه وسلم ، قال : « ما عبد الله بشيء أفضل من فقه في دين ، ولفقيه واحد أشد على الشيطان من ألف عابد ، ولكل شيء عماد وعماد هذا الدين الفقه » .

وروى الترمذي ، وابن ماجه ، والبيهقي ، عن ابن عباس رضي الله عنهما قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « فقيه واحد ، أشد على الشيطان من ألف عابد » . وروى البخاري ومسلم عن معاوية رضي الله تعالى عنه ، قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « من يرد الله به خيراً يفقهه في الدين » ورواه أبو يعلى ، وزاد فيه : « ومن لم يفقهه لم يبال به » .

ومنهجه رحمه الله تعالى في الفقه يقوم على الأسس التالية :

١ ـ التزام آراء أئمة مذاهب الفقه الاسلامي ، واحترامها ، والوقوف عند حدودها . ولقد كتب ـ رحمه الله ـ في هذا الموضوع بحثاً مطولاً وهو على فراش المرض ؛ تحت عنوان « لزوم اتباع مذاهب الأئمة حسماً للفوضى الدينية » نشره الشيخ أحمد البيانوني في كتابه « الاجتهاد والمجتهدون » ونشر بعد ذلك في رسالة مستقلة . ومما قال فيه :

« إن أفكار الأئمة أبعد من أنظارنا القاصرة وأعمق ، قد أسرجوا لنا الفقه وألجموه ؛ فما علينا إلا أن نتبع ما قرروه ، كما لو أفتونا به وهم أحياء ، ولا سيما والأحاديث النبوية الشريفة فيها صحيح الثبوت ، وفيها حسنه ، وفيها ضعيفه ، ومنها المنسوخ حكمه ، ومنها الموضوع المصنوع الذي لا أصل له ، فاقتحام لجة الاجتهاد مهلكة على الضعفاء . إهـ »

٢ — الدراسة الفقهية عنده - رحمه الله — لا تقتصر على دراسة الأحكام فقط مجردة عن أدلتها ، بل تتعدى ذلك إلى دراسة الأحكام مع أدلتها ، وهو ما يعبر عنه اليوم بالفقه الاستدلالي ، ولهذا كان رحمه الله يقرر في درسه الصباحي كل يوم هـــذا النوع من الفقه . قرأ أولاً كتاب « الاختيار » وفيه زبدة أدلة الفقه الحنفي ، ثم انتقل منه إلى كتاب « تبيين الحقائق شرح كنز الدقائق » للعلامة الشيخ عثمان بن علي الزيلعي الحنفي ، وهو من أعلى وأوسع ما ألف في فقه الدليل للمذهب الحنفي ، وقلّ من العلماء من يرجع إلى هذا الكتاب لصعوبته ، وقد قرر تدريس قسم منه في أقسام التخصص العالي في الأزهر الشريف . بدأ به رحمه الله منذ سنوات عديدة ، وله عليه تعليقات واستدراكات ، استخرجها من أمهات كتب المذهب ، مثل الهداية ، والعناية ، وفتح القدير ، وحاشية ابن عابدين ، وتقريرات الرافعي عليه ، وشرح المجلة للأتاسي ، وغيرها ، ولم يقدر له إتمامه ، فقد توفي رحمه الله بعد أن وصل إلى أول كتاب الصرف من المجلد الرابع .

٣ — أما الأحكام الفقهية المجردة عن الأدلة ، فكان يقررها في دروس الفقه المسائية أثناء الدرس العام ، وقد خصص للفقه يومين في كل

أسبوع ، قرر فيها بحوثاً كثيرة من حاشية ابن عابدين و كتاب مراقي الفلاح ، وفي السنوات الأخيرة ، بدأ بتقرير كتاب « الهدية العلائية » مع حواشي وتعليقات وضعها على هامشه ، وكان يمليها على طلابه أثناء الدرس . وهي من أنفس التعليقات وأدقها ، حرر فيها كثيراً من المسائل ، بحيث تغني قارئها عن المطولات الفقهية ، وتوفي رحمه الله قبل أن يكملها .

٤ ـ إن دروسه في الفقه شاملة لكل أبوابه ، ولم يكن رحمه الله يقتصر على فقه العبادات ، بل اهتم كثيراً بفقه المعاملات والأنكحة ، وكان ـ رحمه الله ـ يدرك مدى حاجة الناس إليها ومدى جهلهم بها ، وأذكر أنه قرر دروساً في فقه المعاملات ، وجعل عمدته فيها رسالة صغيرة في المعاملات ، وحض علماء حمص على نشر رسالة قيمة في المعاملات للشيخ عبد القادر الحجا الحمصي رحمه الله ، فنشرت مع مقدمة له بين فيها حاجة الناس إلى فقه المعاملات ، وضرورة نشر مثل هذه الرسائل العلمية بينهم .

٥ ـ التزم رحمه الله فقه المذهب الحنفي تطبيقاً وتعليماً ، مع احترامه لبقية المذاهب ، ولآراء أئمة الاجتهاد ، ولكل بحث علمي صحيح ، قال رحمه الله في بحثه : « لزوم اتباع مذاهب الأئمة » : «ونحن بأي حال نحترم البحث العلمي الصحيح ، ونعظم القول فيه كائناً ما كان ، ومن أي مصدر كان .. إ هـ » بل كان رحمه الله ينكر على من يريد أن يحمل الناس على التزام مذهب واحد ، قال رحمه الله في ذلك : «وليس القول الآن في المقارنة والترجيح ، بل القصد كل القصد إلى احترام

الخلاف في الفرعيات ، التي مهما اتجه المرء إلى أي جانب من جوانبها ؛ وجد له سلفاً من العلماء لهم وجهة نظر يدللون عليها ويبرهنون . وليس الصواب في مثل هذا تحجر الواسع .. إهـ[1] » .

٦ — والتزامه رحمه الله تعالى بقواعد المذهب الحنفي ، لا يعني ترك أحكام غيره من المذاهب ، بل كان يدعو رحمه الله إلى الالتزام بأي مذهب من المذاهب الفقهية المدونة ، إلا أن أمانته العلمية ، كانت تمنعه من الإفتاء بغير المذهب الحنفي ، فكان يحيل السائل إلى علماء المذاهب الأخرى ، ويقول رحمه الله : « أهل مكة أدرى بشعابها » .

٧ — إن اختلاف أئمة المذاهب في بعض الأحكام الفرعية رحمة للأمة ، ولهذا كان يفتي لملتزم مذهب معين ، بأن يأخذ بأحكام مذهب آخر عند الضرورة . وقد أخذ رحمه الله في آخر حياته بمذهب الإمام مالك رحمه الله في أحكام الطهارة ، لأنها أيسر ، وخاصة أثناء المرض ، واستفتى في هذا الموضوع أحد علماء المذهب المالكي في الأزهر الشريف[2] .

٨ — وإغلاق باب الاجتهاد ، لا يعني في نظره رحمه الله وقوف الشريعة جامدة أمام الجديد من الحوادث . والمخلص بيّنه رحمه الله فيما كتبه حول لزوم اتباع مذاهب الأئمة ، قال رحمه الله :

---

(١) ردود على أباطيل .

(٢) وهو فضيلة الشيخ الدكتور صالح موسى شرف عضو جماعة كبار العلماء .

« نعم قد تعرض بعض الحوادث في زماننا هذا ، مما لم يعهده الناس من قبل ، فيتشوفون إلى معرفة أحكامها ». والمخلص الوحيد من الحيرة، هو النظر في فروع الفقه وقواعده الكلية ؛ فإنه كفيل بتعريفنا بحكم الجديد من الحوادث ، فقد توسع أقدمونا من الفقهاء ، في تقرير الحوادث، واستنباط أحكام لها، فكتبوا كثيراً وكثيراً جداً، حتى صار ما كتبوه بحوراً زاخرة، يغوص الغواصون إلى قعورها، ويستخرجون منها درراً صافية جديرة بالإعجاب،على أنه لامانع من الاجتهاد للتعرف إلى أحكام جزئية فردية طارئة ، ولكن لا يتقنه إلا أفراد معدودون الآن تتمخض عنهم بلاد الاسلام وأقطاره ، وليس هو لكل من يرى نفسه عالماً ، أو يزعمه البسطاء من الناس عالماً .

وإنما أجزنا هذا ؛ لأن الاسلام كامل في ذاته ، وما من حادثة تقع تحت أديم السماء ، إلا وله حكم فيها ، وقد قال الله تعالى : (اليوم أكملت لكم دينكم ، وأتممت عليكم نعمتي ، ورضيت لكم الاسلام ديناً)[1] . فلن يقف شرع الله الكامل جامداً أمام الحوادث ، لا يبدي حراكاً ، وقد نفى الله سبحانه النقص عنه .. إ هـ » .

ولهذا اعتنى رحمه الله بفقه الدليل دراسة وتدريساً ، لا لأنه لم يثق بأقوال الأئمة ، بل من أجل الجديد من الأحداث ومعرفة حكم الله فيها . وهذا يفسر لنا كثرة توارد الأسئلة الشرعية عليه من شتى أقطار العالم الاسلامي دون غيره من العلماء .

---

(١) الآية ٤ من سورة المائدة .

آثاره العلمية

لم يتناول رحمه الله في معظم آثاره العلمية بحوثاً نظرية محضة ، أفرد لها تأليفاً خاصاً ، ويعود ذلك لسببين :

١ – اعتقاده أن علماء السلف من الأمـــة ، تناولوا جميع المواضيع : أصولاً وفروعاً ، وسيرة وتأريخاً ، فلم يتركوا رحمهم الله لمن بعدهم شيئاً .

٢ – كثرة أعماله رحمه الله تعالى ، فقد كان يقوم بأعمال علمية واجتماعية، ينوء بها العديد من كبار العلماء . ولم يتخلّ عن شيء منها، حتى استعمرت العلة كبده ، وأنهكت جسمه .

رجوته مرة أن يسمح لي بالقيام بأعباء الدرس العام مكانه ، بعد أن رأيته متمدداً في المسجد إعيـــاء ، ثم خرج وهو يتوكأ على بعض تلاميـذه ، فقال لي : « **دعني ألقى الله وأنا أطلب العلم** » ثم ذكرني بالحديث الشريف الذي رواه الطبراني في الأوسط ، عن ابن عباس رضي الله عنهما ، أن رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم قال : « **من جاءه أجله وهو يطلب العلم ، لقي الله ولم يكن بينه وبين النبيين إلا درجة النبوة** » وكم تمنى رحمه الله ، أن يجد في حياته وقتاً لتأليف كتاب ، يتناول فيه موضوع التصوف ضمن القيود العلمية ، والقواعد الشرعية ، يتحدث فيه عن حياة شيخه في الطريقة النقشبندية سيدي الشيخ محمد أبي النصر خلف رحمه الله تعالى ، وفاء منه لشيخه العظيم الذي ما نسيه طيلة

حياته ، وما حاد عن نهجه وطريقه ، وهو الكتاب الوحيد الذي تمنى تأليفه ، وتمنيته ، وتمناه كل من عرف سيدي رحمه الله ، فعرف فيه قلب الذاكر ، وفكر العالم ، وأحاسيس الشاعر .

ولم يكتب رحمه الله ما كتب ، إلا مضطراً بدافع استشعاره بمسؤولية العالم الكبرى أمام الله تعالى ، في الدفاع عن هـذا الدين ، وتخليصه من كل الشوائب التي حاول أعداؤه إلحاقها به ، تشويهاً لجماله ، وطمساً لنوره . بين هذا رحمه الله في مقدمة كتابه «ردود على أباطيل» فبعد أن ذكر بعض الآيات القرآنية الكريمة والأحاديث الشريفة ، التي تهدد العلماء الذين يقصرون في نشر ألوية العلم ، قال رحمه الله : «هذه التهديدات عملت عملها في نفسي ، فدفعتني إلى البيان دفعاً ، فراراً من لعنة الله إلى رحمته ، وإنقاذاً لمهجتي من عذابه الأليم وعقابه العظيم. إ هـ » ثم قال رحمه الله : « ومن طريف ما اتفق لي وأنا طالب في كلية الشريعة - إحدى كليات الجامع الأزهر بمصر - أنني رأيت فيما يرى النائم ، أني قائم تلقاء قبر النبي عليه وآله الصلاة والسلام ، وعلى القبر الشريف أشياء غريبة لم يرق لي وجودها عليه ، بل ثقلت على قلبي ، فأقبلت على إزالتها بكلتا يديّ مهتماً ، وانتبهت من نومي وإنني لفي هذه الإزالة.قصصت هذه الرؤيا على أحد علماء الأزهر العاملين بعلمهم[1]، فقال لي : إنك ستدفع عن هذا الاسلام أموراً ليست منه ، وإنني لأحمد الله على هـذا التوفيق إلى إحقاق الحق ، وإزهاق الباطل بلسان الدين ويراع العلم .. إ هـ »

(١) وهو الشيخ مصطفى الحمامي رحمه الله تعالى .

الدليل العلمي سواء كان نقليـاً أو عقلياً ، هو سلاحه الوحيد في كل ردوده وتمحيصاته ، فلم يؤثر عنه في كل ما كتب انحراف عن هذا النهج ، ولو شيئاً يسيراً . قال رحمه الله تعالى : « النقد العلمي النزيه ، شأن السلف الصـالح : من صحابة ، وتابعين ، وتابعيهم ، فقد كانوا يختلفون في الفرعيات العمليـة في حب وإخلاص ، وإنا إن شاء الله على هذا النحوسائرون .. إه » ولهذا لم يلجأ للرد على خصومه في الفكرة إلى التشهير بهم ، وتتبع عوراتهم ومثالبهم الشخصية، وكان ينهى عن ذلك، ويعجب من انحدار بعض العلماء إلى هذا الأسلوب . بل إن الحق يدفعه أحياناً إلى بيان ما يجـد من محاسن ومآثر عند خصومه ، ولنستمع إليه وهو يبين محاسن كتاب انتقد بعض أفكاره العلمية : « طالعت الكتابه فإذا فيه الكثير الطيب المعجب ، الذي يملأ القلب سروراً والصدر انشراحاً ، بمبانيه البديعة ومعانيـه الرفيعة ، وجودة الأداء ، ووفرة الاطلاع ، وحسن الاقناع ، وقد كانت تغمرني أمواج من الفرح حين أستغرق في مطالعـــة بعض بحوثه ، حتى إنه لو كان أمامي (١) ، لقمت إليه وقبلت رأسه إعجاباً بهذا العلم ، وإكباراً لهذا العرض ، والتذاذاً بهذا الينبوع الثر من البيـان العذب ، وقديماً قبّل عبد الله بن المبارك رأس سفيان الثوري رحمهما الله تعالى . وحبذا لو دام على السنن المعتدل في كل فصول الكتاب ، لئلا يرتفع صوت حق بنقد ، ولا يجري قلم صدق باعتراض . . إه » .

---

(١) أي المؤلف .

وصوت الحق ياسيدي صوتك ، وقلم الصدق ياسيدي قلمك .

ولقددفعته نزاهته العلمية ـ رحمه الله تعالى ـ إلى إغفال أسماء من رد عليهم ، بيّن سبب ذلك ، فقال رحمه الله تعالى : « فقد التزمت في هذه الردود ، إغفال أسماء من رددت عليهم في الصحف والمجلات لأمرين اثنين :

أولهما : هو أن المقصد من الكتاب كان لتمحيص الحق مجرداً ، وتخليصه من الأخطاءإن شاء الله تعالى، لا للتنكيل بالأشخاص والتشهير بهم ، وإني لأربأ بالعلم أن يتخذه صاحبه أداة طعن في المخطئين ، لمحض التشفي منهم لحزازة نفسية وحقد ذاتي .

ثانيهما : هو أن رحمة الله سبحانه وتعالى قد تدركهم كلًا أو بعضاً ، فيتوبوا من الضلال ، ويثوبوا إلى الصواب . وكم أدركت رحمته سبحانه وتعالى من ضالين فاهتدوا ، ومن شاردين فأوقفهم على بابه الكريم ، وإنه ـ تبارك اسمه وتعالى جده ـ أرحم الراحمين ، وخير الغافرين ، يهدي لنوره من يشاء . إ هـ[1] » .

وإن أكثر الذين رد عليهم ثابوا إلى الحق وتابوا من الضلال ، هداهم الله سبحانه وتعالى ببركة إخلاصه رحمه الله وقوة دليله ، فأرسل الكثير منهم إليه بذلك ، وكم كان يفرح رحمه الله عندما يقرأ رسائلهم، ويطمئن إلى هدايتهم ورشادهم ، ويطالب الذين انتشرت أخطاؤهم أن يعلنوا رجوعهم عنها ؛ حتى لا يبقى أحد متأثراً بفكرة خاطئة ، أو منحرفاً عن نهج الحق وطريق الرشاد .

---

(١) مقدمة كتاب الردود .

إنتاجه العلمي

أما إنتاجه العلمي ، فالمطبوع منه من الكتب ما يلي :

١ – نظرات في كتاب اشتراكية الاسلام .

٢ – ردود على أباطيل . وهو كتاب ضخم ، طبع الجزء الأول منه وهو مجموعة رسائل ومقالات ، بعضها طويل وبعضها متوسط ، ومجموعة أسئلة فقهية وأجوبتها .

٣ – كتاب في تحريم نكاح المتعة في الاسلام .

والمطبوع من الرسائل :

١ – حكم الاسلام في الغناء .

٢ – رحمة الاسلام للنساء .

٣ – آدم لم يؤمر باطناً بالأكل من الشجرة.

٤ – القول في المسكرات وتحريمها من الناحية الفقهية .

٥ – حكم اللحية في الاسلام .

٦ – التدارك المعتبر لبعض ما في كتاب القضاء والقدر .

٧ – بدعة زيادة التنويرات في المساجد ليالي رمضان وغيرها .

٨ – لزوم اتباع مذاهب الأئمة حسماً للفوضى الدينية .

٩ – حكم مصافحة المرأة الأجنبية .

وأما الذي لم يطبع بعد فهو :

١ – مجموعة خطب منبرية .

٢ ـ القسم الثاني والثالث من كتاب الردود .

٣ ـ تعليقات وحواشٍ على كتاب الهدية العلائية لم يتمه رحمه الله تعالى .

٤ ـ تعليقات وحواشٍ على كتاب تبيين الحقائق شرح كنز الدقائق للزيلعي . لم يتمه أيضاً.

الاستفتاءات الشرعية

لم يكن رحمه الله تعالى مفتياً رسمياً ، ولكنه كان كذلك واقعاً وفعلًا ، وليس لأهل بلده وقطره فحسب ، وإنما لكل بلاد الاسلام وللمسلمين ، خارج بلاد الاسلام من مغتربين وطلاب علم . وقلّ أن يمر عليه يوم ، إلا والبريد يحمل إليه العديد من الرسائل المترعة بالأسئلة الشرعية والاستفتاءات العلمية . وأسباب تكاثر الأسئلة الشرعية عليه دون غيره من العلماء تعود في رأيي إلى ما يلي :

١ ـ ثقة الناس في شتى البلاد بعلمه رحمه الله تعالى ، ومرد هذه الثقة إلى خصلتين يمتاز بها رحمه الله تعالى هما : الأمانة العلميـة ، والتحقيق العلمي المؤيد بالدليل والبرهان .

أما الأمانة العلمية فما رأيت نظيراً لها عند غيره رحمه الله تعالى، يظهر ذلك في النقول العلمية التي يؤيد بها آراءه ويستشهد بها في مقالاته، فكل نقل علمي لا بد أن يعزوه إلى صاحبه ، مبيناً بدايته ونهايته ، حريصاً على كل حرف من حروفه ، فلا بد قبـــل كل نقل من ذكر

مصدره وصاحبه ، وبعده لا بد من كلمة (انتهى) أو رمزها (إ هـ) وإذا اضطر إلى التصرف ببعضه تقديماً وتأخيراً ، لا بد أن يذكر في نهايته : إ هـ بتصرف قليل ؛إذا كان قليلاً ، و إهـ بتصرف ؛ إذا كان كثيراً . وإذا اختصر بعضه : إ هـ باختصار . ويوصي تلاميذه بتدقيق كل ما ينقلونه عنه ، قائلاً : إنني بريء من كل خطأ في النقل عني .

ولما عرضتُ عليه — رحمه الله — كتاب« إرساد الناس إلى أحكام الحيض والنفاس » . أخذ عليّ قلة عزو المقولات إلى أصحابها . فقد كنت أعزوها جملة في أول البحث وآخره ؛ لأن عامة الناس غير معتادين على ذلك في هذا العصر ، واضطرني رحمه الله إلى عزو كل نقل إلى صاحبه، وبيان مصدره مهما تكرر اسم الكتاب والكاتب . وكان يقول : « **الأمانة العلمية تقتضي هذا** » .

وتظهر أمانته العلمية أيضاً في عرضه لمختلف الآراء في القضية الواحدة ، ثم يختار بعد ذلك الرأي المؤيد بالدليل والبرهان .

أما التحقيق العلمي فيظهر في مقارنته للأدلة المختلفة ، وتمحيصه للروايات المتعددة ، ورده الفروع إلى الأصول ، وتمييزه بين الصحيح والسقيم والقوي والضعيف .

ولقد كان رحمه الله مشغوفاً بالتحقيقات العلمية الدقيقة ، يحمله شغفه أحياناً على الاستمرار في درس الفقه الصباحي الخاص عدة ساعات ، لا يوقفه عنه أحياناً إلا شفقته على تلاميذه من التعب والإرهاق . وحتى عندما يخرج إلى النزهة ما كان ينقطع عن المذاكرة

في المسائل العلمية، ويتمنى أن تسير معه كتبه أني سار، وأن تكون معه حيثما كان.

وقد أكسبته دراسة الفقه الاستدلالي تمرساً في التحقيق، ودقة في التدقيق، وكان يردد رحمه الله دائماً كلمة سمعها من أحد علماء مصر العاملين[1]: «كتبنا هذه تعلم الجدل». ولم يكن الباعث له على ذلك ترفاً عقلياً، وإنما دفعه إليه حرصه على التعرف على أحكام الله فيما يجدُّ من الحوادث، وسبيل ذلك كما نقلت عنه في بحث الفقه، النظر في فروع الفقه وقواعده الكلية؛ فإنه كما قال - رحمه الله -: كفيل بتعريفنا بحكم الجديد من الحوادث.

٢ - حرصه على الإجابة على أي سؤال يرد إليه مهما كان مصدره. ومن أجل ذلك، أتعب نفسه، وأرهق جسمه، فما اعتذر عن جواب ولا رد سؤالاً، حتى بعد أن أعياه المرض، وألزمته العلة الفراش. كان يستحلف أهله ومحبيه ألا يكتموا عنه رسالة، ولا يعتذروا لسائل عن جواب، فكلما ألح عليه أحد أن يرحم نفسه ويشفق على جسمه، كان يجيبه: «**لا طاقة لي بلجام من نار، رد الكتاب كرد السلام**». حتى بطاقات التهاني في الأعياد كان يرد على أصحابها، وما أكثرها، تنهال عليه من معظم أقطار الاسلام، وكان يقول: «إنني لم أبدأ أحداً ببطاقة تهنئة ومع ذلك فإن الناس لا يرحمونني، الناس يجدون الراحة في الأعياد وأعيادي تعب وإرهاق». وكنت أقول له: ياسيدي لو اتخذت بطاقة مطبوعة موحدة، توفر عليك عناء كتابة الجواب لكل

---

(١) وهو الإمام الشهيد حسن البنا رحمه الله تعالى.

إنسان ، فيقول رحمه الله : « إن لكل إنسان لغة خاصة يخاطب بها ، إن أحد الأدباء يرسل إليّ في كل عيد يهنئني بأربعة أبيات شعرية، وعليّ أن أجيبه عليها بأربعة أبيات ، توافقها في الوزن والقافية » .

٣ ـ ما كان رحمه الله يكتفي بأجوبته الشرعية ببيان الأحكام فقط ، وإنما كان يذكر معها أدلتها وبراهينها ، لأنه أدرك ـ رحمه الله ـ أن غالبية الناس في هذا العصر ، لاتقتنع بالحكم المجرد عن دليله وبرهانه ؛ ولهذا كان يعتني كثيراً بفقه الدليل ، ويدعو العلماء للعناية به ومدارسته وتدريسه .

لهذا كله انهالت عليه الأسئلة من كل مكان ، ورد على أصحابها كلهم رحمه الله تعالى ، وكان للجهد الهائل الذي بذله في هذا السبيل ، إلى جانب أعماله العلمية والاجتماعية الأخرى ، أكبر الأثر في تنشيط العلة في كبده كما قال لي بعض الأطباء ، فسقط رحمه الله سقوط المجاهد في ساحة المعركة ، بين كتبه وأوراقه ورسائله ، شهيد العلم شهيد الحق .

رحمك الله يا سيدي، وأسأله تعالى أن ينور قبرك، كما نور قلبك، وأن ينفعنا بك بعد موتك ، كما نفعنا بك في حياتك ، وأن يثبتنا على طريقك . آمين .

* * *

الباب الثالث

محامدُ الصُّوفيّة

العلم هو الأمير على التصوف .

محمد الحامد

هـذا طريق أولي الوصول لربهـــم

نعم الطريق طريق طه المصطفى

الرواس

تمهيد

إن من أكبر المسائل التي قام حولها جدل فكري كبير ، مسألة التصوف ، وأصوله ومؤيداته الشرعية ، وطرقه وأهدافه . ولم يتوقف هذا الجدل عند عصر معين ، بل استمر عبر عصور الفكر الاسلامي ، فكان في كل عصر ؛ بين مؤيد ومنكر ، ومناصر ومعارض ، ومتعصب ومتحامل . والعجيب أنك تجد بين الفريقين مخلصين للحق ومتجردين له ، ومع ذلك لم يوصلهم إخلاصهم إلى نقطة واحدة يجتمعون عليها ، بل على النقيض ، كلما أوغل كل منهما في محبته ازداد بعداً وتناقضاً ، فكيف حصل هذا ؟ ومريد الحق لابد أن يصل إليه !!!.

ولم أزل أسأل نفسي هذا السؤال ، حتى عشت تجربة التصوف ، عندما وصلني سيدي رحمه الله بالقوم ، وشرفني بالانتساب إليهم . فوجدت جواب سؤالي هذا فيما شعرت به وذقته . ولقد وجدت في المقدمة التي كتبها الدكتور عبد الحليم محمود وطه عبد الباقي سرور لكتاب « التعرف لمذهب أهل التصوف » لأبي بكر الكلاباذي ؛ وجدت في هذه المقدمة النتيجة نفسها التي وصلت إليها بتجربتي العملية التي عشتها ، ومن أقوالهما في هذه المقدمة :

« إن أمر التصوف في الواقع ليس أمر جدل أو أخذ أو رد ، وإنما هو تعرف ، والتصوف تجربة ، والتجربة شعور ، والشعور ليس

منطقاً ولا برهاناً ، إنما هو تعرف ، وقديماً قالوا : من ذاق عرف ؛ وبالتالي فإن من لم يذق لم يعرف .

وكتاب المؤلف إذن ليس إلا محاولة للتعبير بالألفاظ عن الشعور المتدفق الفياض ، وهذا التعبير لا يفهمه حق فهمه إلا من شعر به .. إهـ ». باختصار .

وإن كل من عرف سيدي رحمه الله وقرأ له ؛ يعلم أنه خير من عاش تجربة التصوف ، أحوالاً وأشواقاً ومواجيد ، وعلماً وذوقاً ، وفهماً وشوقاً ؛ في عصرنا الحاضر . كانت فيها أحواله ومواجيده ؛ رغم شدتها وعنفها ؛ مقيدة بقيود العلم الصارمة الدقيقة ، التي ما حاد عنها في كل فترات حياته قيدشعرة . **العلم عنده أولاً ، والأحوال والمواجيد ثانياً** . العلم عنده هوالآمر المحكّم في كل أمر ، وإن كل الدخائل التي دخلت التصوف ، فعكرت صفاءه ، ولونت سناءه ، دخلت إليه عن طريق الجهل ، وكم كان – رحمه الله – يقول عن مثل هؤلاء : **« ليتهم لم يتصوفوا »**. وكم كان يتمنى لو يجد وقتاً في حياته المزدحمة بجلائل الأعمال وثقيل المهام؛ ليؤلف كتاباً في التصوف، يعيد له بهاءه وسناءه ، بلغة العالم الصوفي ، في عصر ما احتاج عصر من العصور الانسانية إلى معاني التصوف احتياجه ! فما من عصر طغت عليه المادية والآلية كهذا العصر ، حتى أفقدت كثيراً من أناسيّ هذا العصر معاني إنسانيتهم ، وجمّدت في نفوسهم مشاعر بشريتهم . أضلّوا أنفسهم ، وأضاعوا مشاعرهم وعواطفهم ، في ضجيج الآلات وحمّى الشهوات . وليس من سبيل لإنقاذهم من هذا الطوفان الجامح ، إلا بأن يلقوا بأنفسهم وقلوبهم

وأرواحهم في بحـــار النور ، حيث الحبور والسرور ، والطمأنينة والسكينة : (ألا بذكر الله تطمئن القلوب)[1] النور العذب الصافي الذي لا تكدره بدعة ، ولا تلوثه شطحة ، يصدر عن قلوب استنارت بنور الله : (ومن لم يجعل الله له نوراً فما له من نور)[2] أفاض الله عليها هداياه وعطاياه ، علوماً وأذواقاً ، وأحوالاً وأشواقاً ، فهم كما وصفهم الإمام الكلاباذي في التعرف : « سبقت لهم من الله الحسنى ، وألزمهم كلمة التقوى ، وعزف بنفوسهم عن الدنيا ، صدقت مجاهداتهم ، فنالوا علوم الدراسة وخلصت عليهـا معاملاتهم ، فمنحوا علوم الوراثة ، وصفت سرائرهم فأكرموا بصدق الفراسة . ثبتت أقدامهم ، وزكت أفهامهم ، وأنارت أعلامهم . فهموا عن الله ، وساروا إلى الله ، وأعرضوا عمـا سوى الله .. إ هـ »[3] .

ولقد عجزت همم الرجـال عن خرق أسوار الأقدار ، فقضى - رحمه الله - ولم تتهيأ له الفرصة لإنجاز ما تمنى ، ولتحقيق رغبة الذين كانوا يلحون عليه في إنجاز هذا الكتاب ، ولنستمع إليه - رحمه الله - يعتذر لفضيلة الشيخ عبد الباسط خلف حفظه الله تعالى ، بعد أن أرسل إليه يطلب منه الإسراع في إنجاز الكتاب ، قال رحمه الله :

« وكم أنا في خجـل منكم ، إذ لم أكتب ما طلبتموه مني ، وقد كنت أحدث نفسي به إذا بلغت التقاعد ، ولكني بلغتـه وأنا

---

(١) الآية ٢٠ من سورة الرعد .
(٢) الآية ٤٠ من سورة النور .
(٣) التعرف لمذهب أهل التصوف .

مريض ، فماذا أصنع ؟ والأعمال ما زالت مطلوبة مني كشيخ مشهور في البلد وفي غيره ، والمسجد ما برحتُ أزاول عملي فيه قياماً بأصل عملي الديني .. إهـ »[1] .

ولقد وجدت لزاماً عليّ ، تحقيقاً لرغبته ، رحمه الله تعالى ، ولرغبة محبيه ؛ أن أقوم بجمع كل ما كتبه في التصوف وترتيبه وتبويبه ، في فصل مستقل ، يصور للناس حقيقة التصوف ، ويبرز لهم أعلامه خالية عن كل بدعة وكل شبهة ، كما كان — رحمه الله تعالى — يفهمه ويعيشه ، واستطعت — والحمد لله — أن أجمع قسماً كبيراً مما كتبه رحمه الله ، سواء في رسائله إلى شيخه سيدي الشيخ محمد أبي النصر رحمه الله تعالى ، أم في أجوبته لأسئلة كانت ترد عليه ، وأكثرها لم ينشر بعد ، أم في تعليقاته ودروسه ، وضممت إليها دراسة لحياة شيخه العظيم ، أبي النصر رحمه الله تعالى ، ولحياة والده الشيخ سليم خلف رحمه الله تعالى . ولا بد حتى تتم السلسلة ويتصل الشمل من دراسة حياة شيخه الشيخ أحمد الططقلي رحمه الله تعالى ، الذي تلقى سر هذه النسبة من العارف الكبير مولانا خالد النقشبندي رحمه الله تعالى ، مع دراسة لأصول الطريقة النقشبندية ، واستعراض لأسماء أعلامها ، وذلك ما كان سيدي رحمه الله تعالى يؤمله ويرجوه . وكل الذي أرجوه من الله سبحانه أن أكون مقبولاً عندهم ، محسوباً من خدامهم ، مشمولاً بأنظارهم ، رضي الله تعالى عنهم وأرضاهم .

---

(١) الرسائل المحفوظة .

الصُّوفيَّة

قال الكلاباذي رحمه الله تعالى في كتاب « التعرف » :

« لم سُميت الصوفية صوفية ؟ قالت طائفة : إنما سميت الصوفية صوفيـــة لصفاء أسرارها ، ونقاء آثارها . وقال بشر بن الحارث : الصوفي من صفا قلبـه لله . وقـــال بعضهم : الصوفي من صفت لله معاملته فصفت له من الله عز وجل كرامته . وقال قوم : إنما سموا صوفية لأنهم في الصف الأول بـين يدي الله جل وعز ، بارتفاع هممهم إليه ، وإقبالهم بقلوبهم عليه، ووقوفهم بسرائرهم بين يديه . وقال قوم : إنما سُموا صوفية لقرب أوصافهم من أوصاف أهل الصفة الذين كانوا على عهد رسول الله صلى الله عليه وسلم . وقال قوم : إنما سموا صوفية للبسهم الصوف . . إهـ » .

وبعد استعراض هذه الأقوال ، قال رحمه الله :

« فقد اجتمعت هذه الأوصاف كلها، ومعاني هذه الأسماء كلها ، في أسامي القوم وألقابهم ، وصحت هذه العبارات ، وقربت هـــذه المآخذ ، وإن كانت هـذه الألفاظ متغيِّرة في الظاهر ، فإن المعاني متفقة ، لأنها إن أخذت من الصفاء والصفوة كانت صَفَـوية ، وإن أضيفت إلى الصف أوالصُّفة كانت صَفِّية أو صُفّية، ويجوز أن يكون تقديم الواو على الفاء في لفظ الصوفية، وزيادتها في لفظ الصَفـِّية والصُفـِّية،

إنما كان من تداول الألسن ، وإن جعل مأخذه من الصوف ، استقام اللفظ وصحت العبارة من حيث اللغة . . إ هـ »[1] .

هذه آراؤهم في منشأ اسم الصوفيـــة فما رأي سيدي رحمه الله تعالى ؟ .

يظهر لنـــا رأيه من المقولة التالية التي كتبها عام ١٣٤٩ هـ ، ولم يكن بعد منتسباً إليهم . قال رحمه الله تعـــالى تحت عنوان « التصوف والصوفية » :

« لم يكن هذا الاسم شائعاً في زمن الصحابـة رضوان الله تعالى عليهم ، فقد كان القوم عباداً زهاداً ، لم يختص فريق منهم بشعار ولا نحلة ، يمتازون بها عن البقية ؛ بل كان الجميـع على محجة الهدى الواضحة، يحيون ما أحياه القرآن ، ويميتون ما أماته ، تقيدوا بنصوصه وأوامره فاتبعوها ، وحملوا أنفسهم على لزوم الاتباع ، والميل عن الابتداع ، فـكان عصرهم أرقى العصوروأزهاها . بيدأنه لماتطاول الزمن بعد عصر الصحابة ، وفتحت الدنيا على الناس ، فمالت بهم ، ومالوا بها ، ورضعوا منها واتخذوها أماً ، وظهرت بوادر الفساد ، و كثر البغي والعناد ، بقي فريق من الناس متبعين خطة السلف ، ناهجين نهجهم ، عاملين على إحياء السنن وإماتة البدع، صرفوا قلوبهم عن الدنيا وزخرفها ، وزهدوا فيها زهداً حقيقياً ، فإن حازوا على شيء منها ، فهو لا بقلوبهم . عرفت هذه الفئة من الناس بالصوفية ، وهو اسم محدَث كما علمت والأقرب إنما سموا به ؛ لأن شعارهم كان لبس الصوف . . إ هـ » .

---

(١) التعرف لمذهب أهل التصوف .

وقال رحمه الله في جواب سائل عن التصوف : « فاعلم أن التصوف هو تنقية الظاهر والباطن من المخالفات الشرعية ، وتعمير القلب بذكر الله تعالى ، ومراقبته وخشيته ورجائه ، والسير في العبادات والأعمال على النهج الشرعي طبق السنة الشريفة ، وخلافاً للبدعة السيئة التى يحظر الاسلام التلبس بها . . إه » .

الصّوفيّة والسّلفيّة

الصوفية الحقة لا تخالف السلفية المخلصة ، التي تريد تنقية الاسلام من كل البدع والشوائب ، التي لحقت به عبر العصور التي مرّ بها . فالصوفي يهدف إلى تنقية نفسه وقلبه من كل شوائب الأغيار ، حتى تصبح خالصة لله سبحانه وتعالى ، والسلفي المخلص يهدف إلى تنقية الاسلام من البدع والدخائل ، فلا تناقض بينهما ولا تعارض ، ولا يوجد التعارض إلا حيث يفقد الإخلاص ، ومريد الحق لابد أن يصل إليه . وبهذا المعنى كتب رحمه الله تعالى :

« .. وبعد فالسلفية الحقة مجتمعة مع الصوفية الصحيحة ؛ متى حسن الفهم وصح العزم على الجمع الذي هو شأن الدعوة وأرب الإخوان ، وإذازخرت الصوفية بالروحانية الغامرة والرقةالعميقة ، فليست بمنكرة على أختها السلفية تحريها تنقية الاسلام مما لابسه من الغرائب عنه ، كي يعود إلى صفائه وخلوصه . لا يفترق الأخذ بالعزائم وعمق الفهم لأسرار الدين عن نفي ما علق به من أدران ،

ولحق به من أوضار عـــبر الأزمان ، ولا يصدم هذا والنزوع إلى الخطة الأولى ، إلى الاسلام العتيق الصافي، الذي سارت فيه القرون الثلاثة المشهود لها بالخيرية .. إ هـ » .

وقال رحمه الله تعـالى أيضاً : « والتصوف الذي أردت هـــو الاسلام الكامـل في مقاصده وأهدافه ، والصوفية السابقون و كثير من اللاحقين ، استقام سلوكهم على هذا المبدأ وفي منهجه ، ولا شأن لي فيما شارك اسماً وامتلأ بالدخائل والبدع ، فذلك ما لم أقصد إليه .. إ هـ » .

هذا هو التصوف الذي أراده رحمه الله تعالى ، وهو الذي كان عليه القوم رضي الله تعالى عنهم ،فقد سئل ولي الله شاه نقشبندي: بماذا يصل العبد إلى طريقكم ؟ فقال: **بمتابعة سنة رسول الله صلى الله عليه وسلم.**

وقال رحمه الله تعالى أيضاً : « إن طريقتنـا من النوادر ، وهي العروة الوثقى ، ومـــا هي إلا التمسك بأذيال متابعة السنة السنية ، واقتفاء آثار الصحابة الكرام .. إ هـ » .

و كتب الشيخ الغجدواني رحمه الله تعالى ، وهـو واضع أصول الطريقة النقشبندية ؛ كتب إلى أحد تلاميذه يقول : « يا بني أوصيك بتحصيل العلم والأدب ، وتقوى الله تعالى، واتبـع آثار السلف الصالح ولازم السنة والجماعة ، واقرأ الفقـــه والحديث والتفسير ، واجتنب الصوفية الجاهلين ، ولازم صلاة الجماعة بشرط ألا تكون إماماً ولا مؤذناً ! وإياك والشهرة ،فإنها آفة ، و كن واحداً من الناس ، ولا تمل لمنصب ولو كان محموداً ؛ كالقضاء والفتوى .. أ هـ[1] » .

---

(١) الأنوار القدسية .

وكان بقومس رجل مشهور بالورع والزهد ، فقال يوماً أبو يزيد البسطامي لأصحابه : قوموا بنا ننظر إلى هـذا الرجل الذي شهر نفسه بالولاية ، فمضوا معه ، فلما خرج الرجل من منزله ، ودخل مسجده ، رمى ببزاقه نحو القبلة ، فقال أبو يزيد : قوموا بنا ننصرف من غير أن نسلم ، فإن هذا الرجل ليس بمأمون على أدب من آداب الشريعة التي أدب بها رسول الله ﷺ ، فكيف يكون مأموناً على ما يدعيه من مقامات الأولياء والصديقين .؟.

ومن وصايا مولانا خالد رحمه الله تعالى إلى بعض مريديه في العراق . أما بعد : فأوصيكم بالتأكيد الأكيد بشدة التمسك بالسنة السنية ؛ والإعراض عن الرسوم الجاهلية ، والبدع الردية ، وعدم الاغترار بالشطحات الصوفية . . . . واعلموا أن أحبكم إليّ أقلكم أتباعاً وعلاقة بأهل الدنيا ، وأخفكم مؤونة ، وأشغلكم بالفقه والحديث .. إ هـ »[1].

ولنستمع إلى الإمام الرباني ، مجدد الألف الثاني ، الشيخ أحمد الفاروقي السرهندي ، رحمه الله تعالى،وهو ينبه على البدع ويأمربتركها، فيقول : « قال عليه الصلاة والسلام : (ما أحدث قوم بدعة ؛ إلا رفع مثلها من السنة)[2] ، وعن حسان رضي الله عنه ، قال : (ما ابتدع قوم بدعة في دينهم إلا نزع الله من سنتهم مثلها ، ثم لا يعيدها إلى يوم القيامة) ، بناء عليه ، فبعض البدع التي قال العلماء أنها حسنة ؛ إذا تأملتها تجدها

---

(١) الأنوار القدسية .
(٢) رواه الإمام أحمد في مسنده .

رافعة لسنة ، مثلًا ، قالوا في تكفين الميت : العمامة بدعة حسنة ؛ مع أن هذه البدعة رافعة لسنة ، فإن الزيادة على عدد المسنون الذي هو ثلاثة أثواب نسخ ، والنسخ عين الرفع ، وهكذا . . »[1] .

فهل يريد السلفيون المخلصون أكثر من هذا ؟ ولنستمع مرة ثانية إلى الإمام الرباني السرهندي رحمه الله وهو يتحدث عن الطريقة النقشبندية :

« اعلم يا أخي ، أن الذي لا بد منه وكلفنا الله بـه : امتثال الأوامر ، واجتناب النواهي ، لقوله تعالى : (وما آتاكم الرسول فخذوه ، وما نهاكم عنه فانتهوا)[2] ، وإذا كنا مأمورين بالإخلاص في ذلك ، وهو لا يتصور بدون الفناء وبدون المحبة الذاتية ؛ وجب علينا أيضاً سلوك طريق الصوفية الموصلة للفناء والمحبة الذاتية ، حتى تتحقق حقيقة الإخلاص ، ولما كانت طرق الصوفية متفاوتة بالكمال والتكميل ؛ كان كل طريق ؛ تلتزم فيه متابعة السنة السنية ، وأداء الأحكام ، أولى وأنسب بالاختيار . وذلك الطريق هو طريق السادة النقشبندية ، قدس الله أسرارهم العلية ، فإن هؤلاء الأكابر ، التزموا في هذه الطريقـة متابعة السنة واجتناب البدعة ، لا يجوّزون العمل بالرخصة ، ولو وجدوا ظاهراً أن له نفعاً في الباطن ، ولا يتركون الأخذ بالعزيمة ولو علموا صورةً أنه مضر بالسيرة ، ويجعلون الأحوال والمواجيد تابعة للأحكام الشرعية ، والأذواق والمعارف خادمة للعلوم الدينية ، ولا يستبدلون الجواهر النفيسة مثل الأطفال ؛ بجوز الوجد وزبيب الحال . . إ هـ »[3] .

---

(١) الأنوار القدسية .

(٢) الآية ٧ من سورة الحشر .

(٣) الأنوار القدسية .

والجنيد رحمه الله تعالى، سيد القوم وإمامهم –كما وصفه القشيري– قال في هذا الموضوع : **« من لم يحفظ القرآن ، ولم يكتب الحديث ، لا يقتدى به في هذا الأمر ؛ لأن علمنا هذا مقيد بأصول الكتاب والسنة . . إﻫ »** وقال أيضاً :

« علمنا هذا مشيد بحديث رسول الله ﷺ ، الطرق كلها مسدودة على الخلق ، إلا على من اقتفى أثر الرسول عليه الصلاة والسلام واتبع سنته ولزم طريقته . . إﻫ »[1] .

والكتاب والسنة عندهم أولاً وقبل كل شيء ، قال أبو الحسن الشاذلي – رحمه الله تعالى –: «إذا تعارض كشفك مع الكتاب والسنة ، فتمسك بالكتاب والسنة ، ودع الكشف وقل لنفسك : إن الله تعالى ضمن لي العصمة في الكتاب والسنة ، ولم يضمنها في جانب الكشف ولا الإلهام ولا المشاهدة ، إلا بعد عرضه على الكتاب والسنة . . إﻫ»[2]

ولو أن ولياً كاملًا فهم بواسطة الكشف والإلهام من حديث شريف ، فهماً يخالف فهم أئمة الاجتهاد ، فلا يجوز له أن يخالف ما قرره وفهمه أئمة الاجتهاد ، وضّح ذلك الشيخ الرواس رحمه الله تعالى بقوله في كتابه « بوارق الحقائق » :

« وقد ذهب أناس إلى القول : بأن الولي الكامل لا يقلد مذهباً، بل يأخذ جملة الأحكام من الكتاب والسنة ويعمل ، وإذا أشكل عليه

---

(١) حاشية التعرف .

(٢) المرجع نفسه .

أمر استفتى في عالم البصيرة النافذة من النبي ﷺ وعمل بفتواه ، عليه أفضل صلوات الله . وهذا القول خطأ ، والعمل به نقص عظيم ، فإن الولي الكامل لا يهتك حرمة التقيد بالمذهب ، ولا يخرج عن السواد الأعظم ، ولو أحاط بأسرار الحديث النبوي والنص القرآني ، على أن أئمة المجتهدين الذين دونوا لنا هذه المذاهب المباركة وقرروها ، هم أعلم من ذلك الولي بمدارك السنة خبراً ، وإن حصل لذلك الولي الوقوف على مدارك السنة فهماً وإلهاماً ، فإن فهمه وإلهامه لا يعتبر ، لا عنده ولا عند غيره إذا عارضه الخبر ، نعم ؛ تعتبر هذه الأفهام والإلهامات في زوائد الأعمال من النوافل بشرط عدم معارضة الخبر ، وأما قولهم: إنهم يستفتون من رسول الله ﷺ ، فهو استفتاء زائد ؛ لأنه عليه الصلاة والسلام ، ما قضى حتى بلّغ وترك الأمة على محجة بيضاء ، لا ضلال بعدها أبداً ، فكيف يستفتى عن شيء بلّغه وأوضحه ، واستودعه علماء الأمة ، وهم الذين يسألون عنه في كل عصر بشاهد قوله تعالى :

(فاسألوا أهل الذكر إن كنتم لا تعلمون)[1] ، وهذا أمر شمل كل مسلم . . إ هـ »[2] .

ثم قال رحمه الله تعالى: «وإن كُمّل الأولياء ــ قدست أسرارهم العلية ــ وإن بلغت مقاديرهم رتبة مقادير الأئمة المجتهدين ، فضلاً وعلماً وإرشاداً ، لكن لم تصل إليهم أخبار الكتاب والسنة ، كما وصلت

---

(١) الآية ٧ من سورة الأنبياء .

(٢) بوارق الحقائق .

إلى الأئمة المجتهدين تلقياً وإسناداً ، فإذاً هم مكلفون بالأخذ عن الأئمة المجتهدين . . »[1] .

وإن خيرما أتوج به هذا البحث، كلمة سيدي الشيخ أحمد الرفاعي – رحمه الله تعالى – وهي : « **كل طريقة خالفت الشريعة فهي زندقة**[2] » .

ولا بد لي أن أشير أخيراً إلى أن كثيراً من الدخائل والمفاهيم السيئة ، قد دخلت أيضاً إلى أفكار بعض دعاة السلفية . ولقد ذكر بعضها سيدي – رحمه الله تعالى – في بعض رسائله إلى شيخه أبي النصر قدس سره . ففي إحدى هذه الرسائل كتب – رحمه الله تعالى – :

« سيدي : وقع لي أن بدهت أمام بعض الرفاق ، زعم الذي يقول : إن هلاك القوم الذين أرادوا هدم الكعبة ، في السنة التي ولد فيها سيدنا رسول الله ﷺ ، والذين أرسل الله تعالى عليهم طيراً أبابيل ، ترميهم بحجارة من سجيل ، فجعلهم كعصف مأكول. أقول : إني بدهت زعم الذي يقول : إن هلاكهم كان بمرض الجدري ؛ أي لا بالحجارة التي رمتهم بها تلك الطيور ، ويحتال على رد الآية بنوع من التلاعب في معناها ؛ مع أنها قطعية الدلالة على هذا المعنى الواضح الذي لا يرتاب فيه إلا جاحد ، وكان كلامي أن الذي ينفي مدلول الآية القطعي من الطير والحجارة والرمي ، كافر لجحده ما هو معلوم من الدين بالضرورة . فإن

---

(١) بوارق الحقائق .

(٢) المرجع السابق .

الصبيان في المكاتب يعرفون تلك الحادثة لشهرتها ، وهي أيضاً في سورة من سور الصلاة التي يقرؤها الخاص والعام فيها ، وقد انعقد الإجماع على فهمها على وجهها من غير احتيال من زمن سيدنا رسول الله ﷺ إلى الآن، ولم يشذ منهم أحد ، إلى أن ظهر هؤلاء الملاحدة الذين آمنوا ببعض وكفروا ببعض ، وراحوا يلعبون بالآيات الواضحة المعنى . قلت لبعض الرفاق : إن الذي يقول هذا القول كافر ، فقال : ألا ينفعه تأويله ويخرجه عن الكفر؟ فقلت: لا ، لأن التأويل إنما ينفع في مواضع احتمال اللفظ لمعانٍ عديدة ، وهذه الآية ليست منها ، فكل تأويل فيها يكون نفياً لمعناها القطعي الذي آمن به الرسول والمؤمنون ، وهو تلاعب لا تأويل . كان من كلامي : إن هجران الحقيقة إلى المجاز في الكلام لا يصح إلا إذا قامت القرائن المانعة من إرادة الحقيقة ، وكانت تلك القرائن قطعية . ولابد أيضاً من مناسبة بين المعنى المنتقل منه والمعنى المنتقل إليه ، وهنا لم تقم تلك القرينة المانعة من إرادة الطير والحجارة والرمي ، وليس في الكلام مناسبة بين هذه الثلاثة وبين مرض الجدري ، وقد أجمع المسلمون على الايمان بها كما أخبر الله تعالى .

إنهم يا سيدي يزعمون أيضا : أن كل معجزة ذكرها الله في القرآن ، ليس لها حقيقة واقعة ، فعصا موسى عليه الصلاة والسلام ، وانفلاق البحر وانفجار العيون الاثنتي عشرة من الحجر ، كل هذه لا حقيقة لها في نظرهم ، بل هي عندهم أمور معنوية ، مع أن الله تعالى أخبر بانقلاب العصا (حيةً تسعى)[1] (فإذا هي ثعبان مبين)[2] ، و(تلقف

---

(١) طه : ٢٠ (٢) الأعراف : ١٠٧ .

ما يأفكون)[1] فالأمر واقع على حقيقته ، وهؤلاء جحدوه وقالوا : إنه أمر معنوي فنفوا بهذا صريح القرآن . وانفلاق البحر أخبر الله تعالى به بصراحة ، وأن كل فرق منه كالطود العظيم ، بل لقد صرح الله تعالى بيبس الأرض حين وقع هذا الانفلاق : (ولقد أوحينا إلى موسى، أن أسْرِ بعبادي ، فاضرب لهم طريقاً في البحر يَبَسَاً)[2] وكذلك أمره الله تعالى بأن يضرب الحجر : (فانفجرتْ منه اثنتا عَشْرة عيناً ، قد علم كل أناسٍ مَشْرَبَهم ، كلوا واشربوا من رزق الله ولا تعثَوا في الأرض مفسدين)[3] والله لو أن هلاك من قصد الكعبة الشريفة كان بمرض الجدري ، ولم يكن هناك طير ولا حجارة لبادر المشركون إلى تكذيب النبي ﷺ في هذا الأمر ، لحرصهم على تكذيبه ، وفيهم كثيرون شاهدوا الحادثة بأعينهم ، ولكنهم سكتوا لأن الأمر وقع أمام أعينهم .

وهم أيضاً مع كل ما تقدم ، ينكرون الجن ، إنهم ينكرون وجودهم ، ويزعمون أنهم نوازع الشر في النفوس ، أي وليسوا أمماً كالإنس من العقلاء المكلفين ؛ مع أن الله تعالى أخبرنا عنهم في آيات كثيرة من كتابه العزيز ، وأنهم يروننا ولا نراهم ، وأنه خلقهم من نار السموم ، وأنه سيملأ جهنم (من الجِنّة والناس أجمعين)[4] وهل تملأ إلا بالأجسام ؟ ! وأنهم استمعوا إلى القرآن من النبي ﷺ ، ثم ذهبوا

---

(١) الأعراف: ١١٧ .

(٢) طه : ٧٧ .

(٣) البقرة : ٦٠ .

(٤) السجدة: ١٣ .

منذرين إلى قومهم ،فصريح القرآن يـــدل على وجودهم ، وأنهم عقلاء كالإنس ، وأنهم مكلفون ، فهل القول بأنهم أوهام ، وأنهم نوازع الشر في النفوس ؛ هل هذا إلا كفر صريح ورد لكتاب الله تعالى ؟!.. إهـ »[1] باختصار .

أركان التصوّف

يقوم التصوف على ركنين أساسيين : أولهـــا الذكر ، وثانيها الشيـخ المرشد .

أولاً ـ الذِّكْرُ

حقيقة الذكر .

قال الكلاباذي ـ رحمه الله تعالى ـ : « حقيقة الذكر أن تنسى ما سوى المذكور ، لقوله تعالى : (واذكر ربك إذا نسيت)[2] يعني إذا نسيت مادون الله فقد ذكرت الله . وقال النبي صلى الله عليه وسلم : « سبق المفرِّدون ، قيل : ومن المفرِّدون يارسول الله ؟ فقال : الذاكرون كثيراً والذاكرات »[3] والمفرد : الذي ليس معه غيره .

(١) من رسائل مصر .

(٢) الآية ٢٤ من سورة الكهف .

(٣) ذكره في الفتح الكبير بلفظ : (سبق المفردون المستهترون في ذكر الله ، يضع الذكر عنهم أثقالهم ، فيأتون يوم القيامة خفافـــاً) . رواه الترمذي والحاكم عن أبي هريرة، ورواه الطبراني عــن أبي الدرداء . ومعنى المستهترون في ذكر الله : الذين أولعوا به . كما في الفيض .

وقال بعضهم : الذكر طرد الغفلة . فإذا ارتفعت الغفلة ، فأنت ذاكر وإن سكت . . إهـ »[1] .

الذكر وسيلة لا غاية .

والذكر عند الصوفية وسيلة لا غاية ، وسيلة إلى الحضور الدائم مع الله سبحانه وتعالى ، ولا يلتفتون إلى العدد في الذكر إذا تحقق الذاكر بالحضور ، لأن العدد وسيلة عندهم إلى هذه الغاية الشريفة، وإن إحدى الكلمات الإحدى عشرة التي وضعها الشيخ عبدالخالق الغجدواني ـ رحمه الله تعالى ـ والتي تعتبر الأصول الأولى للطريقة النقشبندية هي (الوقوف العددي) وقد شرحها صاحب (الحدائق الوردية) بقوله : « وهو عبارة عن الذكر الخفي القلبي ، مع رعاية العدد ، لا بمجرد العدد في الذكر ، وذلك لحفظ الخاطر وحبسه عن التفرقة» .

وقال بعض الأكابر من هذه الطريقة العلية :

« كثرة العدد ليست بشرط في الذكر ، وإنما العمدة فيه حضور القلب مع المذكور ؛ ليترتب عليه فائدة الذكر وأثره . . إهـ »[2]

والوقوف العددي وسيلة إلى الوقوف القلبي ، أي الوقوف المنسوب إلى القلب ، وهذا محمول على معنيين : إما وقوف قلب الذاكر على المذكور عند ذكره أي إطلاعه عليه بحيث لا يغيب عن مراقبته ، بل مشاهدته بكل حال، قال سيدنا عبيد الله أحرار ـ قدس الله سره ـ :

---

(١) التعرف .
(٢) الأنوار القدسية .

« الوقوف القلبي كناية عن الحضور مع الحق تعالى على وجه لا يكون معه التفات إلى غيره ، وهو شرط لازم في الذكر ، ويسمى بالحضور، والشهود، والوصول، والوجود .. إهـ».

أو المراد وقوف الذاكر على قلبه ؛ بأن يطلع على حاله واشتغاله بالذكر وملاحظة مفهومه ، وأن لا يخلّي عليه سبيلاً للغفلة . قال سيدنا بهاء الدين النقشبندي قدس سره العزيز : « الوقوف القلبي بالمعنيين، شرط مهم أكثر من الوقوف العددي . إهـ »[1] .

وبهذا يظهر لنا أن الذكر بعدد معين ليس غاية ، بل وسيلة ليعتاد قلب الذاكر على الحضور الدائم مع الله سبحانه وتعالى .

شروط ذكر اللسان .

والذكر جائز بكل اسم من أسماء الله تعالى الحسنى ، وأسماء الله سبحانه توقيفية ، فلا يجوز لنا مجاوزتها إلى غيرها مما لم يقف عليها بنص صحيح . ويجوز جهراً وسراً ، وانفراداً واجتماعاً ، بشرط أن لا يكون في رفع الصوت أذىً للآخرين وتشويشاً عليهم . قال سيدي رحمه الله : « والذكر جائز في انفراد وفي اجتماع،بشرط أن لا يكون من الذاكرين جهرٌ ، يتأذى به الجيران والنائمون والعالمون والعابدون والعاكفون في المساجد والمصلون ، وإلا حرم هذا الجهر ، وقد نص الفقه على هذا . . إهـ » .

---

(١) الأنوار القدسية .

تحريم التحريف في أسماء الله الحسنى .

ويشترط أيضاً في الجهر ، أن لا يكون تحريف في أسماء الله الحسنى ، وألا ترافقه حركات جماعية منتظمة تشبه حركات الرقاصين.
وقد نبه ــ رحمه الله تعالى ـ على هذا ، فقال : « والذي نراه من بعض متصوفة عصرنا من الحركات الزائدة حال الذكر ؛ إن كانت من وجْد صحيح ووارد قوي ، أفقد صاحبه التماسك حتى غدت حركاته كحركات المرتعش ؛ فلا إثم عليه ولا لوم ولا محذور ، وإنه في حال غالبة ، وما لم يكن كذلك ، فإن لم تشبه حركاته حركات المخنثين فلا ؛ أيضاً . أما إن أشبهتها وكانت حركات جماعية بخفض ورفع على مقدار معلوم ، لا يزيد أحدهم ولا ينقص عن الآخرين شيئاً ولو يسيراً ، وكانت شبيهة بالرقص ، فإن الشرع يمنع من هذا ويلزم الوقوف عند الأدب الشرعي الاسلامي ، والذكر المحرف ممنوع ، والواجب النطق باسم الله الكريم كما أنزله إلينا دون تغيير ، والإنشاد مسموح فيه إن لم يكن حاوياً معاني غير صحيحة كالقول بالحلول وما إليه . . إهـ » .

وكتب ــ رحمه الله تعالى ـ إلى الشيخ محمد أديب كلكل ، مقولة في هذا الموضوع نشرها في كتابه (تنبيه الفكر إلى حقيقة الذكر) وهي تحت عنوان :

«المنع من الذكر المحرف»

قال فيها : « الحمد لله رب العالمين ، وأفضل الصلاة وأتم التسليم على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه أجمعين . أما بعد : فلقد سئلت غير مرة عن جواز الذكر المحرّف ، وإني أجيب مستعيناً بالله القوي العزيز ، فأقول :

قد يتعلق أصحاب الذكر المحرّف بأن اللغة غير مقصودة لذاتها، بل هي لمحض التفاهم، وأن المعنى هو الذي عليه التعويل و (إنما الأعمال بالنيات)[1] فلا ينبغي التشديد في هذا الأمر ؛ لأن اشتراط النطق بالاسم الكريم باللغة الفصحى يقعد كثيراً من الناس عن التعبد ، وذا يتنافى ومقصد الشرع ، وإنه من التكلف ، ولا ضير في تركه ما دام الإخلاص حاصلًا ، وحسن المقصد ماثلًا . وقد يعززون دعواهم بأن اللحن في القرآن الكريم غير ضار في بعض المسائل ، وأن افتتاح الصلاة بغير العربية لا يؤثر في صحتها ، وأن قراءة ترجمة سورة الفاتحة الشريفة تجوز بها الصلاة ، وأن الدعاء بغير العربية سائغ ، إلى آخر ما يستظهرون به على جواز ما هم متلبسون به ، من عدم مراعاة النطق حال الذكر باسم الله الكريم واضحاً غير محرّف .

وقبل أن أشرع في تركيز الحقيقة الدينية ، في وجوب النطق بالاسم الكريم كما أنزله الله سبحانه إلينا ؛ أحب أن يعلم الذاكرون أني لا أتهمهم في إخلاصهم ، ولا أصادرهم في قصدهم ، فإن الإخلاص سرّ بين العبد وربه تعالى ، وليس من الحق التحكم في الضمائر ، ولا من الإنصاف التهجم على السرائر ، بل إني لأراهم في نفسي خيراً مني ، وإني أحمد لهم سمتهم الطيب ، وسيرهم الحميد ، وخشوعهم لله ، وخضوعهم لأمره وابتعادهم عن المنكرات ، وانطواءهم على الذوات ، كما أني لا أجحد منازلات السائرين إلى الله تعالى والسالكين سبيل التصفية ، فإنها حقائق مقررة لا يجحدها إلا الجهول ، الذي لم يشمّ للقرب من الله رائحة ،ولم

---

(١) هذا جزء من حديث شريف صحيح .

تعبق في روحه منه فائحة . إن السادة الصوفية لهم من هـــذا النصيب الأوفى ، والحظ الأوفر ، والله المسؤول أن يعيد علينا من بركاتهم ، ويحشرنا في زمرهم وجماعاتهم آمين . . .

ولكن هذا كله لا يمنع قائل الحق من قوله ، وإن الله فرض علينا التواصي بالحق ، والتواصي بالصبر ، وقديماً قال العارفون بالله سبحانه : **لا يزال الصوفية بخير ما تناكروا** .

إن الغيرة على اسم الله المجيد ، تحمل صاحبها على النصح بالتزام تصحيـح حروفه والنطق به تاماً كاملًا ؛ فإنه أكرم الأسماء وأمجدها .

وإن المرء ليغضب إذا نودي باسمه الشخصي محرّفــاً ، فكيف باسم الله المجيد ! وهو سبحانه أحب إلى المؤمن من نفسه ، ومن كان كذلك ذاق حلاوة الايمان على ما جاء في الحديث النبوي الشريف [1]، وعن هذا يمنـع التطريب في الأذان : وهو إخراج كلماته عن وضعها بزيادة المدّ والتمطيط ، وقـد ذكر المحقق الشيـخ كمال الدين بن الهمام الحنفي في كتابه (فتح القدير) الذي شرح فيه كتاب (الهداية) في فقـه الحنفية . ذكر فيه أن الإمام أحمد سئل عن هذا في القراءة ، فكرهه ومنعه ، فقيل له : لم ؟ فقال للسائل : ما اسمك ؟ قال : محمد ، فقال :

---

(١) وهو حديث صحيـح متفق عليه ولفظه : « ثلاث من كن فيه وجد حلاوة الايمان : أن يكون الله ورسوله أحب إليـه مما سواهما ، وأن يحب المرء لا يحبه إلا لله ، وأن يكره أن يعود في الكفر بعد إذ أنقــذه الله منه كما يكره أن يلقى في النار » .

أيعجبك أن يقال لك : (يا موحامد) . إذا لم يحل هذا في الأذان ففي قراءة القرآن أولى . . إهـ .

وقد نقله عنه الشيخ الشبلي في حاشيته على شرح الكنز للزيلعي وأقره ، وإذا كان ممنوعاً في القراءة ؛ فهو ممنوع حال الذكر أيضاً ، والفرق بينهما محض تحكم ، ومن المعلوم أن لام الجلالة في الاسم الكريم تفخم تارة وترقق أخرى ، ولا يجوز الترقيق في مقام التفخيم ، ولا التفخيم في مكان الترقيق ، وكل هذا من الحق المتلقى عن سيدنا رسول الله صلى الله عليه وسلم تسليماً . ولا يجوز العدول عنه بحال ، اللهم إلا إذا فقد الذاكر تماسكه ، وغشيته حال شديدة جرى معها لسانه بما لا ينطق به لولاها ، فهذا يغتفر له ما لا يغتفر للمتزن المتماسك ، وقد يلتبس بحركات كحركات المرتعش ، فيكون منه اضطراب وصياح ، وقد يمزق ثيابه وجداً وهياماً وشوقاً حاراً إلى الله ، يلتهب به التهاباً محرقاً ممزقاً ؛ مثل هذا تسلم له حاله الصادقة ولا يعترض عليه إلا الأجنبي عن هذه النفحات الأقدسية ، التي تضرع قلوب إلى الله تعالى أن يبقى بابها مفتوحاً ، وفيضها ممنوحاً . . .

ولا ضير على من نزلت به هذه الحال في كل حركة يأتيها ، فإن الممنوع من الحركات ما كان على غير النحو الشرعي المأذون فيه ، والشرع إنما يأذن بما ليس فيه تثن وتكسّر وما إليها ... أما ادعاؤهم بأن اللحن في القرآن الكريم غير ضار في بعض المسائل ؛ فهو من الغرابة بمكان إذ كيف يسوغ اللحن المتعمد في كلام الله عز وجل ? ! . .

اللحن الذي لا يضير هو ما يزل به لسان القارىء في الصلاة ، من

غير عمد على نحو ما ذكره الفقهاء رضي الله تعالى عنهم في فصل (زلة القارىء من باب مفسدات الصلاة). على أنه يغتفر للعامي فيما لا يغتفر للفقيه العالم ، فقد تفسد في حق إنسان ، ولا تفسد في حق آخر . والتحريف في الذكر ليس من هذا في ورد ولا صدر ، من حيث أنه متعمد متلقف ، فقياسه على زلة القارىء لا يتم ؛ لأن الفرق بينهما قائم ، والقياس يعمل عمله عند التشابه التام بين المقيس والمقيس عليه ، وعند اتحاد العلة أيضاً ؛ ليكون الحكم فيهما واحداً ، وشرطه أن لا يكون في المقيس نص وإلا فلا قياس ، ونصوص الدين تمنع من تحريف اسم الله تعالى ، وهل شرع علم التجويد إلا لإعطاء الحروف حقها ومستحقها من المخارج والصفات ؟ واسم الله الكريم أحق من سائر الكلمات بهذه المراعاة المفروضة .

وأما افتتاح الصلوات بغير العربية ، فأمر مختلف فيه ، فأبو حنيفة يجيزه للقادر على العربية ، مع الإثم وكراهة التحريم ، لأن التكبير واجب في أول الشروع ، وتارك الواجب واقع في كراهة التحريم التي يستحق مقارفها العقوبة بالنار ؛ لأنها إلى الحرام أقرب بخلاف كراهة التنزيه فإنها إلى الحل أقرب .

والصلاة التي دخلتها كراهة التحريم ، تعاد وجوباً في الوقت ؛ بل وبعده على الأصح . نعم لا تكون الصلاة باطلة بترك الواجب ، إذ البطلان ينجم عن ترك الفرض . وإن كانا مشتركين في الإثم والحظر على تفاوت بينهما فيها ، قال الشيخ ابن عابدين في حاشيته « رد المحتار على الدر المختار » بعد أن ذكر جواز الشروع في الصلاة بالفارسية على قول

الإمام ، لان المطلوب الذكر والتعظيم ، وذلك حاصل بأي لفظ كان وأي لسان كان . قال : نعم ، لفظ الله أكبر واجب للمواظبة عليه لافرض . . إه .

والجواز لا يتنافى مع كراهة التحريم ، لترك الواجب كما هو مقرر الفقه ، أما صاحباه أبو يوسف ومحمد - رحمهما الله تعالى - فانهما لا يجوّزان الشروع فيها إلا بالعربية للقادر عليها ، ويجوزانه للعاجز عنها ، فهما يشترطان العجز لجواز الشروع كما في الدر المختار . فما لم يكن لم يكن . على أن هذا قياس مع الفارق أيضاً ؛ لأن الكلام في منع ذكر اسم الله تعالى بحروفه العربية المحرّفة لا في لغة أخرى ؛ فلينتبه إلى هذا .

وأما جواز الصلاة بقراءة ترجمة سورة الفاتحة بغير العربية فلا يفيدهم شيئاً . ذلك أن هذا الجواز مقيّد بالعجز عن قراءتها بالعربية إلى أن يتعلمها . وهذا هو الذي عليه الفتوى ، إذ الأصح أن الإمام أبا حنيفة - رحمه الله تعالى - رجع إلى قول صاحبيه أبي يوسف ومحمد - رحمهما الله تعالى - بأن قراءتها بالفارسية ونحوها لاتجوز بهاالصلاة ؛ إلا عند العجز عن قراءتها بالعربية ، وقد كان الإمام أولاً يقول بجوازها مطلقاً ، ثم رجع إلى قولهما ، كما في الدر المختار نفسه ، فضلاً عن الاحتجاج به كدليل .

وأما تسويغ الدعاء بغير العربية ، فلا وجه للاستدلال به على جواز الذكر المحرّف ؛ لأن الدعاء ضراعة إلى الله وذلة له سبحانه ، ومن ذا الذي يمنع الأعجمي أن يبسط كف الضراعة إلى خالقه ، ويذل

له ، طالباً منه سبحانه قضاء حاجته ، وهو الذي يجيب المضطر إذا دعاه، ويحقق له رجاءه ؟ ! إنه سبحانه المدعو بكل لسان ؛ والمرجو في كل آن ، وقد طلب إلى خلقه أن يدعوه ليستجيب لهم . على أن عوام العرب ، إذا دعوا ربهم بلغتهم العامة غير الفصحى ، فإنهم ينطقون باسم الذات فصيحاً بيا الله ، واللهم ، ويا ربنا ، وما إلى هذا ، مما ليس لتحريف الحروف فيه سلوك ، أما باقي كلماتهم ، فهي أوعية للمعاني التي يشكون بها بثهم وحزنهم إلى الله ، والله عليم بالمقاصد والنوايا ، وما انطوت عليه الصدور من أسرار وخفايا .

وأما الذكر بلفظ « آه » طيـاً لما في القلب من اسم « الله » وحبساً للنَّفَس بالهمزة منه ، ثم تصريفاً له بالهـاء الصاعدة من القلب للتفريج عن قلوب المنتهين ، ولتحريك قلوب المبتدئين ، وللاستعانة على سرعة الاستحضار ، فأمر متوقف على ورود الشرع بأن لفظ « آه » من أسمائه تعالى ، التي هي توقيفية ليس للاختراع إليها سبيل ، نعم ينسب إلى بعض الصوفية أنهم يثبتونه اسماً له تعالى ؛ وليتهم بينوا دليل هذه التسمية من دليل سمعي — كتاب أو سنة — فإن الأمر من حيث هو متوقف عليها . وبعد: فما الذي يضر إخواننا الذاكرين لله تعالى أن يَدَعوا ما فيه شبهة ، إلى ما ليس فيه شبهة ، وقد قال فقهاؤنا رضي الله تعالى عنهم : إذا ترددنا في شيء بين كونه بدعة أو سنة؛ فتركه لازم. إ هـ . وإلى الفقهـاء الرجوع في الأحكام لا إلى المفسرين والمحدثين والصوفية ، على احترامنا لهم .

وفي الحديث النبوي الشريف الذي رواه سيدنا أمير المؤمنين

الحسن ابن أمير المؤمنين علي رضي الله تعالى عنهما و كرم وجههما ، عن سيدنا جده المصطفى عليه وآله الصلاة والسلام أنه قال : « دع ما يريبك إلى ما لا يريبك » رواه الترمذي والنسائي ، وقال الترمذي : حديث حسن صحيح . هذه النصيحة أملاها عليّ النصح للإخوة في الدين ، والله ولي المؤمنين . إ هـ » .

ذكر القلب أفضل من ذكر اللسان .

وذكر القلب أفضل من ذكر اللسان ، وفي هذا قال ــ رحمه الله تعالى ــ :

« فإن ذكر القلب الذي عليه السادة النقشبندية ، يفضل الذكر اللساني الذي تسمعه الملائكة الحفظة بسبعين ضعفاً، كما جاء في الحديث الشريف ، من حيث إنه سر بين العبد وربه تبارك وتعالى، وإنه مطهر للقلب من كل سوء ، يحرق بحرارته الصفات السيئة ، ويملأ الذاكر نوراً .. إ هـ »[1] .

ومع ذلك؛ كان رحمه الله يجيز ذكر اللسان بالشروط التي نقلتها عنه ، لأن الأدلة الشرعية تحبذه ، ولقد كتب رحمه الله تعالى إلى أحد المشايخ ــ أخبرعنه أنه يقول: إن الإمام الرباني الشيخ أحمد السرهندي يقول : « إن ذكر اللسان ذنب » ــ كتب إليه يقول : ألقى إليّ إنسان من أهل طريقتنا نبأ عن فضيلتكم ، يتلخص في أن سيدنا الشيخ أحمد السرهندي قدس سره الإمام الرباني مجدد الألف الثاني ، أنه

---

(١) من الرسائل المحفوظة .

يقول : إن ذكر اللسان ذنب . إ هـ . ولا أخفي عليكم أن هذا الخبر ثقل على روحي ، لما أعلم من حاله ومما كتبه عنه العلماء وترجموه به ، من أنه كان فوق الأشخاص العاديين ، هذا إلى كونه متشرعاً للغاية ، ووقّافاً عند الحدود الدينيـة العلمية ، لا يجاوزها ولا يعدوها ، ولقد نهض بالهند منذ ثلاثمائة سنة إلى الأوج الأعلى ، وأيد الله به الاسلام ، وفاض مدد قلبه الشريف إلى أقاصي الدنياوأدانيها ، فكان مجدد الألف الثاني بحق. فكيف يتصوّر متصوّر مع هذا أن هذا القول صحيح عنه ! ومعظم الأذكار الواردة في السنة والمأثورة عن سيدنا رسول الله عليـه وآله الصلاة والسلام ، كانت لفظية لسانية ، وأكثر طرائق أهل الله ؛ بل كلهـــا - باستثناء طريقتنا - يُعنى مرشدوها بتسليك المريدين في الذكر اللساني ، ثم ينتقلون بهم إلى الذكر القلبي ، فكيف يكون الذكر اللساني بإطلاقه ذنبـــاً ! والذنب إذا أطلق انصرف معناه في الذهن إلى العصيان ؟ ! ! . .

أليس القرآن ذكراً لسانياً ؟ !! أليست الأذكار الـتي جمعها الإمام النووي وغيره - رحمهم الله تعالى - في عمل اليوم والليـ ـلة ، والتقلبات الليلية والنهارية ، وفي أعقاب الصلوات ، أليست هذه أذكاراً لسانية ؟ ! ألم يقرر أئمة طريقتنا النقشبندية أن ذكر القلب يكون بعد استيفاء المأثورات الواردة ، وكلها لسانية ؟ ! ! . .

الذي أراه على ضوء هـذه السواطع أن نسبة تلك القولة إليه غير صحيحة قطعاً ، ومعاذ الله أن يقرر الإمام الرّباني المتشرع هـــذا التقرير ، وبفرض وجودها فيما أثر عنه من مكتوبات ومقولات ، فإن

علينا أن نقف منها موقفاً يرضى عنه الاسلام والطريقة ، وهي من الاسلام .

وعلى هذا نستطيع أن نقول : إن نقل المعاني من الأوردية الهندية إلى اللغة العربية ، عملت فيه يد الترجمة عملها ، فقد يكون نقص ، وقد تكون زيادة ، وقد تكون دسائس لتشويه سمعة الطريقة ، وكم وكم دس الدساسون ، وكذلك الكذابون ، على سيدنا محمد رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم ، وعلى أئمة الفقهاء والمحدثين والصوفية ؛ ليبلغوا ما يريدون من الإفساد في العقائد والأعمال ، وقد يكون مراده أن الذكر القلبي أقوى أثراً وأعظم ثواباً ؛ لأنه لا تسمعه الحفظة وأسرع إيصالاً إلى الله سبحانه وتعالى . على أن المنقولات عنه — قدس سره — لم يبلغ ناقلوها عدد التواتر الذي يفيد اليقين ، بل ولا عدداً يفيد غلبة الظن ، فيسعنا والحالة هذه أن ننفي عنه هذا الذي نسب إليه ؛ تبرئة لساحة ذلك الإمام الجليل ، الذي هو حلقة كبرى في سلسلة طريقتنا العلية النقشبندية . . إ هـ »[1] .

الأحوال

الأحوال من ثمرات الاستغراق في ذكر الله سبحانه وتعالى ، يخلقها الله سبحانه وتعالى في قلوب الذاكرين ، وسميت أحوالاً لأنها

---

(١) من الرسائل المحفوظة .

تتحول ولا تدوم ، وقد تسمى وَجْداً لوجودها في القلب ، وإذا قويت قد تفيض عن القلب ، فتظهر على الجوارح حركات اضطرارية أو بكاءً أو صراخاً . وأكثر ما تظهر على جوارح المبتدئين ، أما المتمكنون فإنهم يصرعون أحوالهم ويمنعونهـا من الظهور . قال الكلاباذي في « التعرف » : « ومعنى الوجد ، هو ما صادف القلب من فزع أو غم ، أو رؤية معنى من أحوال الآخرة ، أو كشف حالة بين العبد والله عز وجل . قالوا : وهو سمع القلوب وبصرها ، قال الله تعالى : (فإنها لا تعمى الأبصار ولكن تعمى القلوب التي في الصدور) [1] فمن ضعف وجده تواجد ، والتواجد ظهور ما يجد في باطنه على ظاهره ، ومن قوي تمكن فسكن . قال الله تعالى : (تقشعر منه جلود الذين يخشون ربهم، ثم تلين جلودهم وقلوبهم إلى ذكر الله) [2] . قال النوري : الوجد لهيب ينشأ في الأسرار ، ويسنح عن الشوق ، فتضطرب الجوارح طرباً أو حزناً عند ذلك الوارد . . إ هـ » [3] .

ولهذا وصف سيدي رحمـه الله تعالى التصوف بقوله : « فإن التصوف حال اكثر منه قالاً ، وإن من سلك سبيل القوم بصدق ذاق ما ذاقوه ، إن شاء الله تعالى له ذلك . . إ هـ » [4] .

وكان ـ رحمه الله ـ ينصح بألا يظهر أصحاب الأحوال أحوالهم،

---

(١) الحج : ٤٦ .

(٢) الزمر : ٢٣ .

(٣) التعرف .

(٤) من الرسائل المحفوظة .

إلا عند الاضطرار الشديد، فقد كتب إلى أحد تلاميذه يقول : والذي يحسن بك ، أن تحسن صلتك بالله تعالى عن طريق ذكره ، ودوام مراقبته عز اسمه وتعالى جده . وتعودُ الصبر على مصارعة الأحوال التي تعتري السالك إلى الله سبحانه وتعالى ؛ من أهم المطلوبات الشرعية ؛ فلا ينبغي أن تظهر الحالُ على صاحبها إلا عند الاضطرار الشديد الذي يفقد معه التماسك والتثبت .. إ هـ[1] » .

وأرسل إليه أحد تلاميذه ، يشكو إليه شدة أحواله وكثرة صياحه ، فكتب – رحمه الله – تعالى إليه : « إن الذي تتخوفه حال طيب ، وأمر حسن ، إنه ليدل على علوقك بطريق أهل الله وأحبابه الذين أنتسب إليهم . وإن الحال الصالحة والمدد الروحي ، يخلقه الله سبحانه سارياً من أرواحهم إلى أرواحنا ، وقد يخلقه خلقاً مبتدَءاً كما يشاء ربنا تعالى ويريد . فلا تجفل من هذا الذي يدل على خير ويفضي إلى خير إن شاء الله تعالى ، وإني قدمرّ بي عهد كنت فيه كثير الصراخ والصياح والاضطراب والبكاء ، حتى ضعف صوتي وبُحّ ، ثم سكنت حالي وهدأت ، وقد يعاودني أحياناً شيء قليل مما كان يغمرني في السابق ، وهذا يعبر عنه السادة الصوفية بالجذب ، وقديماً قال قائلهم :

ومُنّ علينا يا ودود بجذبة بها نلحق الأقوام من سار قبلنا

وقد تأتي للمجذوب ملاطفات ربانية ، وحلاوات روحانية ،

---

(١) من الرسائل المحفوظة .

وإفاضات إلهية ، يخشع لها القلب ، وتسعد بها الروح ، ويغرق السر في بحر متموج من اللذائذ . وقد قالوا : لو يعلم أبناء الملوك ما نحن عليه من اللذة ، لجالدونا عليها بالسيوف . وقالوا أيضاً :

من ذاق طعم شراب القوم يدريهِ ومن دراه غـــدا بالروح يشريهِ
ولو تعوّضَ أرواحـاً وجاد بهـا في كل لحظـــةِ عـينٍ لا تساويهِ

وهذا الصراخ الشديد ، دواؤه التحمل لمـا قد يرد على القلب من واردات ، وهذا التحمل يكون بالتمرن عليه ، حتى يقوى المرء على ضبط حاله ، فلا يظهر منه إلا ما كان فائضاً لا يسعه السر .

تهدئة الحال بالإكثار من الصلاة والسلام على النبي .

على أن الإكثار من الصلاة على حضرة سيدنا رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم وبارك ، هذا الإكثار له أثره البيّن في تهدئة الحـال ، وإبراد الاشتعال ، فالزمها ألف مرة في اليوم ، وزد عليها شيئاً من العدد غير محدود ، وابدأها واختمها بالصلاة الإبراهيمية ثلاثـاً في البدء وثلاثاً في الختم ، وقل مع كل مرة من هذه الثلاث : (السلام عليك أيهـــا النبي ورحمة الله وبركاته) ملاحظاً أنك تسلم على ذاتـــه الشريفة عليه وآله الصلاة والسلام، واجعل له وللمسلمين ثواب عملك، ليصل إليه، ويكتب لك الأجر وافراً غير منقوص ، ويكفيك الله همك، ويغفر لك ذنبك، كما ورد في الحديث الشريف .. إه[1] » .

وقد يقوى الحال حتى يغلب على صاحبه غلبة يخرجه فيها عن

(١) من الرسائل المحفوظة .

مراعاة الأدب ، قال الكلاباذي ــ رحمه الله تعالى ــ : « الغلبة حال تبدو للعبد لا يمكنه معها ملاحظة السبب ، ولا مراعاة الأدب ، ويكون مأخوذاً عن تمييز ما يستقبله ، فربما خرج إلى بعض ما ينكر عليه من لم يعرف حاله ، ويرجع على نفسه صاحبه إذا سكنت غلبات ما يجده ، ويكون الذي غلب عليه خوف أو هيبة أو إجلال ، أو حياء أو بعض هذه الأحوال . كما جاء في الحديث عن أبي لبابة بن عبد المنذر حين استشاره بنو قريظة ، لما استنزلهم النبي ﷺ على حكم سعد بن معاذ ، فأشار بيده إلى حلقه ، أنه الذبح ، ثم ندم على ذلك ، وعلم أنه قد خان الله ورسوله ، فانطلق على وجهه حتى ارتبط في المسجد إلى عمود من عمده ، وقال : (لا أبرح مكاني حتى يتوب الله عليّ مما صنعت) فهذا لما غلب عليه الخوف من الله عز وجل ، حال بينه وبين أن يأتي رسول الله ﷺ ، وكان هو الواجب عليه لقول الله عز وجل : (ولو أنهم إذ ظلموا أنفسهم ، جاؤوك فاستغفروا الله ، واستغفر لهم الرسول)(١) . الآية . وليس في الشريعة ارتباط بالسواري والعمد ، وقال النبي ﷺ لما أن استبطأه : (أما لو جاءني لاستغفرت له ، فأما إذ فعل ما فعل ، فما أنا بالذي أطلقه من مكانه ، حتى يتوب الله عليه) . فلما علم الله صدقه وأن ذلك صدر عنه لغلبة الخوف عليه غفر له ، فأنزل الله توبته ، فأطلقه النبي ﷺ .

وكما غلب على عمر رضي الله عنه حمية الدين ، حين اعترض على

(١) النساء : ٦٤ . وتتمة الآية : « لوجدوا الله تواباً رحيماً » .

رسول الله ﷺ ، لما أراد أن يصالح المشركين عام الحديبية ، فوثب عمر حتى أتى أبا بكر رضي الله عنه ، فقال : يا أبا بكر ، أليس هذا رسول الله ! قال : بلى ، قال : ألسنا بالمسلمين ! قال بلى . قال : أليسوا بالمشركين ! قال : بلى . قال : فعلام نعطي الدنية في ديننا ؟. فقال أبو بكر : يا عمر ، الزم غرزه[1] فإني أشهد أنه رسول الله . فقال عمر : وأنا أشهد أنه رسول الله ، ثم غلب عليه ما يجد حتى أتى رسول الله ﷺ ، فقال له مثل ما قال لأبي بكر ، فأجابه النبي ﷺ كما أجابه أبو بكر ، حتى قال : (أنا عبد الله ورسوله ، لن أخالف أمره ، ولن يضيعني) فكان عمر يقول : فما زلت أصوم ، وأتصدق ، وأعتق ، وأصلي ، من الذي صنعت يومئذ ، مخافة كلامي الذي تكلمت به ، حتى رجوت أن يكون خيراً .

ثم قال - بعد أن عرض أمثلة أخرى - : فهذه كلها - وأمثالها ، كثيرة - تدل على أن حال الغلبة حال صحيحة ، ويجوز فيها ما لا يجوز في حال السكون ، ويكون الساكن فيها بما هو أرفع منه في الحال أمكن وأتم حالةً ، كما كان أبو بكر الصديق رضي الله عنه .. إ هـ[2] » .

التمكن في الحال يوصل إلى المقام .

وإذا جاهد صاحب الحال نفسه وقاومها ، فقد يتمكن من حاله ويملكه ، وعند ذلك يدوم له حاله ، ويسمى في هذه الحالة مقاماً . قال الجرجاني في كتاب « التعريفات » :

---

(١) الزم غرزه : اتبع قوله وفعله ولا تخالفه .
(٢) التعرف .

« والحال عند أهل الحق ، معنى يرد على القلب من غير تصنع ولا اجتلاب ولا اكتساب : من طرب ، أو حزن ، أو قبض ، أو بسط ، أو هيئة ، ويزول بظهور صفات النفس ، سواء يعقبه المثل أو لا ، فإذا دام وصار ملكاً يسمى مقاماً ، فالأحوال مواهب ، والمقامات مكاسب ، والأحوال تأتي من عين الجود ، والمقامات تحصل من بذل المجهود .. إه[1] » .

الأحوال عند الصحابة .

وهذا يفسر لنا لِمَ لم يكن أصحاب النبي ﷺ مصابين بالأحوال التي أصابت من بعدهم، فالقوم رضي الله عنهم جاهدوا أحوالهم وتمكنوا منها ، فصرعوها ولم تصرعهم ، وكانوا جبالاً راسية في التمكن والثبات ، ذوي مقامات عالية لم يصل إليها كل من أتى بعدهم . ولقد ساعدهم على هذا التمكن صحبتهم للنبي ﷺ ، والمدد الروحي العظيم الذي كانوا يتلقونه من قلبه الشريف ، ولو لم يكونوا في مقامات التمكن العالية ، كيف يكون شأنهم وهم يشهدون ويسمعون حنين الجذع الذي كان يخطب عليه ﷺ ، وتسبيح الحصى في كفه الشريف، ونبع الماء من بين أصابعه الشريفة ، وغيرها من المعجزات الحسية التي أكرم الله بها نبيه صلى الله عليه وآله وسلم ؟ بل كيف يكون حالهم ، لو لم يكونوا في مقامات التمكن ، وهم يسمعون القرآن الكريم من فمه الشريف صلى الله عليه وآله وسلم ، فتجتمع لهم أنوار التنزيل

---

(١) التعريفات .

الكريم ، وأنوار النبي العظيم ، وجلال الوحي الأمين ؟ ! ولعل سيدنا أنس بن مالك رضي الله عنه ، أشار إلى هذا المدد الروحي العظيم الذي كانت قلوبهم تتلقاه من قلبه صلى الله عليه وآله وسلم بقوله :

« لما كان اليوم الذي دخل فيه رسول ﷺ المدينة ، أضاء منها كل شيء ، فلما كان اليوم الذي مات فيه ، أظلم منها كل شيء ، وما نفضنا أيدينا من التراب – وإنا لفي دفنه – حتى أنكرنا قلوبنا »[١].

صاحب الحال لا يقلد أثناء غلبة الحال عليه .

هذا ولا بد لي من أن أنبه إلى أن بعض المتصوفة قد تغلبهم أحوالهم ، ويصدر عنهم أثناء ذلك ما يخالف الشرع ، فلا يجوز تقليدهم في هذا الذي يصدر عنهم في حالة الغلبة ، نبه على هذا كبار القوم رضي الله تعالى عنهم ، قال الإمام الرباني السرهندي – رحمه الله تعالى – : « علامة الوصول إلى حقيقة اليقين ، مطابقة علومه ومعارفه لعلوم الشريعة ومعارفها ، وما دامت المخالفة موجودة ، ولو بأدنى شعرة ؛ فذلك دليل عدم الوصول ، وكل خلاف وقع من كافة مشايخ الطرق للشريعة ، فهو مبني على سكر الوقت ، وهو لا يكون إلا في أثناء الطريق ، والمنتهون إلى النهاية كلهم في الصحو ، والوقت مغلوب لهم ، والحال والمقام تابع لكمالهم ؛ فتحقق أن مخالفة الشريعة علامة على عدم الوصول إلى الحقيقة . . إ هـ »[٢] .

---

(١) أخرجه الترمذي في الشمائل والمناقب .

(٢) الأنوار القدسية .

وما أجمل ما قاله مولانا خالد ـ رحمه الله تعالى ـ في هذا الموضوع :

« الولي يعذر في نطقه بغير المشروع لكسره ومحوه ، ولا يجوز تقليد غيره له بشعوره وصحوه ، ولا يسقط التكليف إلا عمن سقط عنه شرعاً . وأيضاً الخطأ الكشفي كالخطأ الاجتهادي يعذر صاحبه ولا يقلّد فيه ، ومن لم يجوّز الخطأ على الأولياء ، لم يفرق بين النبي والولي تماماً . . إ هـ »[1] .

القبض على ناصية الحال .

ومن جملة الشروط التي ذكرها سيدي ـ رحمه الله تعالى ـ للشيخ المرشد ، أن يكون قابضاً على ناصية حاله ، متمكناً منه ، قال رحمه الله في ذلك :

« ثم القبض على ناصية الحال ، فلا يخرج به عن سنن السنة إلى مخرقة البدعة ، ولا عبرة بالفيض والمدد ما لم يكن مترسماً بسير النبي وصحبه ، وأئمة السلوك ، عليه وعليهم أفضل الصلاة والسلام . فإن لم يحكم هذا إحكاماً صحيحاً ، كان مستدرَجاً ممكوراً به ، والعياذ بالله تعالى . ولله السيد الرواس حيث يقول من قصيدة :

لو تقطعتُ بوجدي إرباً   قدمي عن نهجكم ما زلقا
وذراعي لو بسيف قُطعتْ   أبداً وجه السّوَى ما طرقا

والكلمة السائدة عند أهل السير إلى الله تعالى : « لو رأيتم

---

(١) الأنوار القدسية .

رجلاً أعطي من الكرامة ، حتى تربع في الهواء ، فلا تغتروا به حتى تنظروا كيف وقوفه عند حدود الله عز وجل . . إ هـ »[1]

الأحوال والأعمال .

ولا يظن إنسان أن الأحوال الطيبة ثمرة الذكر فقط ، بل لا بد من الأعمال التي أمر بها الشرع وتعبدنا الله بها ، قال الكلاباذي ــ رحمه الله تعالى ــ : « اعلم أن علوم الصوفية علوم أحوال ، والأحوال مواريث الأعمال ، ولا يرث الأحوال إلا من صحح الأعمال ، وأول تصحيح الأعمال معرفة علومها؛ وهي علوم الأحكام الشرعية . .إهـ »[2]

وقال الحسن البصري ــ رحمه الله تعالى ــ : « لا يغرنك قول من يقول : المرء مع من أحب ، فإنك لن تلحق الأبرار إلا بأعمالهم ، فإن اليهود والنصارى يحبون أنبياءهم وليسوا معهم . . إ هـ »[3]

وصفوة القول تظهر لنا بالكلمة التالية للسيد الرواس رحمه الله تعالى : « الحال يحول ، والرجوع لا ينبغي إلا إلى الفقه المحمدي المدوّن، المعروف الشأن ، البين، الظاهر الحكم والحكمة في الآخرة والأولى ، والأمر يومئذ لله . . إ هـ »[4].

---

(١) من الرسائل المحفوظة .

(٢) التعرف .

(٣) الأنوار القدسية .

(٤) بوارق الحقائق .

الشطح والتحذير منه .

وقد يغتر بعض المبتدئين بحاله ، وتغلب عليه نفسه ، فيتلفظ بألفاظ مخالفة للشرع ، وقد أطلقوا على هذه الحالة اسم (الشطح) وحذروا منها ومن الأقوال الناتجة عنها أشد تحذير ، ولقد دخل إلى التصوف عن هذا الطريق دخائل كثيرة . وكان سيدي — رحمه الله تعالى — يحذر منها ، وينبه عليها ، وينصح المبتدئين بألا يقرأوا كتب القوم حتى لا يقعوا على أمثالها . وإن كثيراً منها مدسوس عليهم ،وقد يتكلمون بكلمات لايفهم حقيقة معناها إلا من كان مثلهم وبلغ رتبتهم. ولقد أرسل سائل إلى سيدي رسالة ، يسأله فيها عن مثل هذه الكلمات التي وقع عليها في بعض الكتب ، فكتب إليه — رحمه الله تعالى — مايلي:

« إن من أدب المريد ، أن لايسبق علمُه ذوقَه ، فلا يتكلف معرفة منزلة قبل أن ينازلها ويبلغَها ، وإن تكلف ذلك فقد يفهم غير مراد القوم من كلامهم فيضل ، وهم منعوا غيرهم ممن لم يبلغ منازلهم من مطالعة كلماتهم وقراءة كتبهم لهذا الملحظ ، إذ هو بين أن يكفرهم إن أساء بهم الظن ، وبين أن يتابع فهمه السيء الذي لم يريدوه ، فيفسد اعتقاده ، ويعزب عنه رشاده . وبعض ما في كتبهم مدسوس عليهم ، وقد نبه العلماء عليه ، وبينوا دسه ، وإن لدينا فيما نسب إليهم ميزان الشريعة ، فكل ما لم يقبل التأويل بوجه صحيح فهو مدسوس عليهم .

وإني آخذ نفسي ومن لقنته طريق السادة النقشبندية ، بالامتناع من مطالعة الكتب التي ألفها القوم لأنفسهم ولأمثالهم ، أخذتهم ونفسي

بهذا ؛ حرصاً على سلامة الاعتقاد ، وإبقاء على حسن الظن بالقوم رحمهم الله تعالى .

وعلى هذا ؛ فلن تجد عندي جواباً لما سألتني،وإني أرى الاشتغال بالتفسير والحديث والفقه ، أجدى علينا وعلى الأمة من الاشتغال بهذه الدقائق ، التي قل أن يخرج المشتغل بها سليماً ، إن كان من المبتدئين، وقد سمعت سيدي ومرشدي ، السيد الأستاذ الشيخ محمداً أبا النصر ، – رحمه الله تعالى وقدس سره – يقول : « **طعام الكبار يضر الصغار** » ويعني به هذه المسطورات في كتب القوم إذا طالعها السالكون المبتدئون . فلنقبل هذا ، ولنعمل عليه ، حتى يوافينا فتح الله علينا ، والله قريب مجيب .. إه[1] » .

ولقد أفاد وأجاد كثيراً السيد الرواس – رحمه الله - في كتابه (بوارق الحقائق) في كلامه عن الشطح والشطاحين والتحذير منهم ، فمن نثره قوله : « وبويعت في الحضرة على أصرة سنة النبي العظيم ، وقمع البدعة الهادمة لمنار العقائد الاسلامية ، التي قال بها جهلة المتصوفة : كالشطحات التي تتجاوز حد التحدث بالنعمة ، والقول بالوحدة المطلقة ، والاشتغال بالكلمات السائقة إلى هذا الباب .. إه » ، وقال أيضاً : « وخلاصة ما أجمع عليه العارفون ، أن الشطح هضمه جموح ، وضجة دعوى ، ونهزة تجاوز ، ومفارقة حق ، وانصراف مع هوى ، ولا يكون الولي ولياً حالة الشطح ؛ بل ينسلخ من ولايته ، وينتقل إلى

(١) من الرسائل المحفوظة

ساحة دعواه ، كما ينتقل النائم بالنوم من يقظته إلى ساحة نومه ، وهو – أعني الشطح – نقص لا يجتمع معه كمال، وإدلال لا يفارقه الإذلال ، وبينه وبين التحدث بالنعمة أهوال، وكم من كلمة شطح سرت، وكتبها أهل النقص في كتبهم ؛ ظناً بأنها من مقام التحدث بالنعمة ، وهي عند الله من سوالب النعمة ، والعياذ بالله تعالى .. إهـ[1] » .

ومن شعره في هذا الموضوع :

هممٌ تطرّقها الزلـــلْ وطوى عزائمَها الخللْ
سبحتْ بموجاتِ الهوى غياً على شوطِ الأمـلْ
فالزمْ طريـق المصطفى واطرحْ أباطيل الحيلْ
واهجر صنوف الشطح إنّ الشطحَ داعيةُ الزللْ
واقطع صنيـعَ علائق الشطّـــاح واهجرْ ما فعلْ
هو واهمٌ إنْ لم يزلْ فكل من يتبعهُ زلّ[2]

ويؤكد تحذيره من مثل هؤلاء ، فيقول : « ولا يغرنك حال بعض الأدعياء في طريق الله تعالى ، ممن يزعم أنه على شيء ، وهو ممن فارق السنة والجماعة ، واتخـذ الزيـغ والإلحاد والشطح الكاذب ، له رأس مال وزبدة بضاعة ؛ فأولئك من الممقوتين المردودين : (وإن الله لمع المتقين) .. إهـ[3] » .

---

(١) بوارق الحقائق .
(٢) المرجع نفسه .
(٣) رفرف العناية .

ومن وصايا مولانا خالد النقشبندي - رحمه الله تعالى - : « أما بعد : فأوصيكم ، وآمركم بالتأكيد الأكيد بشدة التمسك بالسنة السنية ، والإعراض عن الرسوم الجاهلية ، والبدع الردية ، وعدم الاغترار بالشطحات الصوفية .. إه[1] » .

ووفاءً للحق وتبياناً له ، أثبت فيما يلي ما كتبه سيدي - رحمه الله تعالى - عندما كان في مصر إلى شيخه ومرشده سيدي الشيخ محمد أبي النصر قدس سره ؛ ليظهر لنا كيف كان - رحمه الله - يسير في طريق التصوف على بصيرة ورشاد ، يقيس كل أمر يعرض له بمقياس الشرع الذي أمر به وأخلص له ، ودافع طيلة حياته عنه . وهذه الرسالة من عيون كنوزه العلمية ، وذخائره الأدبية ، ولذلك أثبتها فيما يلي بكاملها . قال - رحمه الله تعالى - :

بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله ، والصلاة والسلام على سيدنا رسول الله وعلى آله وصحبه ومن والاه . من العبد الفقير إلى الله تعالى محمد الحامد ، إلى سيده ومرشده الأستاذ الشيخ محمد أبي النصر قدس سره :

السلام عليكم ورحمة الله وبركاته ، وبعد : فإني ألثم يدكم الشريفة بشفة الروح ، سائلاً الله تعالى أن يحفظ فيكم بقية الصالحين ، ويديم مناركم عالياً وذكركم سامياً ، وبعد : فإني مستشعر تقصيري إذ لم أحدث بكم عهداً كتابياً ، بعد أن كتبت إليكم أوائل ذي الحجة

---

(١) الأنوار القدسية .

الماضي ، وقد يُظن أن هذا الانصراف عن الكتابة لذهول أو نسيان ، أو لاطواح للمودة وهجران للمحبة . إنني أرجو من سيدي أن لا يظن بولده هذا الظن ، فما أنا بالذي يقطع حبل المودة ، ولست أجفو من حنا عليّ وبرني ، وكان لي الدوحة التي أتظلل بها إذا حمي عليّ الهجير ، ولأنا كما يقول ناظم الموال المصري :

يا سادتي إنْ نسيتوني أنا فاكرْ وإنْ هجرتمْ ، أنا لودادكم شاكرْ
وحياةْ من أنزل القرآن وفيه فاطرْ غبتم عن العين ، ماغبتم عن الخاطرْ

غير أن الهموم والأحزان التي ألحت عليّ في مصر ، غلبتني على أمري ، وصرفتني عن أداء واجباتي نحوكم ، ولعل الأوقات تصفو فأصفو ، وأعود سيرتي الأولى ، وأملي أن لا يكون هذا بعيداً .

عندي أمور كنت متردداً في مكاشفتكم بها ، ولكن صح العزم مني على ذكرها في هذا الكتاب ؛ لتعود الكتابة بالنفع على الكاتب ، وقد يبسط الأدنى بين يدي الأعلى ما يساوره ، ويعرض له ، وعلى هذا قام شأن أهل الشأن .

كنت سائراً في كنف حسن الظن بالقوم عامة ، وبشخصيات منهم خاصة ، مبتعداً عما يحدث لي سوء ظن أو يخدش حسن اعتقادي بهم ، لا سيما وقد ضربتم لي بمجالسكم مثلاً أعلى وسيرة صالحة ، لأولئك الذين تتعطر بذكرهم المجالس وتجلو ذكراهم القلوب . كنت حريصاً على طيب قلبي نحو تلك الشخصيات ، منصرفاً عن مطالعة كتبهم ، لما شاع في الأوساط العلمية أن فيها ما يصطدم والشريعة المطهرة ، وأن المعتذرين عنهم يقولون : إنها لعلوها عن مدارك حَمَلة الشرع ، يظن

بها ذلك ، وهي على التحقيق روح الشريعة ولبابها ، وحيث إني مقتنع بأني لست من ذوي الأفهام الدقيقة ، التي تنحل أمامها المشكلات ، فقد رأيت أن أتحاشى جانباً عن موطن النزاع ، وأكون على اعتقاد الحسنى في المتنازعين ، قائلًا: إن الخلاف لفظي وإنهم متلاقون في نقطة واحدة ، هي البراءة مما توهمه العبارات ولا يفهمه إلا أهل الإشارات ، وهكذا أصممت أذني عما يعكر عليّ حالي ، ولكن هـذا النوع من السير لم يطل بي ، خصوصاً في مصر ، وخصوصاً في هـذا الزمن الذي ظهر به ما كان كامناً ، وانكشف ما كان يحرص الأشياخ على بقائه في خفائه . على أني تصامت في أول الأمر ، وتغافلت إلى أن صرت إلى حال لا ينفعني معها التصامم ولا التغافل ،إذ وقفت في مفترق لطريقين : حق ، وباطل ، وأيقنت حينئذ أني أمام حقيقة واقعة ، وأن عليّ أن أميز بين الحق والباطل ، قياماً بالتكليف الإلهي ، وتحقيقاً لمقتضيات الايمان الذي به النجاة يوم يخسر المبطلون .

أما هذه الأمور فهي مما ترفضه الشريعة بالبداهة ، إذ أن القول بها معناه التملص من حبال الدين ، والتحلل من قيوده ، فيما أوجبه من العقائد ، وقضى بالمصير إليه والتزامه ، وها أنذا مبتدىء بها تعديداً واحداً إثر واحد ، والله المستعان .

الأول في الرد على من قال بنجاة إبليس يوم القيامة .

ألقى إليّ بعض الناس ، أن الشيخ عبد الكريم الجيلي صاحب كتاب « الانسان الكامل » يقول بنجاة إبليس يوم القيامة ، فدهشت لهذا النبأ ، الذي لا يتصور عاقل صدوره من مسلم ، يؤمن بالقرآن ؛ فضلًا

عمن يومىء إليه كثير من الصوفية بأنه عارف محقق . وليت شعري ماذا يكون موقفنا من القرآن ؛ إن لم نعترض على هذا الزعم ولم نتشمر لجحده وإنكاره ? هل يكون إلا إهمالاً له وهجراناً ، وتمسكاً بما يضاده على طول الخط ! ! ‌سمعنا الله تعالى يقول : (كمثل الشيطان إذ قال للانسان اكفر ، فلما كفر ، قال: إني بريء منك ، إني أخاف الله رب العالمين . فكان عاقبتهما أنهما في النار خالدين فيها ، وذلك جزاء الظالمين) [١] . ويقول أيضاً : (وقال الشيطان لما قضي الأمر : إن الله وعدكم وعد الحق ، ووعدتكم فأخلفتكم ، وما كان لي عليكم من سلطان ، إلا أن دعوتكم فاستجبتم لي فلا تلوموني ولوموا أنفسكم ، ما أنا بمصرخكم وما أنتم بمصرخيّ) [٢] الآية . وهي صريحة في أن هذه الخطبة لإبليس تكون في جهنم ؛ لأن الإصراخ لا يكون إلا لمن كان تحت العذاب لحاجته إليه . قيل لي : إنه يمكن الاحتجاج لهذا القول بقوله تعالى خطاباً لإبليس : (وإن عليك لعنتي إلى يوم الدين) [٣] حيث غيّا اللعنة [٤] بيوم الدين ، فيمكن أن ينجو بعده . فقلت : هذا المفهوم معطّل بالآيتين السابقتين المفيدتين أنه في النار ، وأنه خالد فيها ، وقد حكم الله تعالى عليه في آيات كثيرة بالكفر ، والكفرة خالدون في النار أبداً .

---

(١) الحشر : ١٥ — ١٦ .
(٢) إبراهيم : ٢٢ .
(٣) سورةص : ٧٨ .
(٤) غيا اللعنة : جعل لها غاية .

وعلى هذا ، فقد قطعت بأن هذا القول كفر بواح ، عندي من الله فيه برهان، وانضاف إليه علمي بعدمدة، بأن الإمام الشعراني رحمه الله تعالى ، نص على أن هـذا القول مكذوب على الشيخ محي الدين والشيـخ عبد الكريم الجيلي ، فالحمد لله على ذلك ؛ إذ تبينت أن ما هو كفر ، منحول لهما مدسوس في كتبهما ، وهما بريئان منه .

الثاني : في الرد على من يقول بأن المطيع والعاصي سواء أمام الحق عز وجل .

أخرج بعض المعاصرين كتاباً في التصوف الاسلامي ، ذكر فيه نقولاً عجيبة عن بعض كتب القوم منها : أن الشيخ الجيلي قضى في كتابه « الانسان الكامل » بأن المطيـع والعـاصي سواء أمام الحق عز شأنه ، لإطاعة كل منهم له سبحانه في صفة من صفاته واسـم من أسمائه ، فالأول أطاعه في اسمه الهادي ، والثاني أطاعه في اسمه المضل ؛ فكلاهما إذا مطيـع ، ومقرّب ، ومثاب على طاعته .

قرأت القرآن فوجدت الله تعالى يقول : (أم نجعل الذين آمنوا وعملوا الصالحات كالمفسدين في الأرض ، أم نجعل المتقين كالفجار) [١] وسمعته يقول : (أم حسب الذين اجترحوا السيئات، أن نجعلهم كالذين آمنوا وعملوا الصالحات ، سواءً محياهم ومماتهم ساء ما يحكمون) [٢] ويقول أيضاً : (أفنجعل المسلمين كالمجرمين ، ما لكم كيف تحكمون) [٣]

---

(١) سورة ص : ٢٨ .
(٢) الجاثية : ٢١ .
(٣) القلم : ٣٥ .

هذا قول الله الذي لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه ، ينفي المساواة بين أهل السعادة وأهل الشقاوة ، فكيف يقدم مؤمن على القول بخلافه ، وهل يكون سيدنا محمد رسول الله وحبيبه صلى الله تعالى عليه وسلم كأبي جهل لعنه الله تعالى ؟ ! اللهم لا ، وإن هذا الزعم باطل و كذب ظاهر لا يقبل التأويل ، وإن أريد بأنهما سواء من حيث إن كلًا منهما نفذت فيه إرادة الله ، فهو مظهر لتحقيقها ، فهذا حق ، ولكنه لا يلزم منه التساوي في إطلاق الطاعة عليهما ؛ لأن الإرادة غير الأمر ، وقد يريد الله من عبده ما يأمره بضده ، إذ ليست الإرادة الإلهية إلا التخصيص للشيء ببعض مايجوز عليه، لا الأمر به ولا الرضى عن فاعله لتنزه الله تعالى عن الأفاعيل النفسانية ، والميول الطبيعية ، وعلى هذا فالمطيع مثاب والعاصي معاقب .

الثالث: في الرد على من يقول بأن أهل النار يتلذذون فيها .

عزا هذا المعاصر إلى الشيخ الجيلي أيضاً ، أنه ذكر في كتابه « الانسان الكامل » أن أهل النار يتلذذون فيها ، كما يتلذذ أهل الجنة بجنتهم . وهذا بناء منه على النظرية السابقة من أن المطيع والعاصي سواء أمام الحق عز شأنه .

عرضت هذه النحلة على القرآن الكريم، فوجدته يقضي بخلافها ، إذ يقول عز شأنه : (كلما خبت زدناهم سعيراً) [١] . ويقول : (في العذاب هم خالدون) [٢] ويقول : (كلما نضجت جلودهم بدلناهم

(١) الإسراء : ٩٧ .
(٢) المائدة : ٨٠ .

جلوداً غيرها ، ليذوقوا العذاب) [1] . والآيات في هذا المعنى كثيرة جداً ، فمن قال بخلافها فقدعطلها وكفر بها ، وكنت رأيت هذا المعنى في كتاب « الفصوص » وشرحه ، فقد قرر الماتن وتبعه الشارح الجزائري ، أن العذاب ينقلب على أهله عذوبة في النهاية ؛ فهم فيه متلذذون . هـذا والقرآن ناطق بعكس ذلك تماماً ، إذ هو مصرح بالخلود في العذاب لا في العذوبة . وأين هو منها ، الشريعة تقضي على قائل هذا القول بالكفر ، لأنه لم يؤمن بآيات الله تعالى الناطقة بالوعيد على أتمه ، وليس للتأويل فيه مجال ، والتأويل الذي ينبو عنه النظم الكريم مردود على صاحبه .

الرد على من يقول بخروج الكافرين من النار .

ويقرب من هذا الزعم الباطل ، ما يلهج به بعضهم من خروج الكافرين من النار ، وقد أشبع التقي السبكي — وهو من أنصار الصوفية — القول في هذه المسألة (الاعتبار ببقاء الجنة والنار) رد فيها على من قال بخروجهم منها ، أو بفنائها ، وقرر أنها عقيدة كفرية ؛ لمصادمتها الآيات القرآنية ، وخرقها الإجماع المنعقد على خلود الكفرة فيها ، وعدّد الآيات في الخلود لأهل الجنة ، وأهل النار فإذا هي اثنتان وثلاثون آية ، ولعمر الحق إن واحدة منها كافية لحصول اليقين عند المؤمن الموقن .

إني محدثكم بقصة قصيرة وقعت لي ، أثلجت صدري وملأتني

---

(١) النساء : ٥٦ .

مروراً ، وهي محض كرامة لسيدي الشيخ محمـــد سليم خلف[1] قدس سـره .

تلك أنه حدثني بعض الناس ، أنه كان يقول في قوله تعـالى عن أهل النار : (لابثين فيها أحقاباً)[2] : إن هذه الاحقاب تنقضي . وهذا حق ولكن يخلفها غيرها إلى ما لا نهاية له ، ولكنه رحمه الله ، كان يقف عند قوله : تنقضي ، ولا أكتمكم أن هذا النبأ بدأ ينكت في صدري ، إذ القول بالانقضاء دون خلف معارض للآيات المتعلقة بالخلود ، وقـد حصل لي من ذلك كرب عظيم كتمته عنكم ، لحرصي على صحة الاعتقاد في جنابه ، إذ به نفعي إن شاء الله تعالى . ولكن هنا يظهر سر الشيخ قدس سره ، فقد كان الحاج عبد الحميد الرمضان في حماة ، فزارني في غرفتي بالجامع الجديد ، وهو — حفظه الله تعالى — مولع بالشيخ — رضي الله تعالى عنه ، ومشغوف به ، ومحب لذكر كراماته ، فألهمه الله تعالى ، أن يحكي لي حكاية عنه ، فيها نفي لما شوش عليّ خاطري من ذلك الخبر . والحكاية تتلخص : في أنه ذكر أن ريحاً تهب من جهنم ، فتخرج من فيها ، وقد سمع رجل من أهل دمشق هذه الكلمة عن الشيـخ ، فجاء إلى حمص ليسأله عن صحة تكلمه بها ، ولمـا أن حضر حصة الدرس عنده ، كوشف الشيـخ قدس سره بما في نفس الرجل ، فقال بعد انتهاء الحصة : بلغني أن ريحاً تهب من جهنم ، فتخرج من فيها من المؤمنين ،

---

(١) هو والد الشيخ أبي النصر شيـخ سيدي ، قدست أسرارهم جميعاً ، وستأتي ترجمته في الباب الرابع من هذا الكتاب .

(٢) النبـأ : ٢٣ .

فكان هذا القول قاطعاً لشبهة الرجل في أمر الشيخ قدس سره ، كما أنه قاطع لشبهتي ، ولا تسألوا عن فرحي وقتئذ ، فقد كان عظمياً جداً. ويشهد الله أنه لم يتقدم مني ذكر للإشكال أمام الحاج عبد الحميد الرمضان، وإنما هو إلهام من الله تعالى بسر الشيخ قدس سره .

الرابع : في الرد على من يقول بنجاة فرعون .

القول بنجاة فرعون المنسوب إلى الشيخ محيي الدين ، تعلقاً بقوله تعالى — حكاية عنه حين عاين الهلاك وأدركه الغرق — :(آمنت أنه لا إله إلا الذي آمنت به بنو إسرائيل ، وأنا من المسلمين)[1]قال القائلون : ولم يزد الله تعالى في ذلك المقام على أن عاتبه وبكّته بقوله: (آلآن وقد عصيت قبل ، وكنت من المفسدين)[2] الآيات . قالوا ذلك غافلين عن قوله تعالى : (فلم يك ينفعهم إيمانهم لما رأوا بأسنا،سنة الله التي قد خلت في عباده ، وخسر هنالك الكافرون)[3] فإيمانه إيمان يأس غير مقبول .

ثم ماذا يصنعون بقوله تعالى : (وما أمر فرعون برشيد ، يقدم قومه يوم القيامة ، فأوردهم النار وبئس الورد المورود ، وأتبعوا في هذه لعنة ويوم القيامة بئس الرفد المرفود)[4] . أفيقدمهم إلى النار ويوردهم إياها ثم يعود أدراجه إلى الجنة ، ما هذه المهزلة التي يتنزه عنها القرآن!.

(١) يونس : ٩٠ .
(٢) يونس : ٩١ .
(٣) غافر : ٨٥ .
(٤) هود : ٩٩ .

ولئن قالوا : إن رجوعه للنكاية بهم ؛ حيث لم ينجهم منها مع أنهم عبدوه ، قلنا لهم : إنهم إنما كفروا بسببه ، فهو رأسهم في الكفر وكبيرهم في الضلال ، فيتقدم أمامهم إلى النار . على أن الضمير في قوله: (وأتبعوا في هذه لعنة ويوم القيامة) يعود عليهم وعليه ؛ لئلا يلزم تفكيك النظم بتشتيت الضمائر ، والقرآن الفصيح لا يقبل هذا الضعف في التركيب . وماذا يصنعون بقوله تعالى : (فأخذه الله نكال الآخرة والأولى)[1] ! . أليست الأولى هي الدنيا ، والآخرة هي يوم القيامة وما بعده .

على أن هناك آيات أخرى قاطعة لشبهتهم ، وليس بعدها مجال لقائل ولا اجتهاد لمجتهد ، إذا الاجتهاد في موارد النصوص ممنوع ، وليس لله مع أحد كلام فيما قضاه .قال الله تعالى في سورة القصص :(واستكبر هو وجنوده في الأرض بغير الحق ، وظنوا أنهم إلينا لا يرجعون . فأخذناه وجنوده فنبذناهم في اليم ، فانظر كيف كانت عاقبة الظالمين. وجعلناهم أئمة يدعون إلى النار ، ويوم القيامة لا ينصرون .وأتبعناهم في هذه الدنيا لعنة ، ويوم القيامة هم من المقبوحين)[2] . فإذا كان الله تعالى نفى عنهم النصرة يوم القيامة ، ولعنهم في الدنيا وفي الآخرة ، وأخبر أنهم من المقبوحين فيها . إذا كان ذلك كذلك ، فهل بقي شك في كفر فرعون وجنوده ، لا هم وحدهم فقط ؛ لأن الضمائر في الآيات له ولجنوده .

---

(١) النازعات : ٢٥ .

(٢) القصص : ٣٩ — ٤٢ .

إذاً فالقول بنجاة فرعون كفر صريح ، وعن هذا أقسم الشيخ الشعراني في كتابه «اليواقيت والجواهر» بأن هذا القول مدسوس على الشيخ محي الدين ، ومنحول له ، ولم يقل به ، وهذه هي العقيدة الصحيحة المنجية عند الله تعالى . ورضي الله تعالى عن الشعراني الذي دفع عن القوم ، وبين أن كثيراً مما هو في كتبهم دسه الوضاعون فيها، وليس للقوم علم به ، حتى إنه حكم بأن كل ما في الفتوحات والفصوص ، مما يخالف مذهب أهل السنة ، مدسوس على الشيخ . ومثله ما هو منسوب إلى الجيلي من القول بتساوي المطيع والعاصي ، وبانقلاب العذاب عذوبة ، كل هذا كذبه الشعراني ، ونقل عن الشيخ الأكبر القول الصريح بخلود الكفرة في العذاب أبداً دون تخفيف ، كما قال الله تعالى: (فلا يخفف عنهم العذاب ، ولا هم ينصرون)[1] . ويكفي الاعتماد على ما ذكره أيضاً من أن أحد العلماء اليمانيين ، أخبره أن النسخة الأصلية للفتوحات وهي في (قونية) خالية من كل هذه الكفريات ، وهي التي بخط الشيخ محي الدين ، وغيرها من النسخ دخلها التحريف والتبديل .

في مصر الآن رجل من أجلاء أهل السنة ، يشايع الشعراني في قوله : إن كل ما يخالف الشريعة مدسوس على القوم ، ويكفيني الاعتماد على ما ذكره الشعراني ، فهو عالم بطريق القوم وخبير به ، وتصوفه يتمشى مع العلم دون خروج عليه ، لا أستطيع غير هذا من حيث إني آمنت بالقرآن ، ولا يسعني أن أسلم ما يضاده ، إذ هو جمع بين الضدين، وهو مستحيل قطعاً ، والله تعالى سائلي عن عقيدتي ، فبمَ أجيبه

---

(١) البقرة : ٨٨ .

لو جمعت إلى الايمان بكتابه التسليم بهذه الكفريات ، التي أ كفر إن لم أحكم بكفر قائليها ؟ لأن الله حكم بكفر الكافرين ، ومن زعمهم مؤمنين فقد كفر ، والفقهاء مقررون أن الشك في كفر الكافرين كفر.

على أن القوم ، قرروا بأن طريقهم محكم البناء ، على أسس الكتاب والسنة ، وأن كل حقيقة خالفت الشريعة فهي زندقة ، وهاهو مولانا خالد قدس سره ،كان يوصي المريدين في مرض موته بالتزام عقيدة الأشعري ، إذ هي المعتمدة عند أهل السنة . إذاً : فلم أتعد الحدود ولم أتجانف لإثم ، إذا أبطلت ما أبطل القوم أنفسهم . أما التسليم للسادات فيما يقولونه عن المقامات ، والأحوال ، والواردات ، والأمور الغيبية والكشفية ، مما لاتعترضه الشريعة ، فأنا مؤمن به كل الايمان، وحاشاهم أن يكذبوا في دعاويهم . أما تلك الطامات فهم بريئون منها ، وإن وجدت في كتبهم ، فهي من غيرهم ، على هذا ألقى الله تعالى .

الخامس : في الرد على من قال بوحدة الوجود .

وقد فسرها بعض الناس عنهم : بأن هذا الكون ، بحيواناته ، وجماداته ، مجموعةإلهية ، والله تعالى هو روح لها، وهذا كفر قطعاً ، إذهو الحلول الذي يتبرأ منه المؤمنون ، ويقضون بأنه كفر ، وأهل التصوف في عصرنا ، يفسرون وحدة الوجود بوحدة الشهود [١]، وهذا المعنى لابأس به، أما على التفسير الأول فهوالممنوع.

أما المنظومات والمنثورات التي رأيتها في الحلول ، فشيء كثير، وإن كان الكثير من الصوفية يحيلها على معنى الفناء وما إليه . علىأن

(١) أي أن الصوفي يغيب عن العالم فلا يشهد إلا الله سبحانه .

هناك جملة منسوبة إلى صاحب كتاب « الانسان الكامل » محصلها: أن النصارى إنما كفروا لحصرهم الإشراق في المسيح وأمه عليهما السلام، فقد كفروا بهذا الحصر، وخرجوا عن زمرة الموحدين القائلين بالشيوع، وهذا القول كفر مهما قلبت فيه وجوه التأويل، ولا مخلص إلا بالحكم بأن هذه الجملة مدسوسة عليه أيضاً، لأنه عارف لا يقول إلا ما يلتئم والشريعة المطهرة، كيف وهو في كثير من مواقفه في كتابه يتكلم بالحق المبين الذي لا شائبة فيه ولا غبار عليه، وإذا كان النصارى كفروا بدعواهم الحلول في اثنين أو ثلاثة، أفلا يكون القول بالحلول في الجميع كفراً ؟ ! .

هذا – ياسيدي – ما يحوك في نفسي، حدثتكم به، لئلا أخفي عليكم شيئاً من شأني. وإني – والله – لولا أمران بهما بقاء نسبتي إلى الطريق، ولولاهما لم يعد لي فيه أدنى ارتباط إلا من حيث الذكر المأمور به في كتاب الله تعالى، لأن هذه المكفّرات لا يسكت عنها .

الأمر الأول : ما رأيته في كتاب «الإحياء» و كتاب «عوارف المعارف» « والرسالة القشيرية» وكلمات ساداتنا النقشبندية والرفاعية، وكلام سيدي الشيخ عبد القادر الكيلاني، وسيدي الشيخ أحمد الرفاعي وأمثالها و كتب الشعراني، كل هؤلاء أتوا بالكثير الطيب الذي بعث الله تعالى سيدنا محمداً ﷺ، فهم قد أظهروا التصوف بثوب شرعي جميل، لا يعترض عليه إلا كل أحمق ناقص العقل، قاصر النظر، قليل الفهم للدين على حقيقته .

الأمر الثاني : محبتي إياكم، فوجهكم الكريم الذي يميتني

ويحييني ؛ به تعلقي بالطريق ونسبتي إليه ، ووالله إني لم أهوَ في الناس مثلكم بعد الجناب الأعظم وصحابته الميامين الغر ، رضي الله تعالى عنهم وصلى الله تعالى على سيدهم ، ومهما كان في مصر شيوخ ، فأين هم منكم ؟ ماء ولا كصدّاء ، ومرعى ولا كالسعدان[1]. وأين النجوم من الشمس المشرقة ؟ إني معترف بأني ذو تقصير في العمل ، بل أكاد أكون خلياً منه، ولكني بنعمة الله ، ثم بنظركم الشريف قائم على حماية العقيدة التي هي أساس الفلاح ، ولا يمكنني بحال من الأحوال ، أن أسوغ ما ينقضها ولو من وجه بعيد ».

انتهى كلامه - رحمه الله تعالى - ، وقد ختم رسالته بعد التحيات بقصيدة يشكو فيها إلى الله همه وغربته، ويتوسل بالنبي ﷺ ، سننشرها، إن شاء الله في مكان آخر من الكتاب ، وكان تاريخ هذه الرسالة الكريمة يوم الجمعة لست بقين من صفر سنة ١٣٥٨ هـ .

المجاهدات والمكابدات

ولا بد لي قبل أن أختم بحث الذكر، من أن أنبه الذاكرين إلى ضرورة مجاهدة أنفسهم ، وتنقية قلوبهم قبل تحليتها بالذكر . والفلاح

(١) صداء : بئر لم يكن عندهم ماء أعذب منها . السعدان : نبت وهو من أفضل مرعى الإبل . وفي مجمع الأمثال السعدان : أخثر العشب لبناً ، وإذا خثر لبن الراعية ، كان أفضل ما يكون وأطيب وأدسم . يضرب مثلاً للشيء يفضل على أقرانه وأشكاله .

منوط بتزكية النفس ، قال تعالى : (قد أفلح من زكاها ، وقد خاب من دساها)[1] . وإلى هذا أشار الشيخ بهاء الدين النقشبندي - رحمه الله تعالى - بقوله : « لا يتمكن من الوصول إلى حب أهل الله إلا من خرج عن نفسه . . إ هـ »[2] . وفصَّل سبب ذلك الإمام السرهندي الرباني - رحمه الله تعالى - ، فقال : « اعلم أن أصل كل بلاء ، إنما يكون من الابتلاء بالنفس ، ومتى تخلص الانسان منها ، تخلص من الابتلاء بما سواه تعالى ، فإن كان يعبد الأصنام فإنما يعبد نفسه في الحقيقة : (أرأيت الذي اتخذ إلهه هواه)[3] . خلِّ نفسك وتعال . وكما أن الخروج عن النفس والمرور عنها فرض ، كذلك الدخول إليها والغوص فيها لازم ، فإن الوجدان إنما يكون فيها ولا يكون في الخارج عنها ، السير الآفاقي بعدٌ في بعد ، والسير الأنفسي قرب في قرب ، فإن كان هناك شهود ففي النفس ، أو معرفة فكذلك ، أو حيرة فكذلك ، وليس في خارج النفس موضع قدم ، فخالي الذهن يفهم الحلول والاتحاد من هنا ، ويقع في ورطة الضلال إذ الحلول والاتحاد كفر »[4] .

وقال رضي الله تعالى عنه أيضاً : « لا يقبلون هناك إلا سلامة القلب ، وخلاص الروح ، ونحن هنا دائماً في تحصيل أسباب ابتلائها ،

---

(١) الشمس : ١٠ .
(٢) الأنوار القدسية .
(٣) الفرقان : ٤٣ .
(٤) الأنوار القدسية .

هيهات هيهات : (وماظلمهم الله ، ولكن كانوا أنفسهم يظلمون)[١] .. إهـ»[٢] .

وقد بين سيدي – رحمه الله تعالى – ضرورة تزكية النفس بقوله :

« تزكية النفس واجبة على كل مكلف ، وإن الفلاح منوط بهذه التزكية ، فتطهير النفوس من العيوب الاختيارية الظاهرة والباطنة فرض، وجهادها حتم ، حتى يسلس قيادها، ويلين جماحها، وتستقيم على أمر الله سبحانه وتعالى . وطريق التزكية هو الأخذ بالأوامر ، واجتناب المناهي، طبق مانطق به الكتاب الكريم، ومادلت عليه السنة الشريفة، ولا بد من اجتياز عقبات ، وذوق مرارات ، واحتمال مكابدات، لأن جهاد النفس أشد جهاد ، فهي كلما ظن صاحبها بها خيراً ، إذا بها تنفلت انفلاتاً ، وتشرد شروداً، يتبين منها أنها ماتزال في الطريق، وأنها ماتصل إلى الغاية بعدُ . فالحذر الحذر ، والانتباه الانتباه ، والاتهام لها حتى تزكو ، شأن العارفين بدخائلها والمشرفين على دفائنها ، بأعين نقادة بصيرة . ولا بد من علم للمجاهد نفسه بطريق التزكية ، وقد كشف عنها علماء التربية النفسية العارفون بالله ، وأجمع كتاب في هذا العلم هو كتاب « إحياء علوم الدين » للإمام الغزّالي حجة الاسلام – رحمه الله تعالى – ، إن المرء إذا قرأه مطبقاً لما رسم فيه – إلا مواضع قليلة استثناها العلماء منه – كان مفلحاً ، وكان سالكاً سبيل التصفية المفضية إلى أفضل النتائج . . إهـ »[٣] .

---

(١) النمل : ٣٣ .

(٢) الأنوار القدسية .

(٣) من الرسائل المحفوظة .

ثانيـًا - الشّيخ المرشِـدُ

وهو الدعامة الثانية التي يقوم عليها صرح التصوف[١] ، ولا بـد لكل من أراد سلوك الطريق من شيخ يدله عليه ويرشده إليه ، يضـع له العلامات وينبهه إلى المزالق والمخاطر ، يبين له الدسم ويبعده عن السم ، يستمع إلى أقواله ويتلقى من أحواله .

قال سيدي - رحمه الله تعالى - يبيّن أهمية الشيخ المرشد :

« ومن حيث إن الانسان جاهل إلا مَنْ علمه الله تعالى ، كان الشيخ المرشد العارف بالله تعالى ، والبصير بطريق الوصول إليه ، أصلًا في الطريق لا يهمل ، ولا يتغاضى عنه كدليل مرافق ، ورفيق موافق ، والله سبحانه وتعالى هو الهادي إلى سواء السبيل . وليس للشيخ إلا الدلالة بالقول والفعل ، وبالحال الصالحة التي تسري بالتوجه السليم من روحـه إلى روح المريد السالك في الطريق ، ولا نكران لسريان الحال ، فإنا نرى الحماسة والحزن والفرح ، نرى كل هـذه وأمثالها ، تسري من نفس إلى نفس ومن قلب إلى قلب . . إ هـ »[٢] .

وقال أيضاً :

« وليست الطريقة إلا العمل بالاسلام على قدم الجـــد والصبر ، وأركانها هي : الذكر ، والبعد عن الناس قدر الإمكان ، والصمت إلا

---

(١) بينا أن الدعامة الأولى هي الذكر .
(٢) من الرسائل المحفوظة .

عن خير ، وعدم الإمعان في الشبع ، وقيام شيء من الليل ، وصحبة الشيخ المرشد الكامل ، جسداً وروحاً ، وإن افترقت الأبدان فالصحبة الروحية قائمة . . إهـ »[١] .

وكتب – رحمه الله تعالى – إلى بعض تلاميذه ، يبين علاقته الروحية به رغم بعده عنه :

« الأرواح يحاضر بعضها بعضاً ، وتتجاذب على القرب والبعد جميعاً ، بل قد يكون البعد أمتع ، وعن الانحراف أمنع ، فإن الشوق حارس الأفئدة من التحول ، وباعثها على التعلق ، فيكون التآخي في الله قوياً سوياً ومجيداً ومديداً معاً . . إهـ »[٢].

وفي بيان فوائد صحبة المرشد الكامل ، قال رحمه الله تعالى :

« صحبة المرشد الكامل – وهو أندر من الكبريت الأحمر في هذا الزمان – مصححة للتصورات والأعمال ، ومطهرة للقلب من الرعونات والأوضار ، وملحقة للقاصر بالكامل ، حتى يدرج في دائرة الولاية . . إهـ» .

ضرورة صحبة المرشد .

وفي نصيحه إلى الشباب ، بين ضرورة صحبة المرشد ، فقال :

« السير بدون مرشد عالم ، قد لا يفضي إلى الغاية المرجوة ، فلا بد لكم منه ، وكما لا يكون المرء طبيباً بمطالعة الكتب فقط ، دون أن يدخل دور الطب الرسمية ، ثم بعد النجاح في الامتحان ، يعمل في المشافي

---

(١) من الرسائل المحفوظة .

(٢) من الرسائل المحفوظة .

تحت نظر الأطباء ؛ كما لا يكون الطبيب طبيباً إلا بهذا ، لا يكون السير إلى الله تعالى مضمون النتائج ؛ إلا بصحبة عالم تقي نقي ورع ، قد تربى بصحبة غيره . وغيره بغيره ، وهكذا إلى أن ينتهي الأمر إلى السيد الأعظم ، حضرة سيدنا رسول الله صلى الله تعالى عليه وآله وسلم . . إهـ » .

تعريف المرشد الكامل .

وفي تعريف المرشد الكامل قال - رحمه الله - :

والمرشد الكامل ، هو العالم العامل ، ذو الحال الصالحة القوية ، التي إذا توجه بها إلى مريده ، نقله من حال إلى حال ، ورقى به من مقام ، إلى مقام ، مع الاستعانة بالصبر والصلاة والذكر والفكر ، والمجاهدة والمكابدة . . إهـ »

شروط المرشد .

١ - **الاجازة بالارشاد** : بين - رحمه الله - هذا الشرط في قوله : « وهذا المرشد ، شرطه أن يكون تربى على يد مرشد مثله ، حتى نضج علماً وحالاً وكمالاً وقوة إفاضة ، فأجازه بالإرشاد ، وهكذا حتى تتصل الطريق بإجازة شيخ عن شيخ إلى حضرة سيدنا رسول الله صلى الله تعالى عليه وآله وسلم . ولا بد لهذا المرشد ، من أن يكون قد اجتاز العقبات ، وتخلص من العيوب عيباً فعيباً ، وارتقى مقاماً فمقاماً ، حتى قعد مقعد الكمال ، فهو بصير بما يعتري السالك وله من قوة توجهه القلبي ما يدرأ به عنه الأخطار إن شاء الله تبارك وتعالى . من ظفر بهذا المرشد ، فليشد يده عليه ، وليكن له سامعاً مطيعاً ، فإنه

الطبيب النفسي الذي تجب الرحلة إليه ، والجلوس بين يديه[1] » .

٢ - **العلم الواسع والعمل بالعلم** : وفي رسالة أخرى ، تحدث - رحمه الله - أيضاً عن شروط الشيخ المرشد مؤكداً على هذا الشرط فقال : « وللشيخ المرشد الكامل في الطريقة شروط كثيرة ، أهمها ؛ أن يكون عالماً واسع العلم ؛ لئلا يميل في السير إلى غير الاستقامة ، فيميل المريد بميله ، فيكون ضالاً مضلاً ، ومن كان كذلك ، فهو بعيد عن الإرشاد كل البعد . والعلم الديني يعم علم العقائد ، وعلم الأحكام في العبادات والمعاملات ، وعلم أحوال القلب وأمراضه المعنوية ، والسبيل إلى تخليصه منها بمعالجته بالإفاضة الروحية الصحيحة والتوجه القلبي القوي. ويشترط مع علمه الجم الغزير ، أن يكون عاملاً به ، فإن القدوة بالعامل أكثر منها بالعالم عند الجماهير ، وعند المبتدئين من المريدين أيضاً ، وليكن عمله متجلياً طبق الشريعة ، فلا يأذن للحال التي تغشاه ومريديه بأن تتأمر عليه وعليهم إن كانت مخالفة لقواعد الشريعة ، أو لركائز الأعمال . ويشترط فيه أن يكون تربى على يد مرشد كامل ، قد تربى على يد مرشد كامل ، وهكذا إلى حضرة سيدنا محمد رسول الله صلى الله تعالى عليه وآله وسلم تسليماً ، وهو كما نوقن ، سيد المرسلين ، وخاتم النبيين ، ومرشد المرشدين ، ويشترط مع هذه التربية ، أن يكون مأذوناً له بالإرشاد ، ومجازاً إجازة صحيحة من شيخه الذي رباه ، حتى تكمل على يده . . إ هـ »[2] .

---

(١) من الرسائل المحفوظة .
(٢) من الرسائل المحفوظة .

٣ ــ الترفع عن مال المريد : وزاد في مكان آخر ، فقال ــ رحمه الله تعالى ــ : « ويتأكد عليه الترفع عن مال المريد ، فإن أكل الدنيا بالدين حرام ؛ إلا إذا كان إهداءً عن طيب نفس ، وخلوص نية ، وبعد عن الاغترار . . إ هـ »(١) .

٤ ــ المرشد ليس معصوماً : ومع كل هذا ، فالمرشد ليس معصوماً ، لأن العصمة لا تكون لغير الأنبياء عليهم الصلاة والسلام ، ومن هنا تكون صحبة الشيخ المرشد شاقة ، وقد بين ــ رحمه الله تعالى ــ هذا المعنى فقال :

« وإن صحبة الشيخ المرشد ، قد تكون شاقة لمن لم يرزق الاستسلام له ، وقد قص الله تعالى علينا من نبأ موسى والخضر على نبينا وعليهما الصلاة والسلام ، ما فيه إشارة إلى هذا . وليكن على بال المريد أن المرشد ليس نبياً معصوماً ، فقد يجري عليه ما يجري على غيره من القضاء والقدر ، لكنه سريع الأوبة ، وشيك التوبة ، وإنها لتغسل الحوبة .

وقد وقع بعض الشيوخ فيما صورته المخالفة ، وكان ذلك امتحاناً منه لمريديه ، فتغير بعضهم وثبت غيره ، فقال للذي ثبت : لمَ لمْ تتغير كما تغير أصحابك؟ فقال : ما صحبتك على أنك معصوم ، ولكن صحبتك على أنك أعرف بطريق الله مني . . إ هـ »(٢) .

---

(١) من الرسائل المحفوظة .

(٢) من الرسائل المحفوظة .

ولعل مولانا خالداً - رحمه الله تعالى - قصد إلى هـذا المعنى بقوله: « وكما يجب التحرز عن إنكار الأولياء، يجب التحرز عن الغلو في الاعتقاد بهم، بحيث يؤدي إلى خلل في فرض العقيدة، وهذا كثير من المفرطين في حسن الظن بالأولياء، والشيطان ذو مكر ومكيدة، وإذا أراد الله بأحد أن يأخذ حظاً من فيض شيخ، يظهر عليه كمال ذلك الشيخ فوق ما هو فيه . . إ هـ »[1] .

٥ - **الاخلاص** : ولقد لخص السيد الكبير الشيخ أحمد الرفاعي - رحمه الله تعالى - أهم صفات الشيخ المرشد بقوله: « كم طيّرت طقطقة النعال حول الرجال من رأس! وكم أذهبت من دين! والرجل من جمع الناس على الله لا على نفسه، وجذبهم إلى الله لا إلى نفسه، وبقي قلبه عنهم بمعزل، وهو ذاك الفارس البطل . . إ هـ »[2] .

المرشد الكامل نادر في هذا الزمن

ويرى سيدي - رحمه الله - أن المرشد الكامل الذي تتوافر فيه هذه الشروط، قد ندر في هذا الزمان، حتى إنه كما قال - رحمه الله تعالى - : لأندر من الكبريت الأحمر. وفي هذه الحالة ينصح بتلقي الذكر عن شيخ سماه رحمه الله (**شيخ بركة**). قال رحمه الله تعالى:

« المرشد: إما أن يكون كاملاً، ذا مدد روحي عظيم، ومعرفة قلبية بمراحل الطريقة، وهذا من شرطه: العلم الواسع، والتحقيق

---

(١) الأنوار القدسية .
(٢) البوارق .

العميق ، والمعرفة الغزيرة ، كشيخنا الشيخ محمد أبي النصر النقشبندي قدس سره . وإما أن يكون شيخ بركة ، يلقن الذكر كما تلقنه من ، شيخه ، وهذا يصار إليه حتى الظفر بالمرشد الكامل ؛ لكن من شرطه أيضاً ، أن يكون على علم واطلاع ، حتى لا يضل مريده ، فينعكس المشروع ، وينقلب الموضوع . أما الأمي الجاهل ، فلا يسوغ له مطلقاً دعوى الشيخوخة في الطريق ، لأن ما يفسده أكثر بكثير مما يصلحه . . إ هـ »[1] .

الصلاة على النبي تقوم مقام المرشد عند فقده .

وينصح أيضاً عند فقد المرشد ، فيقول :

« وخير ما يحسن في هذا الزمان إن لم يكن ظفر بالمرشد الكامل ، هو الإكثار من الصلاة والسلام على سيدنا رسول الله صلى الله تعالى عليه وآله ؛ ثم هبة الثواب له وللمؤمنين عموماً . إن هذه الصلاة ذكر لله سبحانه صحيح ، مقبول ، تعيد على صاحبها بركات الرسول ﷺ ؛ فإنه عليه وآله الصلاة والسلام ما زال مربياً لمن يحبه من أمته حباً صادقاً امتثالياً ، وتزكيته للمؤمنين مستمرة إلى ما شاء الله ، إلى نهاية هذه الدنيا ، فإنه الكامل المكمّل ، وإن الأصفياء يحسون آثار هذه التربية تمام الإحساس ، وقد ذكر علماء التصفية : أن الصلاة عليه صلى الله تعالى عليه وآله وسلم موصلة إلى الله تعالى عند فقد المرشد الكامل . . إ هـ »[2] .

وبين ـ رحمه الله تعالى ـ لأحد تلاميذه وهو ينصحه آثار الإكثار

---

(١) من الرسائل المحفوظة .
(٢) من الرسائل المحفوظة .

من الصلاة عليه صلى الله عليه وآله وسلم ، فقال : « إنها برد وسلام على القلب ، وإنها لتقود إلى محاسن الأخلاق، ومكارم الشيم ، وتعود بأجلّ البركات . ولتكن بأعداد كثيرة ، وليتخذها مثلك ورداً إلى ورده، ومراحاً إلى مراحه ، وأهْدِ الثواب إلى حضرة المصلى عليه ، صلوات الله تعالى وتسليماته عليه وعلى آله . . إ هـ »[١] .

الكرامات

عرف الجرجاني في « التعريفات » الكرامة ، فقال : « هي ظهور أمر خارق للعادة من قبل شخص غير مقارن لدعوى النبوة ، فما لا يكون مقروناً بالايمان والعمل الصالح يكون استدراجاً ،ومايكون مقروناً بدعوى النبوة يكون معجزة . . إ هـ »[٢] .

ولقد ظهر لنا في بحث شروط المرشد، أن ظهور خوارق العادات على يديه ليس شرطاً من شروط الإرشاد، وإنما الشرط الأساسي تمسكه بالكتاب والسنة : علماً ، وعملاً. قال السيد أحمد الرفاعي — رحمه الله تعالى — : « وأشرف الكرامات مازادك انسلاخاً من أنانيتك ، وحجبك عن رؤية نفسك . وأجل النعم ، ما قطعك عنك ، ودلك على ربك . . إ هـ »[٣] .

---

(١) من الرسائل المحفوظة .
(٢) التعريفات .
(٣) بوارق الحقائق .

ومن كلمات القوم المشهورة بينهم : **«الاستقامة عين الكرامة»** والكلمة السائدة عند أهل السير إلى الله تعالى : « **لو رأيتم رجلاً أعطي من الكرامة حتى تربع في الهواء، فلا تغتروا به حتى تنظروا كيف وقوفه عند حدود الله عز وجل . . إ هـ** » وأعظم علامات الولاية ، الاستقامة على أمر الله سبحانه وتعالى ، والولي إذا خلق الله تعالى على يديه بعض خوارق العادات بدون ميل منه ولا قصد ، لا يفرح بها ولا ينظر إليها ، وإنما فرحه يكون بالمكرم لا بالكرامة .

وما أجمل قول الشيخ الرواس - رحمه الله تعالى - في هذا الموضوع : « ولزم عدم الالتفات إليها ؛ لكيلا يشتغل العبد بالكرامة عن المكرم ، وإن تحولت النسبة فقيل كرامة فلان ، وقبلها الرجل الذي تنسب إليه ، فقد أطعم نفسه السم القاتل ، ونادى عليه بالحرمان، وعلى هذا فعدم الالتفات للكرامة أولى، هذا مع إعظام شأن الكرامة وشكر الله تعالى عليها شكراً عظيماً ؛ على أنها من عظائم النعم ومن أجلّ الاختصاص ، والله سبحانه وتعالى يختص برحمته من يشاء والله ذو الفضل العظيم . . إ هـ »[1] .

ولهذا كان سيدي - رحمه الله - يستر كراماته لأن نظره الشريف ، كان مقصوراً على المكرم ، وليس للكرامة فيه نصيب ، ولأنه كان يعلم أن أعظم تكريم منّ الله به عليه ؛ هو توفيقه له إلى الاستقامة الكاملة على نهجه وشرعه ، وسنة نبيه صلى الله عليه وآله وسلم،

---

(١) بوارق الحقائق .

استقامة أجمع عليها أعداؤه فضلاً عن أحبابه وتلاميذه ، ولقد مكن الله تعالى له في القلوب تمكيناً لم يحتج معه إلى إظهار خوارق العادات ، كما يفعله بعض الشيوخ لتقوية اعتقاد المريدين بهم . ورغم شدة تستره ، فإن بعض كراماته ظهرت ، وفاحت وانتشرت انتشار الطيب من حامله . وأعظمها انتشاراً ، هذه التي عرفها القاصي والداني والقريب والبعيد ، وأعني بها شفاء الله تعالى للأمراض ببركة دعائه ، أو ببركة الحُجب التي كان يكتبها بيده الشريفة ، وإن في حماة لكثيراً من الذين ينعمون بالصحة والعافية من الله تعالى؛ ببركة حجاب يحملونه كتبته اليد الطيبة المباركة ، وإن فيهم من طوّف الأرض بحثاً عن الشفاء حتى وصل إلى أقاصي أوربا،فلم يخلقه الله تعالى ، حتى باركته اليدالطاهرة ، وتوجه إلى الله لشفائه القلب الكبير .

الطريق

وبعد هذه الجولة في معية سيدي رحمة الله تعالى عليه ، في رحاب التصوف ، وفي بيان حقائقه ودخائله ، أعود معه — رحمه الله — ليحدثنا عن الطريق الذي سلكه ، وشيخه ومرشده الذي سلك على يديه . ولنستمع إليه رحمه الله تعالى — يقول :

« إني منتسب إلى السادة الصوفية ، على أصول الطريقةالنقشبندية العلية ، التي تلقنتها من أستاذي العارف بالله تعالى ، سيدي الشيخ محمد أبي النصر الحمصي ، المرشد الشهير والعالم الكبير ، الذي كان يعلن براءته

من كل من يخالف السنة الشريفة ، وإني سائر بمن يتلقنها مني على صراط الشريعة الاسلامية ، فلا أسمح ببدعة تدخل عليهم ؛لا في الاعتقاد ولا في العمل،وليست الطريقة إلاالعمل بالاسلام على قدم الجد والصبر.. إهـ»[1]

وقال ــ رحمه الله تعالى ــ أيضاً في جواب سائل : « المرشد الكامل في هذا الزمان قد ندر ، حتى إنه لأندر من الكبريت الأحمر ، وقد أظفرني الله به ــ والحمد لله تعالى ــ فتلقيت عنه ، وهو سيدي الشيخ محمد أبو النصر النقشبندي الحمصي ـ رحمه الله تعالى ، وقد كان قبل وفاته يتردد إلى مدينة حلب لتربية مريديه ،ولا يزال أتباعه إلى الآن متواورين فيها ، يرأسهم ولده سيدي الشيخ عبد الباسط ، ويقيمون الختم الشريف عقب صلاة الجمعة في جامع العثمانية قرب باب النصر ، فاجتمعْ به وتلقَّ عنه . وطريقتنا النقشبندية ، خالية من البدع السيئة ؛ وأهلها يذكرون الله بقلوبهم ، وليس هناك حركات ، إلا حين تغلبهم الحال ، فيضطربون من قوة الواردات على قلوبهم ، وهذه الواردات لها حلاوتها وطلاوتها ، يفيضها الله عز وجل على قلوب الذاكرين له سبحانه . . »[2] .

وفي رسالة من رسائله التي أرسلها من مصر إلى شيخه ومرشده ، قال ــ رحمه الله تعالى ــ :

« ما أنفس الطريقة العلية ، وما أعز جوهرها ، وأعلا قدرها ، إني عاشق لها ولأهليها ، ويريد الشياطين أن يغتالوني عنها ، والله هو المستعان عليهم . ومما يزيدني تعلقاً بالطريق ، عظم الحب لكم ، وشدة

(١) من الرسائل المكتوبة .
(٢) من الرسائل المكتوبة .

التعلق بكم ، فأنتم في سويداء الفؤاد ، وحبة القلب ، وعسى أن ينفعني الله تعالى بهذا الوجد ، وهذا التعلق ؛ فيطهّر سري وضميري ، بتوجه قلبكم الطاهر ، وسركم العامر ، ونفسكم العاطر . . إ هـ»[1]

هذا التعلق العظيم لسيدي — رحمه الله تعالى — بالطريقة ، وشيخ الطريقة — رحمه الله تعالى — لا يستطيع أن يعبر عنه أحد سوى سيدي — رحمه الله تعالى — ، ومن يطالع رسائل مصر[2] ، يوقن أنه لا يوجد في عصرنا هذا حب ، يوازي هذا الحب : رفعة وسمواً وطهراً . ومما كتبه في إحدى رسائله : « تذكرني الحال التي أنا عليها بقول مجنون ليلى :

أراني إذا صليتُ يممتُ نحوها بوجهي ، ولو كان المصلّى ورائيا
وما بي إشراكٌ ، ولكن حبّها وفرطَ الهوى ، أعيا الطبيب المداويا

وما أحراني أن أنسج على منواله ، فأنشد ، وأقول :

أصلي فتسري الروحُ نحوهما كمُو وللقلب في ذاك الجناب ولُوعُ
وكيف بصبٍّ أن يطيق تصبراً وقلب به يشكو الجوى ويذيع
أياسادتي إن المشوق — وحقكم — له كبد حرّى بكم وضلوعُ

وفي مكان آخر قال — رحمه الله تعالى — :

سرينا إليكم في الدجى وقلوبُنا إلى ربعكم يا سيدي تتشوقُ
وإن الذي يهوى لفي الشوق دائماً ونارُ الهوى في صادق الحب تحرقُ
ألا ليت شعري كيف حظيَ منكم وهل من رضىً أم هل لديكم ترفقُ

---

(١) من رسائل مصر .
(٢) أرجو من الله تعالى أن يوفقني لنشرها في كتاب مستقل .

وهل لي أن أحظى بنيل وِصالكم فوالله إني من جفاكم لأفرقُ
وحاشاكم أن تطردوني وعندكم بحار النَّدى في حيكم تتدفقُ
أمولاي أنت الشمس يسطع نورها وللشمس في وسط السماء تألقُ
بكم هُدي الحيرانُ وانزاح غيهبٌ من الشك لما أن رأى النور يشرقُ
وإن كان لم يبصرك من هو أكمهٌ وأقدامه في هوة السوء تزلق
فشمس الضحى قد لا يراها أخو العمى ولا يشهد الزهر الذي هو مونقُ
أيا عاذلاً في حبهم وهو جاهلٌ لعذلك لا ينصاع من هو يعشق
وعذل عذولي لا أريد سماعه وإن هو إلا باطل وملفّقُ
أحباي أنتم في فؤادي وحبكم جرى في دمي والقلب فيكم معلقُ

وفي رسالة أخرى قدم قصيدته ، فقال - رحمه الله تعالى - :

« وقد تطفلت على مقامكم العالي الكريم بهذه الأبيات، فإن قبلتموها ففضل منكم ، وإن كان غير ذلك فلا ريبة - والله - في أنه عدل :

خذوني إلى حمص فإني متيم وسيروا إلى أرض بها الصب مُغْرمُ
لقد عظم الشوق المبرّح بعدما تراءى لنفسي منه صابٌ وعلقمُ
ألا إن لي في حمص قلباً معذباً فهل لي بها قلب يرقُ ويرحمُ
حنانيكمو يا أهل ودي فإنني ضعيفٌ وأشواقي تزيد وتعظمُ
بكم هام قلبي وانثنى اللوم راجعاً ولاحي الذي يهوى أذلُ وأظلم
يؤرقني في الليل وجدي وفي الحشا لهيبٌ وكيف النومُ والنار تضرمُ
وكيف مقام الصّبِّ بعد فراقكم وكيف سلوٌّ عنكم وتلوّمُ

أيا سيدي لي فيك أعظم حاجة ... وواديك يجري بالندى وهو مفعمُ
وأنت قديماً محسنٌ ومؤملٌ ... وإنك من قطعي أجل وأكرمُ
أرجّيك للداء الدويّ بأضلعي ... ففي حلبة الإرشاد أنت مقدّمُ
وأنت طبيب للقلوب وحسبكم ... وراثة مَنْ عند الإله معظَّمُ
وإني لراج عطفة من جنابكم ... وظني أني عطفكم لست أحرمُ

وعلى ضفاف النيل ،قال – رحمه الله –:

«خرجت ليلة إلى النيل بعدأن طالعت دروسي،وكان القمربدراً فتجلى لي جمال الكون ، وأنست بمشهده ، وكانت ذكراكم تتردد في أعماق قلبي وقرارة نفسي ، فابتدأت بنظم أبيات ، أحببت أن أعرضها عليكم ، وهي ثمرة التعلق العظيم بجنابكم ، وهي :

آه مما تلقى سويدا فؤادي ... من غرام محرق وقّادِ
قد ألح الوجد المبرح في القلب وتاقت روحي لأهل ودادي
وتهافتُ مدنفاً من هواهم ... والهوى قد يذيب قلب الجمادِ
آه من مهجتي ومن حر قلبي ... زاد وجدي في يقظتي ورقادي
إن تراءوا للروح في النوم أصبحت وأنسي وفرحتي في ازدياد
أوأتاني منهم لطيف خطاب ... عظمت منهمُ لديّ الأيادي
ذاك شأني شغلي بهم مستمر ... فهمُ منيتي وأقصى مرادي
يا أهيل الوفا تحية قلب ... قلّبته نار الجوى والبعادِ
إن هجرتم ففي حناياه باكٍ ... أو وصلتم ففي الجوانح شادي
إيه يا حمص ياحبيبة روحي ... أنا للكرع من مياهك صادي

كم تركت العشاق ذهلا حيارى ولكم فتّت من أكبادِ
فيك ترعى القلوب مؤتنسات يا إمام الهدى وداعي الرشادِ
يا سليم الجنان وابن سليم شيخ أهل الصلاح والعبّاد
أنا – والله – في اشتياق إليكم قد ملكتم أعنتي وقيادي
يا إمامي ويا حياتي وروحي إن حُبّيك ما له من نفادِ
(إن يوماً أرى محياك فيه لهو عيد من أجمل الاعيادِ)
أتراني أنساك يا نور عيني كيف أنسى ومهجتي في اتقادِ
أنا ما حلت عن ولوعي فيكم وارتباطي بكم وحسن اعتقادي
ليت شعري متى تعود الليالي عامرات بالذكر والإنشادِ
في حمى سيدي اجل ووليّي في الحياة الدنيا ويوم التنادي
الإمام السامي الجناب المعلّى زين جمع الأبدال والأوتادِ
لو تراه ترى سناً وسناءً وبهاءً ورفعة في العمادِ
إن ذكري إياه يحلو لقلبي ولساني ولو على الترداد
أسأل الله أن يقرب يوماً فيه أحظى به بعَيْد انفرادي
وصلاة الإله تهدى دواماً للنبي الكريم أشرف هادي

ويستبد بقلبه الحب والشوق فيكتب قائلًا :

« أيْ سدي أي عبارة تطاوعني على أن أملأها بما احس به نحوكم من إخلاص ووفاء ، ألا فلكم مني الإخلاص كله ، والوفاء كله ، والحب كله ، والهيام كله ، والله إنكم لأشهى إلى قلبي من الماء البارد على الظمأ ، وأحب إلى نفسي من إخوتي وأولادهم ؛ بل ومن أبي وأمي ،

بل نفسي لك فداء يا روح الروح، ويا قلب القلب ، ويا شيخي الاوحد، ومرشدي الفرد ، وقائدي إلى منازل أهل القرب . . إ هـ»[1].

فمن هو هذا الشيخ العظيم أبو النصر ، الذي احتل هذه المكانة في قلب سيدي – رحمه الله تعالى –؟ ولولم يكن شيخاً عظيماً ومرشداً كبيراً، لما احتل هذه المكانة العالية عند سيدي – رحمه الله تعالى – ، ولا يعرف الفضل لأهله إلا ذووه ، وما رأيت أحداً أعرف بالرجال من سيدي، رحمه الله تعالى .

وما هي الطريقة النقشبندية التي وصلت سيدي بمرشده الكبير ؟ ومن هم رجالها وأعلامها ؟ وكيف يكون السلوك بها ، والتشرف بالانتساب إليها ؟

الطّريقة النقشبنديّة

الطريقة ، كما في التعريفات ، « السيرة المختصة بالسالكين إلى الله تعالى ، من قطع المنازل ، والترقي في المقامات . . إ هـ»[2] .

وسميت (نقشبندية)[3] نسبة إلى الشيخ محمد بهاء الدين نقشبند ،

---

(١) من رسائل مصر .

(٢) التعريفات الجرجانية .

(٣) النقش : صورة الطابع إذا طبع على شمع ونحوه ، وبند : ربطه وبقاؤه من غير محوه . . إ هـ من الأنوار القدسية ، فالكلمة تشير إلى تأثير الذكر في القلب وانطباعه به .

قدس سره ، وهو من أعظم شيوخ هذه الطريقة، ولد في شهر المحرم سنة (٧١٧ هـ) في قصر العارفان - قرية من قرى بخارى على فرسخ منها - وعرفت الطريقة به ؛ لأنه قصر الذكر فيها على الذكر الخفي القلبي ،وقد كانوا قبله يجتمعون الذكر جهراً ، وإذا انفردوا ذكروا خفية ، فلما تلقى - رحمه الله تعالى - هذه الطريقة اقتصر على الذكر الخفي أخذاً بالعزيمة . وتوفي - رحمه الله - سنة (٧٩١ هـ) ، وكانت تنسب قبله إلى الشيخ عبد الخالق الغُجدواني قدس سره، ولذلك سميت بالغجدوانية، وسميت أيضاً بعد ذلك بالفاروقية والمجددية ، نسبة إلى الشيخ العظيم والمرشد الكبير مجدد الألف الثاني، السيد أحمد الفاروقي السرهندي قدس سره ، وعرفت في بلاد الشام أيضاً بالخالدية ، نسبة إلى مولانا خالد النقشبندي دفين دمشق ، وهو الذي نشرها في هذه البلاد ، بعد أن رحل إلى بلاد الهند لتلقيها من الشيخ الأجل عبد الله الدهلوي - رحمه الله تعالى - . وتسمى هذه الطريقة (طريقة العلماء) لأن الشرط الأساسي في شيوخها أن يكونوا من العلماء الأعلام، الذين جمعوا بين العلم والذكر، وكان توجيههم لمريديهم وتلاميذهم ، لا يقتصر على الذكر والطريق ومراحله وآدابه ، بل كانوا يوجهونهم إلى الدراسات العلمية للكتاب والسنة والفقه ، ولقد مر معنا أن مولانا خالداً - رحمه الله تعالى -، كان يوصي اتباعه بقوله :

« واعلموا أن أحبكم إليّ ، أقلكم أتباعاً وعلاقة بأهل الدنيا ، وأخفكم مؤونة ، وأشغلكم بالفقه والحديث . . إ هـ »

ونظراً لعناية شيوخ هذه الطريقة بالعلوم الشرعية والتزامهم

بأحكام الشرع ، خلت عن البدع والدخائل التي دخلت إلى التصوف . والشرع عندهم فوق الأحوال والواردات والمواجيد ، قال الإمام الرباني — رحمه الله تعالى — :

« واعلم أن كل مسألة يكون فيها خلاف بين العلماء والصوفية ، إذا تأملت ودققت النظر تجد الحق مع العلماء ؛ وسر ذلك أن نظر العلماء بواسطة متابعة الأنبياء عليهم الصلاة والسلام ، نافذ إلى كمالات النبوة وعلومها ، ونظر الصوفية مقصور على كمالات الولاية ومعارفها ، فتكون العلوم المأخوذة عن مشكاة النبوة أصوب قطعاً من العلوم المأخوذة عن رتبة الولاية . . إ هـ »[1]

وتعتمد هذه الطريقة ذكر القلب ، وهو سر بين العبد وربه ، وبهذا تمتاز على بقية الطرق بأنها أدرجت البداية في النهاية . ففي بقية الطرق يأمر الشيوخ مريديهم بذكر اللسان ، ثم ينقلونهم بعد ذلك إلى ذكر القلب ، أما في هذه الطريقة ، فبدايتها ذكر القلب ، ونهايتها الحضور الدائم مع الله سبحانه وتعالى ، فهم ظاهراً مع الخلق باطناً مع الحق ، كما وصفهم الله تعالى بقوله : (رجال لا تلهيهم تجارة ولا بيع عن ذكر الله)[2] .

قال الشيخ نقشبند قدس الله سره العزيز :

« نحن أدرجنا النهاية في البداية . . إ هـ »[3] ، وقيل لأبي يزيد

---

(١) الأنوار القدسية .

(٢) الآية ٣٧ من سورة النور .

(٣) الأنوار القدسية .

البسطامي : ما أعظم آيات العارف ؟ قال : « **أن تراه يؤاكلك ، ويشاربك ويمازحك ، ويبايعك ، ويشاريك ، وقلبه معلق بالله ، ليس له هم سواه . إ هـ**»[1] .

هذا وللذكر عندهم آداب بينها سيدي – رحمه الله – بما يلي :

بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله ، والصلاة والسلام على سيدنا رسول الله ، وعلى آله وصحبه. الطريقة النقشبندية العلية ، تعتمد ذكر الله في القلب ، وموضع القلب تحت الثدي الأيسر ، مائلًا إلى الوراء قليلًا . ولهذا الذكر آداب هي:

١ – الاستغفار خمساً وعشرين مرة .

٢ – ثم الصلاة على النبي صلى الله تعالى عليه وآله وسلم خمساً وعشرين مرة بأي صيغة كانت .

٣ – قراءة الفاتحة الشريفة مرة ، ثم قراءة سورة الإخلاص ثلاثاً ، ثم قراءة المعوذتين مرة مرة .

٤ – رابطة الموت باستحضار النزع للروح ورؤية ملك الموت وأعوانه عليهم الصلاة والسلام ، ثم التغسيل والتكفين والصلاة عليه ، ثم دفنه ، ثم سؤال الملكين الكريمين عليهما الصلاة والسلام في القبر عن العقيدة الايمانية ، وعن سيدنا رسول الله صلى الله تعالى عليه وآله وسلم ، يستحضر هذا كله مع الإجابة لهما .

---

(١) الأنوار القدسية.

٥ – يكون الذاكر مستقبلاً القبلة ، والأحسن أن يجلس على أليته اليسرى مخرجاً الرجل اليمنى من تحت الرجل اليسرى ، بعكس تورك الشافعي في صلاته ، وذا ليكون القلب منتهضاً ، وإن أتعبته هذه الجلسة ، يجلس كيف شاء ليستريح .

٦ – الذكر الشريف يكون بإغماض العينين ، وإطباق الفم إطباقاً تاماً ، ووضع اليد اليمنى بالمسبحة على القلب تحت الثدي الأيسر ، وأن يقول القلب لا اللسان : (الله . الله . الله) إلى تمام المائة ، فإذا أتمها ، قال بلسانه : (إلهي أنت مقصودي ورضاك مطلوبي) ثم يعود إلى الذكر على هذا الترتيب ، حتى يتم خمسة آلاف مرة على الأقل ، ويزيد عليها قليلاً بلا عدد . ثم يقرأ الفاتحة الشريفة مرة ، والإخلاص ثلاثاً والمعوذتين مرة مرة ، ثم يسكن قليلاً يستمنح الله فضله وفيض نعمته وإيناسه للقلب .

ثم يهب الثواب للنبي صلى الله تعالى عليه وآله وسلم ، وللمشايخ والمريدين والمسلمين ، ويدوم على الذكر القلبي في كل أحيانه إذا استطاع ، وهذا الورد يستغرق نحواً من نصف ساعة زمنية تقريباً .

ومعنى كلمة (الله) أنه اسم للذات العلية المقدسة ، والله ليس كمثله شيء ، فلا يشبه الكائنات . ولا الكائنات تشبهه . (ولم يكن له كفواً أحد) . . إهـ»[1] .

---

(١) من الرسائل المحفوظة .

ولا يأمر شيوخ هذه الطريقة مريديهم دخول الخلوات، والانصراف عن الأعمال، والسهر المتواصل، وترك الطعام، وإهمال شؤون الآخرين، فالخلوة عندهم في الجلوة. قال الشيخ عبيد الله أحرار –رحمه الله تعالى–: «إن الخلوة في الجلوة في هذه الطريقة أصل عظيم، مبنى طريق الخواجكان[1] عليه، وهو مأخوذ من قوله تعالى: (رجال لا تلهيهم تجارة ولا بيع عن ذكر الله) ونسبتهم محبوبية، والمحبوب لا يكون إلا مستوراً **إذا** المحب غيور، فينبغي أن تستر هذه النسبة بشغل من أشغال الدنيا.. إ هـ»[2].

وأكثر ما يأمرون به المريد، مجاهدة نفسه، والخروج عن أهوائه ونزواته، حتى يكون القلب خالياً عن الكدورات والأغيار، مستنيراً بنور الذكر، وكلمتهم المشهورة في ذلك: **خل نفسك وتعال**. ونسبة المريد إلى شيخه في الطريقة نسبة محبوبية، وهذا يفسر لنا التعلق العظيم لسيدي – رحمه الله تعالى – بشيخه ومرشده أبي النصر – رحمه الله تعالى–، ويعلل الإمام الرباني – رحمه الله – سبب النسبة المحبوبية فيقول: «أيها الأخ، رأس هذه الطريقة العلية، ورئيس هذه السلسلة السنية، الصديق الأكبر الذي هو بعد النبيين أفضل البشر رضي الله عنه، وبهذا الاعتبار قال أكابر هذه الطريق: إن نسبتنا فوق جميع النسب.. إ هـ»[3]، ولا يخفى على أحد أن أبابكر الصديق رضي الله عنه،

---

(١) الخواجة بتفخيم الخاء المفتوحة وترسم بالواو ولا تقرأ وإنما هي علامة التفخيم وهي فارسية ومعناها الشيخ وتجمع على خواجكان.

(٢) الأنوار القدسية. (٣) المرجع نفسه.

كان على أعلى وأسمى علاقة حبية مع رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم.

أبو النصر

هو مرشد العلماء العاملين ، الشيخ محمد أبو النصر خلف الجندي الحمصي - رحمه الله تعالى - . ولد في مدينة حمص سنة ١٢٩٢ هـ ، في بيت والده الشيخ سليم خلف - رحمه الله تعالى - ، ظهرت عليه منذ صغره علامات الولاية ، وأمارات العناية الربانية ، فقد كان بعيداً عن عادات الأولاد في تضييع الوقت باللهو واللعب ، محباً للعلم والتعلم والعبادة ، ولا عجب في ذلك ؛ فقد نشأ في بيت التقى والعبادة ، مشمولاً برعاية والده الشيخ سليم خلف - رحمه الله تعالى - وقد تلقى عنه علم التوحيد والفقه والتصوف ، كما قرأ فقه الشافعية على الشيخ عبد الغني السعيدي ، والشيخ محمد المحمود الأتاسي ، والشيخ عبد الستار الأتاسي ، والشيخ عبد القادر الشيخة .

وبعد أن تحقق الشيخ الوالد في ولده الأهلية الكاملة للإرشاد ، أجازه به وأذن له فيه ، فكان - رحمه الله تعالى - بحق مرشد المرشدين ، ومربي السالكين ، وشيخ العلماء العاملين ، اعترف له بذلك الخاصة والعامة ، وأقر بفضله القريب والبعيد . حتى إن كثيراً من أهل العلم والفضل في مصر كتبوا له ، يرجون دعواته ، ويطلبون تبريكاته ، مما سمعوا من أوصافه وأخلاقه من سيدي - رحمه الله تعالى - عندما كان في مصر .

كان – رحمه الله – متواضعاً ، رحيماً بخلق الله تعالى ، لين القلب ، طيب النفس ، غزير الدمعة ، فمن تواضعه أنه كان يقدم الطعام لمريديه بنفسه ، ويطعمهم أحياناً بيده ، ويقوم على خدمتهم ، ويأكل فضل طعامهم ، ويلعق أصابعهم . وكان يحمل العجين بنفسه إلى الفرن ، ثم يعود بالخبز إلى البيت ، وكان كثيراً ما يتنقل بين القرى ماشياً والدواب تقاد خلفه – رحمه الله تعالى – . ويحترم العلماء كثيراً ، ويقرب طلبة العلم الشرعي ، ويجلسهم في صدر مجلسه ، ويقول : هؤلاء عظمهم الله سبحانه فعلينا تعظيمهم .

ومن رحمته أنه ما دعا على أحد من أصحاب النفوس المريضة ، الذين كانوا يحقدون عليه ، ويشيعون الشوائع السيئة عنه ، وما كان رحمه الله يزيد – إذا وصل إليه شيء من أقوال أحد منهم – على قوله : ادعوا له ، ادعوا له .

يتحمل إساءات الناس ، وسوء أدب بعضهم بنفس راضية مطمئنة ، يتفقد مريديه ويزورهم في بيوتهم ، ويسافر من أجل رؤيتهم ، ولقد قدم إلى حماة مرات ومرات ، وصرح لسيدي – رحمه الله – في إحدى المرات أنه قدم من أجل رؤيته .

ومع ذلك ، فإن البعد ما كان يحجبه عن أتباعه وأحبابه ، فهو دائماً بروحه القوية معهم ، وكان كثيراً ما يقول : « **البعد والقرب عندنا واحد** » ولقد حدث سيدي – رحمه الله تعالى – أنه عندما كان في مصر كان تنتابه نوبات من الضيق النفسي الشديد ، فيكتب إليه – رحمه الله تعالى – ، فما يمضي وقت وصول الرسالة ، حتى يكشف الله ضيقه ،

ويعود إلى هدوئه وانشراح نفسه ، ولنستمع إلى سيدي — رحمه الله تعالى في مقالة له في «مجلة حضارة الاسلام»: « ولئن كان مني نفع للأمة، فهو في صحيفة شيخي مسجل ، إذ قد انتابتني نائبة روحية أيام دراستي في مصر ، كادت تشل فكري عن العمل ، وترميني بكارثة التعطل العقلي، فكتبت إليه بما عناني ، فرأيت فيما يرى النائم أنه مد يده الكريمة إلى قلبي ، وحركه بأصابعه الشريفة ، فاستيقظت وقد أبرأني الله من العلة بعد أن حار إخواني المصريون في أمري ، ولولا أن الله سبحانه أغاثني بسيدي ؛ لكنت من نزلاء المشافي من الأمراض العقلية ، فإن كان خير مني الآن للمسلمين ، فله من ثوابه قسط عظيم وحظ وافر . . إ هـ» وقال — رحمه الله تعالى — في إحدى رسائله إلى شيخه — رحمه الله تعالى — يصف له حالته :

«أحمد الله تعالى على ما أنجاني على يدكم من الكرب العظيم ، فلقد كنت بحال رديئة ، يتقطع لها نياط القلب من الضيق الشديد الذي لزمني وسد عليّ مسالك الراحة ، وما هو إلا أن وصل كتابي إليكم ، حتى أحسست بتحسن الحال ، وإقلاع الغم عني في معظم اليوم ، بعد أن كنت أبقى ساعات متوالية في غالب أيامي ، لا أستطيع وصف الغم الشديد الذي كان يغشاني . وأذكر أني في إحدى المرات ، بقيت مستلقياً على الأرض من بعد العصر إلى وقت الضحوة من اليوم الثاني ، فلم أقم إلا للصلاة وللأمور الضرورية ، وذهني لا يساعدني على المذاكرة في العلم، ولا يقبل التفكير في أي مسألة علمية . كنت أبقى طيلة اليوم على قطعة من الخبز رغيفاً أو دونه ، واجتزىء بعصير البرتقال ونحوه ، حتى بدا

عليّ الشحوب؛ أما الآن فإني – ولله الحمد – في عافية مما كنت فيه، ولا يعاودني الحال السيء الشديد إلا في بعض اليوم، وأسأل الله أن يزيح الغمة كلها عن قلبي بإدامة التوجه منكم بكشفها ، وبالرضى بأقـــدار الله رضاءً عميقاً .

يا سيدي ما أعظم سركم ، وما أكرمكم على الله الكريم ، كدت أهلك ، فنفس ربي الكرب عني بكم ، إني أعتقد أن دعاءكم يخرق السبع الطباق ، وأن توجهكم ، يحقق الله به لكم ما تبتغون . فرضي الله عنكم وأرضاكم ، وجعلني في قلبـــكم وجعلكم في قلبي . . إهـ »[1] .

وإني أعتقد أن أعظم كرامات الشيخ أبي النصر – رحمه الله تعالى ، احتلاله لهذه المكانة العالية في قلب سيدي – رحمه الله تعالى – ، فقد كان سيدي – رحمه الله تعالى – يقول : لم يكسر رأسي من الشيوخ غير أبي النصر . ولهذا قصة .

كان سيدي – رحمه الله – في أول نشأته العلمية وقبل سفره إلى حلب ، على مشرب يخالف السادة الصوفية ، متأثراً في ذلك بخاله الشيخ سعيد الجابي – رحمه الله تعالى – وبمساعي الشيخ سعيد غلب على حماة هذا المشرب، ومما ساعد الشيخ سعيد في نشر آرائه إخلاصه وتقواه ، فقد كان – رحمه الله – مخلصاً ، ورأى كثيراً من الدخائل والبدع عند

---

(١) من رسائل مصر .

متصوفة ذلك الزمان ، فشن عليهم حملات عنيفة ، لم تقف عند البدع والدخائل ، بل كان فيها إفراط وتحامل كبيران من الشيخ رحمه الله تعالى .

في هذا الجو نشأ سيدي ــ رحمه الله ــ ، ولما كان الإخلاص لما يعتقد من حق طبعاً له ، حمل أفكاره إلى حلب بكل ما يحمل من إخلاص وحماس. وكان الشيخ أبو النصر ــ رحمه الله ــ متربعاً فيها على عرش قلوب أكثر علمائها وجمهرة عامتها ، وكان يتردد عليها كثيراً ، وكان سيدي ــ رحمه الله تعالى ــ على معرفة بالشيخ وثيقة ، وقد سبق أن تلقى الذكر منه ، إلا أن أفكار خاله كانت لا تزال متمكنة من قلبه ، راسخة في وجدانه . وقد عرف بذلك بين أقرانه من طلاب المدرسة الشرعية ، واشتهر بكثرة المناقشات التي كان يخوضها معهم . وفي إحدى الليالي العامرة بالذكر ، التي كانت تشهدها حلب حين مجيء الشيخ إليها ، ذهب سيدي مع رفيق دراسته الشيخ أحمد الحصري حفظه الله تعالى ــ وهو شيخ المعرة وعالمها الآن ــ ذهب معه لرؤية الشيخ أبي النصر والسلام عليه ، لما عرف من وفاء سيدي وحفظه للمودة . ولما دخل الدار ، خشي رفاقه في المدرسة من أتباع الشيخ ، أن يسبب لهم بعض المشاكل ، لما يعرفون عنه ، ولكن الشيخ أبا النصر ــ رحمه الله ــ ما إن وقع بصره عليه حتى استدعاه ، وأجلسه أمامه مع صاحبه الشيخ أحمد الحصري حفظه الله ، وأمر المنشد بالإنشاد ، وبدأ المنشد بقصيدة مطلعها :

كان لي ظـل رسوم فاستوت شمسي فزالا[1]

وأخذ الشيخ يتوجه بقلبه الكبير إلى سيدي – رحمه الله تعالى – وما مرت فترة ، حتى اشتعل القلب التقي النقي بالأحوال والمواجيد، فطغت عليه ، وقام مأخوذاً هو ورفيقه يصيحان ، وسيدي يردد أثناء ذلك : أشهد أنـــك يا أبا النصر على حق . ثم أكبا على حجر الشيخ ، فتلقاهما – رحمه الله – بهدوء وسرور كما تتلقى الأم أطفالها ، وبعد أن سكنا وعادا إلى صحوهما ، آخى – رحمه الله – بينهما أخوة روحية ما زادتها الأيام بعـد ذلك إلا قوة وإخلاصاً وصفاءً ، حتى إن سيدي – رحمه الله – كان يقول : « الشيخ أحمد الحصري هو الانسان الأول في حياتي ، وهو أخي الروحي ». هذا اليوم من الأيام المشهودة في حياة سيدي ، وفيه حصل له التحول العظيم ، والانتقال الكبير ، ببركة شيخه ومرشده أبي النصر – رحمهما الله جميعاً – وإلى هذا أشار – رحمه الله – بقوله : « إنه الذي أخرجني الله تعالى به من ظلمات الغفـــلة والقسوة والشرود ، إلى نور الذكر والرقة والوقوف بباب الله سبحانه

---

(١) ومن هذه القصيدة :

عشت بالمحبوب حقاً بعد ماكنت خيالا
وتخفى عـــن عياني بي عـــزاً وكـــمالا
لست بعد اليوم أخشى منـــه والله انفصالا
أنا في مقعـــد صدق أجتني منـــه وصالا
كل أوقـــاتي منـــه فرحـــات تتـــوالى
هكـــذا العشق وإلا كان والله انفعـــالا

في ذلة وضراعة لهذا الرب الكريم ، إنـــه الذى ملأني بتوجهات قلبه الشريف . وكم طهرت فيوضاته من أسرار ، وآزاحت من أكدار ، وأعلت من همم،وأنجت من نقم . كم أنقذ من غرقى في بحار الطغيان، وكم جلا عن القلوب من ران العصيان . وكم أبكى من عيون الناس عيوناً، وكم ألقى في ضمائرهم سراً مكنوناً. كان من الصدّيقين الراسخين الذين لهم قوة إشعال الحال في مريديه على القرب والبعد . وقـد سمعته يقول : **القرب والبعد عندنا واحـد . من لم ينفعك بعده لم ينفعك قربه** . وكراماته التي أكرمه الله بهـا من خوارق العادات كثيرة جداً جداً .. إهـ[1] » .

ومن هذه الكرامات ما سمعته من الشيخ منير لطفي –من علماء حماة الصالحين – فقد سمعته يحدث: أنه كان إذا زار الشيخ أبا النصر في حمص، وأستأذنه بعد ذلـــك للعودة إلى حماة ، لا يأذن له ، ويأمره بالانتظار ، ثم بعد ذلك يأذن له فجأة ، فيذهب إلى موقف السيارات، فيجد السيارة على وشك التوجه إلى حماة فيركبها ، ويعود فوراً دون انتظـار .

ولقد حدثنـا سيدي – رحمه الله تعالى كثيراً عن كرامات شيخه أبي النصر ، وأشهرها شفاء الله تعالى ببركة دعائه لامرأة مشلولة ، حُملت إلى بيته حملًا ، وخرجت منه بعد قليل تمشي بصحة وعافيـة . ولقد اشتهر عنـه أن الله سبحانه وتعالى ، يكشف له مخبآت النفوس وأسرار القلوب ، فكان يقرأ ما في نفوس مريديه ، ويخبرهم عن طوايا

---

(١) ضيف الحضارة .

قلوبهم . ولقد سمعت من سيدي – رحمه الله – أن الشيخ عيسى البيانوني – من كبار علماء حلب – قدم إلى حمص لزيارة الشيخ، وكان في الطريق يتساءل عن أبي الهدى الصيادي – رحمه الله تعالى – وعن رأي الشيخ أبي النصر فيه ، ولما التقى بالشيخ على مشارف حمص ، متوجهاً إلى قرية تلبيسة ابتدره الشيخ قائلاً : (الشيخ أبو الهدى رجل صالح ، ولكن للناس فيه مطاعن) ، وما من مرة جلس – رحمه الله تعالى – إلى مائدة طعام ، إلا وبارك الله فيها، وكفت الجموع الكثيرة التي تلتف حول الشيخ حيثما حل وأينما اتجه ، ولذلك كان – رحمه الله يبقى جالساً على المائدة حتى يأكل كل الناس، ثم يقوم عنها ويأمر برفعها.

ولو أردت أن أستقصي كراماته كلها ، لاحتجت إلى كتاب مستقل ، ولكنني أكتفي بهذا الغيض من الفيض ، ملتزماً المبدأ الذي ذكرته في بحث الكرامات ، وهو : **الاستقامة عين الكرامة** ، واستقامة الشيخ أبي النصر أجمع عليها كل من رآه وعرفه – رحمه الله تعالى – فما كان – رحمه الله تعالى – يترك قيام الليل ، ولقد سمعت من سيدي : أن الفجر ما كان يطلع على أبي النصر ، حتى يذكر الله ثمانين ألف مرة ، وكان كثير القراءة للقرآن الكريم وخاصة قبيل وفاته . توفي – رحمه الله تعالى ورضي عنه – وقت السحر ، من ليلة الجمعة الخامس من رمضان سنة ١٣٦٨ هـ، وقد انكشف بعد سنة مرت على وفاته حجرٌ من فوقه في عملية حفر ، ففاحت رائحة زكية من قبره الشريف ، ورؤي الشيخ – قدس سره – بحاله التي دفن عليها لم يتغير ولم ينتن . رحمك الله يا سيدي ، يا مرشد الحائرين ، وشيخ السالكين ،

ونور قلوب العارفين . ويحسن بي أن أذكر أخيراً ما قاله الشاعر الكبير ، شقيق سيدي ، الأستاذ بدر الدين الحامد - رحمها الله تعالى - في مدح الشيخ أبي النصر قدس سره :

يا هيكلَ الجسمِ دعْ روحي ومسراها
تسقى بساح التـــداني من حُمَيّاها
هناك حيث رياض القرب ناضـــرة
تهيم وجـــداً بسلمـاها ورياهـــا
وكم لها من تنـــاجٍ كله شغف
حـــذار يا قلب من إفشاء نجـــواها

بتنا على حالة من ذاقها كشفتْ ... له الستور فنادى مـا أحيْلاها
شيخي أبو النصر نبراس الحقيقة بل ... قطب الطريقـة يحميها ويرعاها
عرج على ربعه المأهول تلقَ بـه ... نوراً كشمس الضحى تجلى بعلياها
تهفو القلوب إليـه وهي خاشعة ... وسرّه كم تولاها وأولاها
يا سيدي إن لي في الذكر سابقة ... عدا الزمان على قلبي فعفّاها
فصل بحبلك حبـــلي إنني دنف ... وأنت لي قدوة في ذكريَ الله

وقال رحمه الله تعالى أيضاً :

وحق هواكُمُ ما غـا ... بَ طيفُ خيالكم عنّي
نزلتم في الخفا والسـ ... ـرّ يا أهل الوفا مـني
فصرت بحبكم كَلِفاً ... أغنّي والهـوى فـــني
سويدائي بكم خفقتْ ... وجفـني آهِ من جفـني

بذكركم يفيض كما ... تفيض مدامع المزن

بدا في القرب محبوبي ... فأخجل قامة الغصن

دعاني فانمحيت به ... وخف بقربه وزني

وروحي تفهم المعنى ... إذا ضاقت به أذني

إشارات بها تغدو ... جبال الأرض كالعهن

فدعني يا عذولي من ... مقالك في الهوى دعني

تعالَ وذقْ حميّانا ... من الكاس إلى الدنْ

ولُمْ إن شئت أو فاعذر ... فإن البعد لا يغني

شرابك يا أبا النصر ... طِلىً أحلى من المن

تخر له الجبابر من ... جميع الإنس والجن

بسر الله مشربنا ... وغير الله لا نعني

صلاتي والسلام على ... محمدنا بما أثني

حدثني الأستاذ عبد الغني الحامد حفظه الله تعالى، فقال: وصلتنا إلى حماة أخبار الشيخ محمد، وما حصل له، وأنه ترك مدرسته، ولحق بأبي النصر إلى حمص، فأرسلني أخي بدر الدين لرؤيته، وإذا بي أتعلق بأبي النصر – رحمه الله – وأتلقى الذكر عنه، وعدت إلى حماة قائلاً القصيدة الأولى في الشيخ أبي النصر – رحمه الله – (في مجلس الذكر):

الحب في القلب أمسى ثابت القدم ... والشوق خالط مني أعظمي ودمي

والروح تلج في الآصال ذاكرة ... وفي الليالي سناء المفرد العلم

يا من ترامت إليه الروح والهة ... إني على البعد لا أنفك في ضرم

كيف السلو وقلبي لا يكفكفه عن النزوع إليكم ربقة العدم
أم كيف أنسى التداني منكمُ ولقد كانت سويعاته أشفى من الدِّيم
في مجلس الذكر والأنفاس حابسة لقنتموني التقى والزهد من أمم
تبارك الله مـا أسمى مجالسنا القلب للذكر فيها عاقد العلم
والقوم قد خشعت منهم بصائرهم لله ذي العزة العليا من القدم
وأنت يا سيدي فينا حليف جوى تفيض أعينكم في إثر منسجم
إني إلى الذكر يا مولاي في كلف وفي حماكم به يشفى ذوو السقم
شيخي أباالنصر أنت الشمس في زمن عم الظلام به في السهل والأكم
فهل ألام إذا عُلقت حبكم ومن يديكم أتتني أبلغ النعم
واليوم كل رجائي أن أنال رضىً من سيدي الشيخ عالي الخلق والشيم

كيف يرجون لنا أن ننثني

قم إلى الكأس ولا تخش الملاما وارتشف من خمرة الحب التهاما
ودع العاذل لا تحفل بـه فمن الجهل لقد صاغ الكلاما
نحـن أدرى بالذي يحلو فهل كانت الكأس سوى الروح قواما
والشراب الصرف هل كان سوى نفحة عمت فـأحيت مستهاما
فإذا مـا ذقت منه نقطة لج بي الشوق وعفتُ الاحتشاما
والجبال الشم لو يجلى لهـا لهوت منه خشوعاً تترامى
كيف يرجون لنا أن ننثني والذي ذقناه في السر أقاما
من يدي شيخ لنا قد بلغت رتب الفضل به العليا مقاما
يا أبا النصر جزيت الخير عن معشر علقتهم هذا الغراما

لم نكن نعرف من قبل جوىً يملكُ القلب ولا دمعاً سجاما
ثم لما أن توجهت لنا أصبحت نار الهوى تذكو ضراما
أنت ألهبتَ الحشا من خمرة هي ذكر الله في القلب دواما
وبحب المصطفى علقتنا وإلى الإخلاص وجهت الكراما
سيدي شيخي ترفق بالذي حرمت عيناه في الليل المناما
أنا أصبحت بكم من كلفي أجد السلوى على نفسي حراما
ولئن نلت الرضى منكم فقد فزت في الحب وبلّغت المراما

الشيخ
محمّد سليم خلف

وإن سرّ هذه النسبة الشريفة إلى الطريقة النقشبندية، سرى إليه من قلب والده الشيخ محمد سليم بن الشيخ خلف الجندي الحسيني، قدس الله سره العزيز. ولد - رحمه الله تعالى - في مدينة حمص سنة ١٢٣٢هـ، ونشأ - رحمه الله تعالى - متحلياً بالأخلاق والآداب الاسلامية، أخذ العلم على كثير من الشيوخ الفضلاء في وقته، ولا سيما على الشيخ الجليل الكبير علامة حمص الشيخ جمال الدين الجمالي، وهو جد الشيخ جمال الدين الذي كان خطيب الجامع الكبير في حمص. وألقى به والده إلى الشيخ أحمد الطظقلي رحمه الله تعالى، فكان له خير مرشد ومرب، والشيخ الطظقلي - رحمه الله تعالى - أحد خلفاء مولانا خالد النقشبندي، كان عالماً جليلاً، جمع العلوم الظاهرة والباطنة، ونال قصب السبق بين خلفاء

مولانا خالد ، وقد كان قدس الله سره يعتمد عليه في المهات . تلقى العلوم الشرعية على أكابر علماء دمشق ، حيث أقام هناك مدة طويلة لهذا الغرض ، كما أنه سلك في الطريقة النقشبندية على شيخه العظيم مولانا خالد ، حتى إذا كمل سلوكه أجازه شيخه بالإرشاد العام ، وأذن له بالعودة إلى حمص لتكون مقر الإرشاد له ، فسكن حمص ، وظهرت كراماته وشاعت ، واهتدى الناس بهديه ، وكثر خلفاؤه ، وعم نفعه الخاص والعام ، وكان يتردد على دمشق لزيارة شيخه الكبير كثيراً ، حتى انتقل شيخه إلى رحمة الله تعالى ، فتفرغ للإرشاد ونشر العلم والطريقة ، فأنجب خلفاء وعلماء أقوياء ، مثل الشيخ سليم خلف والشيخ سليم صافي ، والشيخ عبد اللطيف التلاوي ، ولا يزال إلى وقتنا هذا هو وخلفاؤه محل اعتقاد أهل حمص ، فلا ينقطعون عن زيارة قبورهم ، والتوسل إلى الله سبحانه وتعالى بهم .

ولقد توسم الشيخ الطظقلي أهلية الإرشاد في تلميذه ومريده الشيخ سليم خلف ، منذ كان عمره ثمانية عشر عاماً ؛ فأجازه بالإرشاد، وكتب له بذلك . ولقد أحببت أن أزين هذا الكتاب بصورة إجازة الشيخ سليم خلف من شيخه الشيخ أحمد الطظقلي - رحمهما الله تعالى - ، تبركاً بالآثار الصالحة ، والأنفاس الطاهرة :

بسم الله الرحمن الرحيم

وبه نستعين ، الحمد لله حمداً يرتضيه لجنابه ، والصلاة والسلام على أجل من اصطفى لوحيه وخطابه ، خليفة الله في خلقه ، محمد وعلى آله وأصحابه ، وبعد : فقد أجزت الأخ الشفيق ، والصديق الرفيق ، العالم

العامل ، والفاضل الكامل ، الحافظ للود والوداد ، الشيخ سليم بن السيد خلف الجندي ، صاحب الأوراد ، ثبته الله على منهج الاستقامة ، وحفظه من موجبات الندامة ، بتلقين الذكر والتوجه والإرشاد في الطريقة العليّة النقشبندية ، بعدما جربت مراراً تأثير نظره للطلاب ، وحسن اقتداره على إلقاء النور ، وكشف الحجاب ، وما أجزته إلا بعد الاستجازة من سادة السلسلة العلية ، والاستخارة الشرعية النبوية ، فليغتنم صحبته كل من يريد التثبت بطريقة الأولياء ، وأضمن لكل من يلازم أمره وخدمته أن ينال ما لا يحيط به عقل العقلاء ، ويقصر عنه علم العلماء . وأوصيه بالتمسك بالكتاب والسنة والأمر بتصحيح العقائد بمقتضى آراء أهل السنة ، الذين هم الفرقة الناجية ، على ما أطبق عليه أئمة الكشف والوجدان ، وأوصيه بتوقير حملة القرآن ، والفقهاء والفقراء وسلامة الصدر ، وسماحة النفس ، وسخاوة اليد وبشاشة الوجه ، وبذل الندى ، وكف الأذى ، والصفح عن عثرات الإخوان ، والنصيحة للأصاغر والأكابر ، وترك الخصومات ، وترك الطمع وبالاعتماد في قضاء الحوائج إلى الله جل جلاله ، فإنه لا يضيع من عوّل عليه ، وأن لا يرجو النجاة إلا في الصدق ، والوصول إلى الله تعالى في اتباع محمد صلى الله تعالى عليه وآله وصحبه وسلم ، وأن لا يظن أنه أفضل من أحد بل لا يرى لنفسه وجوداً . وكل من يتطاول عليه بالنميمة والحسد ، يفوض أمره إلى الله تعالى ، ولا يتكلف في دفع شره بالهمة ، فإن مشايخ هذه الطريقة العلية ، تندك من هممهم الجبال ، فإن شاؤوا قطعوا مادة فساده بقدرة الله تعالى أسرع ما يكون ، وصلى الله على سيدنا محمد

النبي الامي وعلى اله وصحبه عدد خلقه ورضى نفسه ، ومداد كلماته ، وسلم تسليماً كذلك . والحمد لله رب العالمين .

حرر وجرى به عليه

خادم الفقراء

أحمد النقشبندي الطظقلي الخالدي

ولا يزال المسنون من أهل حمص ، يذكرون كرامات الشيخ سليم قدس سره ، وأشهرها ما حصل عند انحباس المطر سنة ١٣١٥ هـ ، فقد ضج الناس بالشكوى ، واشتد الكرب بالمسلمين ، وطال الانحباس ، وتجهز الناس للاستسقاء . وخرجوا إلى خارج المدينة من الجهة الجنوبية الغربية ، والسماء مصحية ليس فيها قطعة غيم ، وخرج الشيخ سليم معهم ، فطلبوا منه الدعاء ، فدعا — رحمه الله تعالى — وأطال وألح ، ثم أمسك بلحيته الشريفة وقال : (يارب لا تخجل هذه الشيبة) ولم يتم الشيخ كلامه ، حتى ظهرت من الغرب ديمة هطلاء ، وما لبثت أن امتدت ، وغطت الأفق ، وبدأت تسكب الماء ، كأنه أفواه القرب ، والناس لا يزالون مع الشيخ في أماكنهم لم يبرحوا ، حتى ارتوت الأرض . وأسلم في هذا اليوم الكثير من نصارى حمص . توفي — رحمه الله تعالى — في منتصف شهر المحرم من عام ١٣٢٨ هـ ، في وقت السحر ، وجرى له تشييع رسمي وشعبي عظيم ، ودفن في المقبرة الجنوبية

على طريق دمشق ، وقد دفن والده الشيخ أبو النصر قدس سره قريباً منه بعد ذلك .

الباب الرابع

محامده الخلقية

يقولون لي صفها، فأنت بوصفها خبير، أجل عندي بأوصافها علم
صفاء ولا ماء، ولطف ولا هوى ونور ولا نار، وروح ولا جسم

ابن الفارض

تمهيد

قال الإمام الغزالي في كتاب الإحياء ، في بيان الأسباب التي يُنال بها الخلق الحسن: «الأخلاق الحسنة تارة تكون بالطبع والفطرة، وتارة تكون باعتياد الأفعال الجميلة، وتارة تكون بمشاهدة أرباب الفِعال الجميلة ومصاحبتهم ، وهم قرناء الخير وإخوان الصلاح ، إذ الطبع يسرق من الطبع الشر والخير جميعاً ، فمن تظاهرت في حقه الجهات الثلاث ، حتى صار ذا فضيلة طبعاً واعتياداً وتعلماً ، فهو في غاية الفضيلة ..إهـ».

ولقد كان سيدي ــ رحمه الله تعالى ــ في غاية الفضيلة ، بعد أن تظاهرت في حقه الجهات الثلاث ، بل إن جهة الطبع والفطرة غلبت على أخلاقه رحمه الله تعالى . دليل ذلك ظهور هــذه الأخلاق الفاضلة فيه منذ صغره ، حتى كان الناس يسمونه شيخاً قبل أن يسلك سبيل العلم الشرعي ، وكان ــ رحمه الله ــ يأنس لهذه التسمية ، ويفرح بها، لأنها تتناسب مع السلوك الديني الذي شُغف به وفطر عليه ، وهذا هو السبب الذي حمل أخاه الأستاذ بدر الدين ــ رحمه الله ــ أن يخرجه من المدرسة الإعدادية بعد أن أدخله إليها ، ليتابع تحصيله فيها للعلوم العصرية ، فلم يجد ــ رحمه الله ــ في نفسه ميلاً إلى هذه العلوم ، حتى شعر أخوه أنه يحمله على الذهاب حملاً ، فأخرجه منها ، ووضعه عند

معلم خياطة للملابس العربية ، ليتعلم عنده هذه المهنة ، وليتابع معها طلب العلم الشرعي كما يريد[1] ، ولقد حدثني – رحمه الله – أن معلمه الخياط وأهل السوق ، ما كانوا يدعونه إلا بالشيخ .

عرف – رحمه الله – من نفسه هذه الصفة ، وأدرك أنه سيحمل في المستقبل هذه الأمانة العظيمة ، ولهذا كانت تثور في نفسه مشاعر الفرح ، ويفيض قلبه بعرام الشباب ، وينطق لسانه هاتفاً في قاعات المدرسة الشرعية : **أنا وقف للمسلمين ، أنا وقف للمسلمين** .

وإن كل أقران الشيخ وزملائه ، عرفوا فيه الثبات على السلوك الخلقي الديني الكامل طيلة مراحل حياته ، فلم يتغير ولم يتبدل لديه هذا الخلق الطيب منذ طفولته إلى أن توفاه الله تعالى ، ولنستمع إلى شهادة شقيقه الأستاذ عبد الغني ، وهو أكثر الناس معرفة بالشيخ – رحمه الله تعالى – طفلاً وشاباً وشيخاً :

« أما أنا ومحمد فقد كنا كغصني شجرة لا يفترقان ، نذهب ونؤوب ونطعم ونبيت معاً ، يدانا متماسكتان ، وقلبانا متمازجان . في هذه الظروف القاسية عشت أنا ومحمد أول ما تعرفت إلى الحياة ، وارتسم على قلبي منه منذ ذلك الحين كل شيء عرفته فيه من الصفات ، فلم أجد شيئاً منه قد تبدل فيما بعد عندما كبر وأصبح رجلاً ، إلا علمه

---

(١) ولم ينس – رحمه الله – أن يداعبه قائلاً : تعيش خياطاً ، وتموت خياطاً ، وتحشر يوم القيامة في زمرة الخياطين . لكن إرادة الله شاءت أن يعيش عالماً ، وأن يموت عالماً ، ويحشر يوم القيامة – إن شاء الله – في زمرة العلماء العاملين .

الذي اكتمل ، وجهاده الذي برز في خدمة الدين ، هو محمد نفسه في السادسة من عمره ، كما هو بعد العاشرة ، أو بعد الثلاثين والخمسين ، العاطفة الطيبة ،والحنو العميق ، والصدق في القول ، كل ذلك أستشعره منه ونحن صغيران ، ولم يكن في تلك السن المبكرة ، يألف من الأمكنة إلا المساجد ، يصلي خلف الأئمة ، ويحضر دروس العلماء ويأخذ بحفظ القرآن الكريم .

وكان أبعد ما يكون عن الشر ، أشد ما يكون تحرياً للحلال ولو في أصغر الأشياء ،لم تمش به قدم إلى ملهى قط ، والأطفال والفتيان من حوله يتحدثون يومئذ عن ذلك الشيء العجيب الذي يسمونه (السينما) ، والذي فوجئت به البلاد فأدهش العقول . التسلية عنده هي النزهة فحسب ، ولقد أكسبته المناظر الطبيعية ، حساً شعرياً . وذوقاً سليماً صافياً ، بقي أثرها في نفسه حتى عهد شبابه وكهولته . هذه أمور أرويها عنه وهو صغير ، كنت أحياها معه كل يوم ، وأشهدها منه سلوكاً ثابتاً لا يتغير . . إهـ » .

ثم قال حفظه الله : « رحم الله محمداً ، فقد كان علماً في التقوى والورع ، حجة في العلم ، قدوة في النزاهة ... هو نفسه كما عرفته في السادسة من عمره ، أواريه التراب اليوم بدمعي ، لم يتغير من خلقه شيء ولم يتبدل من أعماله عمل . . إهـ » .

الـورع

وهو الصفة البارزة لسيدي رحمه الله تعالى ، قدمتها لأنه

اشتهر بها بين الناس أكثر من غيرها . والورع : اجتناب الشبهات خوفاً من الوقوع في المحرمات ، وقيل هي ملازمة الأعمال الجميلة . . إه[1] وهو من ثمار المعرفة لله تعالى ، فكلما ازداد العبدمعرفة لربه وقرباً منه ، زادت خشيته له وزاد ورعه ، دليل ذلك قوله تعالى : (إنما يخشى اللهَ من عباده العلماءُ[2]) قال البيضاوي في تفسيرها : شرط الخشية معرفة المخشي والعلم بصفاته وأفعاله ، فمن كان أعلم به كان أخشى منه ، ولذلك قال صلى الله عليه وآله وسلم : « إني أخشاكم لله وأتقاكم له . . إ ه[3].

ولقد كان ورع سيدي ـ رحمه الله تعالى ـ ورع المتقين ، بل إنه في مثل هذا الزمن ليبلغ ورع الصدّيقين ، فالاستقامة الدينية الصارمة ، التي ألزم نفسه بها منذ نعومة أظفاره إلى كهولتهوشيخوخته ، في عصر مشحون بالفتنوالمغرياتوالمضلات تدل على المقامات العالية التي بوأه الله تعالى إياها . وإن الذي يدرس طبيعة العصر الذي عاش فيه ، ليعجب أشد العجب من تمكن هذا الرجل العظيم من العيش حياة الصدّيقين في مثل هذا العصر،دون أن تخالطه شبهةأو يلحقه لوث،واجه الحياة منذ صغره تقياً نقياً ، وخرج منها تقياً نقياً .

ولقد ظهر ورع سيدي غريباً عن طبيعة هذا العصر المدنسة بالمحارم والملطخة بالمآثم، حتى إن كثيراًمن الناس ظنوا لجهلهم ورعسيدي

---

(١) التعريفات .

(٢) فاطر : ٢٨ .

(٣) حديث صحيح، رواه البخاري بلفظ :(إن أتقاكم وأعلمكم بالله أنا) . انظر كشف الخفا .

ـ رحمه الله ـ تزمتاً وتشدداً ، وما عرفوا أن ورعه في هذه الحيـــاة كالواحة الخضراء في الصحراء ، وأنـه حزمة من النور سرت في دياجير حياة القرن الرابع عشر الهجري المظلمة . جعله الله سبحانه وتعالى مثالاً حياً للسلف الصالـح ، الذين عاشوا في عصر النور ، فكانوا صفوة الله من خلقه بعد النبيين عليهم الصلاة والسلام .

ولقد كنت قبل تشرفي بخدمـة سيدي ـ رحمه الله تعالى ـ من هذا السواد الجاهل ، أحمل في نفسي صورة له ، شيخاً متزمتاً ، متشدداً قاسياً ، وإذا بي أجده بعد اقترابي منـه ، أصفى من الصفاء ، وألطف من الهواء ، وأطيب من كل طيب ، وأجمل من العندليب ، وتذكرت وصف علي لرسول الله صلى الله عليه وآله وسلم : « من رآه بديهة هابه ، ومن عرفه أحبه » .

ولقد أكرمه الله تعالى بصفاء الباطن ونقاء الظاهر ، وحرصاً منه على صفاء الباطن ، كان ـ رحمه الله تعالى ـ يحرص أشد الحرص على سلامة العقيدة وصفائها ، حتى لا تشوبها شائبة ولا تخالطها بدعة ، ولهذا كان ـ رحمه الله تعالى ـ يتحرى الدقة العلمية في عرض حقائقها ، ويختار لها الألفاظ المناسبة لمعانيها ، ويحتاط بشأنها ، فيأمر الناس بتفقد قلوبهم ، وتفتيش دخائلهم ، وتجديد إيمانهم ، خاصة إذا سمع منهم لفظاً مكفـّراً من قريب أو بعيد ، وكم كان ـ رحمه الله تعالى ـ يحمّل نفسه من عناء ومشقة في هذا السبيل ، إذا سمع من إنسان لفظة قد تحمل معنىً مكفراً استفسر منه عن مراده ومقصده ، ودقق في سؤاله ، وألح في استفساره ، وقد يزوره في بيته من أجل أن يتأكد من سلامة إيمانه ، وصحة اعتقاده ،

فيظن الجاهل أن هذا من الشيخ تشدد وتزمت ، وهو لا يدري أنه صفاء القلب ، ونقاء النفس ، وسلامة العقيدة .

حدثني أحد أصدقائه ـ رحمه الله تعالى ـ أن كلمة بدرت منه ـ يفهم منها معنى سيء ، لا يريده ولا يقصده ـ أمام الشيخ رحمه الله تعالى ، فما زال الشيخ يسأله مستفسراً عن مراده ، حتى طمأنه إلى أنه ما قصد معناها السيء ، ومرت عدة أيام بعد ذلك ، نسي صديق الشيخ الحادثة كلها ، وكم كانت دهشته كبيرة ، عندما ذكره الشيخ وهو في إحدى نزهاته معه بكلمته التي صدرت منه ، وطلب منه أن يجدد عقد نكاحه مع زوجته احتياطاً .

ومن المعلوم أن أكثر الأشياء تأثيراً على صفاء القلب والنفس ، تناول المال المشوب بالحرام . ولهذا كان الشيخ ـ رحمه الله تعالى ـ يجتهد اجتهاداً كبيراً في البحث عن الرزق الحلال ، الذي لا تشوبه أية شائبة ، ويترك الكثير ، حتى يسلم له القليل الطيب ، وقد وصل به الأمر في بعض الحالات ، أن ترك المدرسة الشرعية في حلب ، عندما عرف أن أموال الوقف فيها مخلوطة بغيرها ؛ خوفاً أن يدخل إلى جوفه شيء من مال حرام ، تركها وخرج إلى القرى يبحث عن الرزق الحلال ، حتى وصل إلى قرية «عرب ملك» على الساحل ، قرب مصب نهر السن ، وهناك التقى برجل صالح ، نصحه أن يعود إلى المدرسة ، مذكراً له أن الرزق الحلال الصرف الذي يبحث عنه ، لن يجده في مثل هذا الزمان ، بكلمة قالها له وهي : ليس بالإمكان أبدع مما كان .

وفي أحد الشهور ، فر معتمد توزيع الرواتب في المدرسة بمال

الطلاب ، فاضطرت إدارة المدرسة أن تصرف لهم من أموال أخرى ، ليست مخصصة للطلاب ، وعندماعلم الشيخ ــ رحمه الله تعالى - بالأمر ، رفض أن يستلم راتبه ، وعلم مدير المدرسة ــ رحمه الله تعالى ــ سبب رفض الشيخ ، فاستدعاه في اليوم الثاني ، وقدم له كمية من المال ، فرفض الشيخ استلامها ، حتى حلف له أيماناً مغلّظة أنها من ماله الخاص ، يقدمها هبة خالصة له .

ومن ورعه ــ رحمه الله تعالى حرصه ألا تكون مكانته الدينية في قلوب الناس سبباً يجر له بعض المكاسب ، ولهذا كان يرد كل هدية تقدم له ولو من أخص تلاميذه وأحبابه ، لأنه يعتقد أن هذه الهدايا قد تكون أكلًا للدنيا بالدين .

وكم رد ــ رحمه الله تعالى ــ هدايا كثيرة ، قدمت له ، وخاصة من عوّاده الذين كانوا يعودونه أثناء مرضه ، وإذا غلب عليه حياؤه وقبل بعضها ، كافأ أصحابها بهدايا تزيد كثيراً عن التي قدمت له ، وإن أخص تلاميذه كانوا يمتنعون عن تقديم أية هدية للشيخ ، حتى لا يسببوا له مضايقة نفسية ، وحتى لا يكلفوه المكافأة عليها .

ومن ورعه ــ رحمه الله تعالى ــ أنه كان يطلب من البائعين أن يعاملوه كسائر الناس ، وإذا شعر أن أحدهم خفّض له السعر ، ألح عليه أن يأخذ السعر المعتاد ، وأعطاه زيادة على طلبه ، وحوادثه في هذا الشأن مع الباعة كثيرة ، فقد اشترى من أحد السماسرة جبناً بسعر الكيلو /١٨٠/ قرشاً سورياً ، وأوصاه على كمية أخرى ، فلما أخذها في اليوم الثاني سأله عن سعرها ، فقال له كالسابق ، فسأله ــ رحمه الله

تعالى ـ: وهل هذا هو السعر اليوم ؟فقال لقد بعت اليوم بسعر/١٩٠/ قرشاً ، فقال الشيخ : وهل هذا الذي بعته خير من هذا الذي بعتنيه ؟ فقال : لا . قال : فإنك تظلم صاحبه ، ولست آخذه إلا بسعر /١٩٠/ قرشاً ، وكان صاحب الجبن حاضراً ، فقال : أنا رضيت يا شيخي بسعر /١٨٠/ قرشاً ، فقال له ـ رحمه الله تعالى ـ : إن هذه الزيادة هبة مني لك .

وكان يحرص حرصاً شديداً أن لا يأخذ منفعة أحد دون أن يعطيه أجرته كاملة ، فقد استأجر مرة حمالاً ليحمل له صفيحة الكاز إلى البيت ، وأرسل معه ولده ليدله على البيت ، وأرسل مع ولده وعاءً فيه قليل من الحليب ، ولما سار الحمال التفت إليه الشيخ ، فوجده قد حمل وعاء الحليب أيضاً ، فناداه قائلاً : إني لم أشارطك على حمل الحليب ، وتعال خذ أجرته ، فقال الحمال : لا أريد أجرته ، ولكن الشيخ أصر عليه وأعطاه أجرته . وخرج مرة ـ رحمه الله تعالى ـ يبحث عن حمال أرسل معه علبة لبن إلى البيت ، فكلفه أهل البيت أن يحملها إلى غرفة على سطح البيت ، خرج يفتش عنه ، ليعطيه أجرة حملها إلى غرفة السطح .

ومن ورعه ـ رحمه الله تعالى ـ ، أنه كان يتهم نفسه دائماً بالرياء وقلة الإخلاص ، وهو السبب الذي حمله على رفض أول وظيفة أسندت إليه ، رغم حاجته الشديدة إلى المال في ذلك الوقت ، رفضها ـ رحمه الله تعالى ـ ، ثم قبلها مكرهاً ، وكتب إلى شيخه أبي النصر يصف له شأنه فيها :

« سيدي ومرشدي :

أقبل يديكم الشريفتين ، وأسأل الله تعالى لكم مزيد الإحسان والإنعام ، وبعد : فقد توجهتْ على الفقير ولدكم خطبة الجمعة في جامع الأشقر ، بعد أن عرضتْ عليّ فرفضتها ، ولكن المشايخ — حفظهم الله تعالى — أصروا على قرارهم ، وعملوا جهدهم لإقناعي ، فقبلت وخطبت في الجامع المذكور يوم الجمعة الماضي . وإني أحمد الله تعالى على توفيقه ، الذي لا شك في حصوله ببركة انتمائي إليكم ، وانتسابي لسدتكم العالية. وقد طلب مني بعض جيران المسجد درساً عقب الصلاة، كما كان يفعل الخطيب السابق،ففعلت ولطف الله تعالى بي ، ولهسبحانه الحمد على كل حال . غير أني يا سيدي ذا كرٌ لكم في كتابي أمراً هو منكم ومن ولدكم على بال ، ذاك أني لم أكن ذا طمع شديد في المال، ولا في الجاه ، وما رضيت بالوظيفة حباً بأحدهما ، وإن كنت صعلوكاً فقيراً . بل إنما قبلت بها رجاء أن يخلق الله تعالى على يديّ شيئاً من النفع،أكون فيه عاملًا لربي جل وعلا ، ولا يخفى على مولاي — قدس سره — أن ذلك لا يحصل ما لم يكن القائم بالأمر مخلصاً في عمله لله تعالى ، وإلا فإن ما يفسده أكثر مما يصلحه ، وإني أرى نفسي قد ركنت بعض الركون إلى قبول الناس لها ، وهي لا تزال تدّعي الإخلاص ، فامتحنتها ، فأجدها كاذبة ، كما قال القائل :

كل من يدّعي بما ليس فيه كذبتْه شواهد الإمتحان

فرأيت أن أخبركم بأمري عسى أن تلحظوني بنظركم الشريف ، وترعوني بقلبكم الطاهر ، وتتوجهوا إلى الله تعالى بأن يقذف نور

الإخلاص في قلبي ، ويطهِّر سري ، فأكون من خدام حضرته .

إنني يا مولاي إلى الآن ، أحب الإفلات من هذا القيد الذي أخشى أن يفسد عليّ قلبي ، ولولا إصرار الشيوخ وإكراه أخي بدر، ما قبلت بهذا الأمر ، وإن كنت أرجو نفع الناس ، لأني أعلم غش نفسي لي وخداعها ، فلا يخفى عليّ تلبيسها ومكرها ، وإني لولا خوفي من غضبكم على ولدكم ، لفررت من حماة قبل يوم الجمعة، وإن غضب بدر .

والآن إني أقول لكم بصراحة تامة : إني منتظر ثلاث جمع ، فإن صلحت سريرتي استقمت ، وإن فسدت تركت حماة إلى حيث شاء الله تعالى ، فلست في حاجة إلى أن أكتب عند الله تعالى في جريدةالمرائين، فأكون تحت غضبه ومقته سبحانهوتعالى، ولست شديد الحرص على المشيخة ، وإني واثق بوعد ربي بأن يرزقني .

أحب الإخلاص ، والإخلاص في الإخلاص ؛ حتى أكون عاملاً لربي جل وعلا ، لا عاملاً لنفسي وشيطاني .

وإني أظن أن الله تعالى لا يخيبكم ، في طلبكم منه لي العلم الكثير النافع مع العمل ، والإخلاص مع عدم الغرور والكبر والعجب ، وقد طهّر سبحانه بكم قلوباً كثيرة ، وأرجو أن يكون قلبي واحداً منها . . إ هـ »(١) .

وفي حاشية هذه الرسالة ، كتب رحمه الله تعالى :

« لي أسوة بترك الوظيفة إذا لم أكن مخلصاً بالإمام الغزالي، فقد

---

(١) من الرسائل المحفوظة .

ترك تدريس المدرسة النظامية ، وبأحد أصحاب أبي حنيفة ، فقد ترك الكلام في العلم ، وهو يشتاقه اشتياق الظمآن إلى الماء البارد ، وببشر الحافي ، فإنه ترك التحديث ، فقيل له : لو سألك الله تعالى عن ذلك ما تقول ؟ فقال : أقول : **إني ما وجدت في قلبي الإخلاص.** وقد امتنع ابن سيرين من الصلاة على الحسن البصري ، وقال : ليس لي ظفر بالنية .

فأنا إن تركت هذا الأمر ، فلي أسوة بهؤلاء الأكابر ، وإن قال الناس عني مجنون ، فقد قيلت لرسول الله ﷺ . . إهـ »

ولعل ما ورد في هذه الرسالة ، يكشف لنا سبب تركه وظيفة تعليم الصغار ، التي أسندها إليه مفتي حماة – رحمه الله تعالى – في المدارس التي أنشأها لهذا الغرض ، فقد استمر فيها ثلاثة أشهر ، ثم تركها ولحق بالعمال الذي كانوا يعملون في شق الطريق إلى حلب ، ولكن الله سبحانه ، لما سبق في علمه أنه سيكون عالم الأمة الكبير ، ما كتب له الرزق في هذا المجال ، فسافر بحثاً عن الرزق إلى طرابلس ، ثم إلى دمشق ، ثم هيأ له الله تعالى سبيل الالتحاق بالمدرسة الشرعية في حلب .

الرَّحْمَة

أخرج أبو داود والترمذي ، عن أبي هريرة رضي الله تعالى عنه ، قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « لا تنزع الرحمة إلا من شقي »

وكما نزع الله الرحمة من قلوب الأشقياء، جعلها في قلوب الأصفياء والأولياء والأتقياء .

ولقد خص الله سبحانه وتعالى قلب سيدي - رحمه الله تعالى - بقسط وافر منها، مازادتها قسوة الحياة المادية للقرن الرابع عشر الهجري إلا ظهوراً وبروزاً ، وكان من آثارها ، رقة قلبه ، ونداوة نفسه ، وغزارة دمعه .

هذا القلب الرحيم أتعب صاحبه كثيراً ، وحمّله فوق مايحمله عظام الرجال ، فقد جمع عليه هموم الاسلام والمسلمين في مشارق الأرض ومغاربها ، فكل كيد يوجه للاسلام يضيف له هماً جديداً ، ولكل مصيبة تصيب المسلمين ، وقع شديد على القلب الكبير المترع بهموم الاسلام والمسلمين ، وما أكثرها في هذا الزمن ! .

هذه الهموم الدينية المحضة ، عامل رئيسي من العوامل التي أدت إلى تسريع العلة في كبده رحمه الله تعالى ، وما كان يستطيع انفكاكاً عنها ، ومن ذا الذي يستطيع انفكاكاً عن قلبه وعن فطرته التي فطره الله عليها !!.

وما من مرة جلست إليه - رحمه الله تعالى - إلا حدثني عن همومه وآلامه وشفقته على الاسلام والمسلمين ، حتى بعد ظهور العلة في كبده ، ونصح الأطباء له بالابتعاد عن التعب الفكري والنفسي ، لم يستطع - رحمه الله - أن يخلي قلبه - ولو لفترة من الزمن - عن هموم الاسلام الذي وقف حياته عليه ، ولقد قلت له مرة : يا سيدي أشفق على نفسك ، وأشفق على محبيك ، الذين تحترق قلوبهم وتذوب

نفوسهم ، كلما هجمت العلة عليك . فأجابني رحمه الله :

« كيف لا أتألم والاسلام يذبح ، وتنزف دماؤه أمامنا ؟ »

وفي أشد المراحل التي مر بها – رحمه الله تعالى – أثناء مرضه ، لم تستطع آلام المرض أن تنسيه مشاكل المسلمين وآلامهم، ولعل الطبيب السيد مأمون شقفة يذكر تلك الليلة الرهيبة ، عندما اشتد النزف الداخلي عليه ، واجتمع الأطباء حول الشيخ ، يبذلون جهودهم لنقل دماء جديدة إلى جسمه ، وقد تألم – رحمه الله تعالى – في تلك الليلة آلاماً لا يعلم مداها إلا الله ، فكلما ثقبوا عرقاً لتسييل الدم خلاله ، ينسد بسبب التخثر ، وكم كانت دهشة الطبيب عظيمة ، عندما رفع الشيخ – رحمه الله تعالى – رأسه إليه ، سائلاً له عن مشكلة اجتماعية بين عائلتين – كان الشيخ يحاول حلهاقبل مرضه – هل انتهت ؟ ولما أجابه بالنفي ، أخذ الشيخ يحمِّله بعض الوصايا إلى بعض من لهم علاقة بها ، تساعد في إنهائها . وكان – رحمه الله تعالى – يبذل جهوداً كبيرة في تخفيف آلام المتألمين ، ومواساة المحزونين ، وتفقد اليتامى والأرامل والمحرومين ، وكم أزال من خصومات بين الناس، وأزاح عن قلوبهم من أكدار وأحزان ، وقلَّ أن تجد بيتاً في حماة إلا وللشيخ فيه أثرصالح. منح الناس فكره وقلبه وماله ،فعلَّم جاهلهم ، وأرشد حائرهم،وواسى محزونهم ، وساعد محتاجهم ، وشاركهم في أفراحهم ومسراتهم ، كما شاركهم في أحزانهم ، فكان لهم قبل أن يكون لنفسه ، وإن الانسان ليعجب كيف تمكن من كل هذه الأعمال إلى جانب أعماله العلمية الضخمة ، فضلاًعن الحيطةالصارمة التي كان يأخذنفسه بها في أموره عبادته .

لا يمكن أن تسير معه في طريق ، إلا وتلاحظ كيس نقوده يخرج عدة مرات لمساعدة المحتاجين ، ويغيِّر الطريق أحياناً ليتفقد أرملة أو عاجزاً . وقف مرة أمام بيت لاباب له ، فنادى امرأة باسمها ، فلما خرجت إليه ، سألها عن باب البيت ، فقالت : ياشيخي إن المال الذي قدمته لنا لم يكف ، فأخرج كيس نقوده ومازال يعطيها حتى قالت له : أصبح الآن كافياً

ولم تمنعه هيأته الدينية ووقاره العلمي ، من الركض في شارع مزدحم من شوارع اللاذقية ؛ ليأخذ بيد طفل ضائع ، ولم يتركه حتى سلمه لأمه .

وإذا أردت أن تعرف مقدار رحمته للحيوان ، فاسأل العصافير الحائمة فوق بيته ، هل نسي الشيخ يوماً أن يضع لها فتات الخبز في زوايا سطح بيته ، واسأل الكلاب الشاردة ألم يحمل لها الشيخ بيده قطع الخبز .

أصاب سائق السيارة التي يركبها الشيخ بسيارته كلباً خطأً على طريق حمص ، فأسرع – رحمه الله تعالى – إلى حماة وكلف الطبيب البيطري أن يخرج لمعالجته ، وكان يوماً بارداً ، ومع ذلك ؛ لم يجد الطبيب بداً من الخروج تنفيذاً لرغبة الشيخ – رحمه الله تعالى – ولما عاد وأخبر الشيخ أنه وجده ميتاً تألم الشيخ كثيراً ، وتصدق على الفقراء ، رجاء أن يغفر الله ما اعتبره – رحمه الله تعالى – ذنباً يؤاخذه الله عليه .

ورأى – رحمه الله – مرة في أحد شوارع اللاذقية كلباً يبحث في

كومة تراب ، فظنه جائعاً ، فالتفت إليّ وقال : إن هذا الكلب جائع ، وعلينا أن نطعمه ، فاستأذنته أن أذهب لأشتري خبزاً لإطعامه ، ولكنه أصر أن يذهب بنفسه رغم تعبه ، وذهب - رحمه الله - إلى المخبز ، فاشترى رغيفاً ، وعاد إلى الكلب وأخذ يرمي له قطع الخبز.

وسمع مرة وهو في طريقه إلى البيت بعد الدرس المسائي صوت هر في داخل أحد الحوانيت المغلقة ، فسأل الحارس عن صاحب الحانوت ، وأخذ يبحث في الليل عن بيته ، حتى وجده وطلب منه أن يذهب لإخراج الهر من الحانوت .

وإذا كنت تمشي معه ، فاحذر أن تطأ على نملة ، وانظر إلى موطىء قدمك ، حتى لا تقع على مجمع نمل أو ذر ، وإلا تعرضت للوم الشيخ ، وسببت له حزناً وألماً .

الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر

قال تعالى : (ولتكن منكم أمة ، يدعون إلى الخير ، ويأمرون بالمعروف ، وينهون عن المنكر ، وأولئك هم المفلحون)[1] .

وأشهد أن سيدي - رحمه الله تعالى - كان في حياته من الأمة الآمرة بالمعروف والناهية عن المنكر ، ويشهد معي كل من عرف الشيخ - رحمه الله تعالى - فلقد كان يحمل قلباً مرهف الإحساس ،

---

(١) آل عمران : ١٠٤ .

سريع التأثر لرؤية المنكر ، شديد الغضب لربه ، لاتأخذه في الله لومة لائم ، صدّاعاً بأمر الله تعالى ، الناس في نظره أمام الحق سواء ،رزقه الله تعالى قوة ملاحظة لكل ما حوله ، فلا يدخل بيتاً إلا وتختفي منه كل المنكرات .

وإياك أن تقترب منه وفي يدك خاتم ذهب ، فهو نزّاع الخواتم المحرمة - وما أكثرها - من أيدي العامة والخاصة والرؤساء والمرؤوسين .

وإياك أن تذكر أحداً في مجلسه بسوء ، فمجالسه - رحمه الله - العامة والخاصة مجالس العلم والأدب، لاتُؤْبَنُ[1] فيها الحرم،ولاترفع فيها الأصوات ، ولا تؤتى فيها المنكرات .

ومن المعلوم أن الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر ، يحتاج إلى شجاعة فائقة ، وتحمل كبير لأذى الناس ، خاصة في هذا الزمن الذي ألف فيه الناس المنكرات، وانغمسوا في الشهوات، حتى أصبحوا لا يعرفون معروفاً ولا ينكرون منكراً ، عباد شهواتهم وأهوائهم . ولك أن تتصور شجاعته - رحمه الله تعالى - إذا عرفت أنه ما كان يسكت على منكر مهما كان فاعله : رئيساً أو مرؤوساً ، جاهلاً أو عالماً ، قريباً أو بعيداً .

والعجيب أن كثيراً من الناس ، مهما اشتد عليهم الشيخ في الإنكار ، ازدادوا حباً له وإقبالاً عليه ، وتقبلاً لنصائحه وإرشاداته . كسب كثيراً من الأصحاب والأحباب بسبب نهيه لهم عن أخطاء

---

(١) لا تؤبن : لا تعاب .

وقعوا بها أو منكرات كانوا يقارفونها، ولذلك قال - رحمه الله تعالى - : « المواقف التي وقفتها في الذود عن حياض الايمان ، أكثرت أوليائي وأعدائي ، فأنا أعيش في قلوب محباً إليها ، كما أن قلوباً أخرى تبغضني؛ لأني كالحسكة في حلوق أصحابها : (وكفى بالله ولياً وكفى بالله نصيراً) . . إهـ »[1] .

وإن هذه الصفة هي التي حببته إلى المصريين ، واشتهر بها بينهم بالشيخ الحموي ، لكثرة نصائحه وإرشاداته وتنبيهاته لهم ، وإن تعرفه على الشهيد حسن البنا - رحمه الله تعالى - كان عن هذا الطريق، فقد حضر الشيخ له محاضرة ، فأحصى له تسع أخطاء علمية ، فذهب الشيخ إليه بعد المحاضرة ، وذكرها له ، فتقبلها الرجل العظيم ، وأعلن تراجعه عنها في المحاضرة الثانية ، بعد أن أثنى على الشيخ الحموي . وكان هذا أول التقاء للقلبين الكبيرين، تحول بعد ذلك إلى امتزاج روحي، ومحبة وجدانية صادقة بين الرجلين العظيمين . ظهر ذلك في حديثه عنه الذي قال فيه : « صحبته في مصر سنين ، وحديثي عنه لو بسطته لكان طويل الذيل ، ولكانت كلماته قطعاً من قلبي ، وأفلاذاً من كبدي ، وحرقاً من حرارة روحي ، ودموعاً منهلة منسجمة ، تشكل سيلاً من فاجع الألم وعظيم اللوعة . . إهـ »[2] .

الصراحة ورهافة الحس الديني كانا طبعاً له ، فما كان - رحمه الله تعالى - يطيق رؤية المنكرات ويصبر عليها ، ولذلك نصحه العالم

---

(١) ضيف الحضارة .

(٢) المرجع السابق .

الكبير (الشيخ زاهد الكوثري) – رحمه الله تعالى – عندما التقى به في مصر ، نصحه أن لا يختلط بالناس كثيراً ، حتى يوفر على قلبه الآلام التي تسببها له رؤية المنكرات المتفشية بين الناس ، ولما ألح المسؤولون عليه ليقبل منصب الإفتاء في حماة ، كان يقول لهم في جملة اعتذاره عن قبول هذا المنصب : «إنني لا أصلح لهذا المنصب ، لأنني كالحجر في القطرميز كيفما استدرت كسرت » ، يعني بذلك – رحمه الله تعالى – أن هذا المنصب سيضطره إلى الاختلاط بأناس كثيرين، ورؤية منكرات كثيرة ، لا يسكت – رحمه الله – عليها .

ولم يكن – رحمه الله تعالى – في أمره بالمعروف ونهيه عن المنكر يتبع أسلوباً واحداً مع كل الناس ، بل كان ينزل الناس منازلهم ، ويخاطب كل إنسان بلغة يفهمها ويقبلها بوقت واحد ، يبحث عن جانب الخير عند الانسان ، فيدخل إلى قلبه عن طريقه ، ومايزال ينمّي عنده هذا الجانب ، ويثني عليه به ، حتى يفتح له قلبه ، ويسلم للشيخ قياده ، وعندها يوجهه – رحمه الله تعالى – إلى الحق ويبعده عن المنكر . وما كان – رحمه الله – يداري في الحق أو يماري ، ولقد قال لأحد المسؤولين وقد أتى بيت الشيخ زائراً – : «الأمة بيننا وبينكم ، أنتم تحكمون ظواهرها ونحن نحكم قلوبها» وقال لآخر : «والله إن الروح لترخص في سبيل العقيدة» . وحاول أحد المسؤولين في في عهود سابقة ، أن ينتزع من الشيخ اعترافاً بشرعية عمل سيقوم بتنفيذه ، وهو ليس شرعياً . فما كان من الشيخ بعد جدال طويل إلا أن انتفض قائماً وهو يقول: **« هذا العلم أمانة في أعناقنا ولن نخون**

أمانة الله » وترك المجلس وخرج . وقابله بعد ذلك هذا المسؤول على طريق حمص عائداً إلى حماة ، فدعا الشيخ إلى السيارة ليوصله بها إلى حماة ، فأجابه الشيخ : «هذه السيارة ملك للدولة ، ولا يجوز لك أن تستعملها إلا في المصالح العامة ، فكيف تدعوني إلى استعمالها ؟ » . ورفض – رحمه الله – دعوته . ودعاه مرة رئيس الدولة في بعض العهود لحضور حفلة رسمية ، تقام في حمص ، فأجابه : « إنها ستقام في مكان تشرب فيه الخمور ، وسيحضرها النساء مع الرجال ، فلا أستطيع مشاهدة هذه المنكرات » .

وعندما كان في الأزهر ، اصطدم بأحد أساتذة الأزهر ، وعرض نفسه لغضبه وانتقامه ، لأنه أعلن مخالفته لبعض آرائه التي تخالف الاسلام ، وحصل ذلك عندما سأل هذا الاستاذ سؤالاً أثناء أحد الامتحانات ، حول موضوع كان سيدي – رحمه الله تعالى – يعتقد خلافه ، واضطر الطلاب إلى الإجابة بما يوافق أستاذهم ، إلا الشيخ – رحمه الله تعالى – فقد أجاب بالحق الذي يعتقد ، وأيده بالأدلة التي تكشف زيف ما يراه أستاذه ، وأتى الأستاذ في اليوم الثاني معلناً غضبه على صاحب هذه الإجابة ، مهدداً متوعداً ، بينما الطلاب يتهامسون قائلين : **هذا عمل لا يفعله أحد غير الشيخ الحموي** .

ولعل أحسن شيء في هذا الموضوع ، أن نستمع إلى سيدي – رحمه الله تعالى – يقول في إحدى خطبه : « كن أيها المؤمن حراً غير مستعبد لأهواء الخلق ونزعاتهم ، إذا رأيت ما لا يتفق وتعاليم الشريعة الاسلامية ، فلا تكن ممالئاً على الباطل ، ولا تكتم الحق وأنت

تعلم ؛ فتكون شيطاناً أخرس ، تلجم بلجام من نار يوم القيامة . وليكن خوف الله تعالى أخوف الأشياء عندك ، ولتكن خشيته مالئة قلبك وفائضة على جوارحك ، اصدع بالحق واجهر به ، ولا عليك إن رضي فلان أو سخط فلان ، فإن الله أجل وأعظم من الجميع . والله ما أفشى المنكرات وعمّمها، وجعلها ظاهرة لا يبالى بها ، إلا اغضاؤنا على القذى، وسكوتنا على الباطل ، وممالأتنا لأصحابه . ماضر الجماهير شيء كسكوت الواعظين ، حين يرون المخالفات العلنية ، فلا يزجرون عنها ، وما كثّر عدد المبطلين إلا عدم تقريعنا أدنياء الهمم وصغار النفوس ، الذين يطلبون رضاء الناس بسخط الله عز وجل . هذا الذي زعزع كثيراً من الناس عن مبادىء الشريعة ، وجعلهم يسعون وراء أبناء الدنيا ، لينالوا من حطامها وأوساخها التي يرميها إليهم المترفون .

ألا إن من كان مع الله كان الله معه ، وإن العاقبة للمتقين، أتقياء القلوب ، ذوو الضمائر النقية ، لهم العز والشرف في الآخرة والأولى ، يعرف لهم أعداؤهم مكانتهم وقدرهم ، ولهم القبول في القلوب ، والذكر العطر ، والثناء الحسن في حياتهم وبعد مماتهم ، والله تعالى هو الذي يطلق الألسنة بمدحهم حين أفردوه بالقصد ، وصدقوه وهو الذي بيده كل شيء .

وأما الوسخون عبيد المنافع ، فلهم السخط من الله تعالى ، بل ومن العباد أيضاً ، ولهم الذلة والصغار وكمال الحقارة ، حتى عند من يبتسمون لهم ليسخروهم في أغراضهم، ولهم قبيح الذكر أحياءً وأمواتاً، قلّبَ الله تعالى القلوب عليهم حين أعرضوا عنه ، والتمسوا رضاء

الناس بسخطه جل وتقدس ، والله تعالى هو مقلب القلوب . ا هـ »[1]

الزّهـدُ والتواضع

الزهد في اللغة : ترك الميل إلى الشيء ، وفي اصطلاح اهـل الحقيقة : هو بغض الدنيا والإعراض عنها ، وقيل هو ترك راحة الدنيا طلباً لراحة الآخرة، وقيل هو أن يخلو قلبك مما خلت منه يدك .. إهـ»[2]

ولقد حقق سيدي - رحمه الله تعالى - في حياته هذه المعاني الثلاثة للزهد ، فقد أبغض الدنيا وأعرض عنها ، واشتاق إلى الآخرة وأقبل عليها ، فلم يكن طيلة حياته عاملًا لدنياه بل لآخرته ، وكان - رحمه الله تعالى - يقول عندما يخدعه بعض الباعة : أنا لست من رجال الدنيا . وعرضت عليه المناصب الرفيعة التي تطمح إلى أقل منها أنظار الكثير من الناس ، فرفضها ، وكلما ألحوا في عرضها عليه، ألح في رفضها والتعالي عليها . عرضوا عليه منصب الإفتاء في حماة ، فرفضه عدة مرات ،ولم يسندوا هذا المنصب إلى أحد طيلة الفترة الأخيرة من حياته، رجاء أن يقبل ، فما قبله - رحمه الله - ورعاً وزهداً ، وكلما اجتمع بمسؤول كان يقول له : **« لا أريد منكم رتبة ولا راتباً »** وطلبوا منه أن يذهب لحضور بعض المؤتمرات العلمية على نفقة الدولة ، فرفض خشية أن يكون فيها ما لا يرضاه دينه وورعه ، وعرضوا عليه الحج مع

---

(١) من الخطب المكتوبة .
(٢) التعريفات للجرجاني .

بعثة الشرف الرسمية ، فأجابهم لقد حججت بمالي ، ولا يجوز أن أترك تعليم طلابي للذهاب إلى حج النفل . وفكروا في بعض العهود تكليفه بوزارة الأوقاف ، فلما سألوا عنه ، قيل لهم : إن هذا الرجل لايستلم مثل هذه المناصب . وكان يردد دائماً : **العلم عندي أفضل من الملك** .

ولقد غلب عليه في آخر حياته الشوق إلى الله تعالى ، حتى أصبح يرى في النُزه التي كان يقوم بها ترويحاً عن نفسه وتخفيفاً من متاعبه ، كان يرى فيها حظاً من حظوظ الدنيا ، لذلك أخذ يدعو قائلاً : اللهم أخرج حب النزه من قلبي . مع أنه – رحمه الله تعالى – ما كان في نزهاته إلا عابداً لربه سبحانه وتعالى .

وتحقق أيضاً – رحمه الله تعالى – في المعنى الثاني للزهد ، فقد ترك راحة الدنيا، وأتعب فكره وقلبه وجسمه من أجل راحة الآخرة، فما ترك تعليم الناس وإرشادهم وأمرهم بالمعروف ونهيهم عن المنكر طيلة حياته ، حتى في مرضه الذي توفاه الله به ، وما أراح قلبه من هموم المسلمين ، حتى في أشد مراحل مرضه ألماً وخطراً ، أضنى جسمه – رحمه الله تعالى – وأحرق فكره في الساعات الطويلة التي كان يقضيها بين كتبه ، تحضيراً لدروسه ورداً على رسائل السائلين ، فقد كان دائم التنقل من ميدان إلى ميدان ، يخرج متعباً بعد صلاة العشاء من الدرس ، فيذهب لعيادة مريض ، أو مواساة محزون ، أو لإصلاح بين الناس ، وإذا وجد فراغاً في بعض الليالي ، ذهب إلى بعض المحلات التي يجتمع فيها الناس ، فيقضي السهرة كلها في تعليمهم وإرشادهم ، وكنت إذا ذكرته بتعب جسمه ، يجيبني – رحمه الله – قائلاً : وماذا

أفعل ! هذا واجبنا ، والقوم لا يحضرون الدرس في المسجد .

وإن كل من زاره في بيته البسيط ، في حيه المتواضع ، عرف مقدار زهده في الدنيا ، حصر نفسه وعائلته فيه ، وتحمل ضيقه ومتاعب الطريق في الوصول إليه من أجل آخرتـــه ، ورفض عروضاً كثيرة ليتحوّل إلى بيوت أوسع سكناً ، وأجمل موقعاً ، خوفاً أن تكون في أصلهاوقفاً أوغصباً .

وحقق أيضاً ـــ رحمه الله تعالى ـــ المعنى الثالث للزهد ، فخلى قلبه مما في يده ، فضلاً عما في أيدي الناس . فما رأيت أكثر صدقةوبراً منه ، لا يرد سائلاً ولا يخيب طالباً ، ولا بد أن يكرم كل من يزوره وما أكثر زواره ! وإذا سافر إلى بلد يتوارى فيها عن عيون أصدقائه وأحبابه ، حتى لا يكلفهم مؤنة تكريمه ، رغم أنه كان يشتاق لرؤية بعضهم وزيارتهم ، حتى إنه إذا مرّ ببلدة له فيها أصحاب كثيرون،يوصي السائق أن يمر بطرفها ، وأن يسرع خـلال ذلك ، ويغطي في بعض الأحيان عمامته ومعظم وجهه ، حتى لا يراه أحد ، وكان يقول لي : الناس في ضيق مادي ولا أريد أن أكلفهم ولائم من أجلي .

والتواضـع من ثمار الزهد ، فما كان ـــ رحمه الله ـــ يرى لنفسه امتيازاً على أحد ، يكره القيام له ، ويقول لمن يقوم له : **كأنكم تقومون على قلبي** ، يسعى جاهداً ألا يشعر تلاميذه أن له ميزةعليهم، فإذا نادى أحدهم ساهياً باسمه ، اعتذر بعد ذلك منه ، يخدم ضيوفـــه بنفسه ولو كانوا تلاميذه ، ويقدم لهم الطعام بيده ، يحمل حاجاته ولا يكلف أحداً بحملها ، ينزل إلى السوق ويشتري حاجات بيته بنفسه ،

يتمنى ألا يعرفه أحد ، ولقد سمعته مراراً وهو يقول : « ما أجمل حياة الذي إذا حضر لا يوقر ، وإذا غاب لا يفتقد » لا يسمح لتلاميذه أن يسيروا خلفه ، بل كان يأمرهم أن يتفرقوا ، مستشهداً بكلمة الرفاعي — رحمه الله — : كم طيَّرت طقطقة النعال خلف الرجال من عقول . ولا يسمح لهم أيضاً بأن يُطروه إطراءاً زائداً عن حدود الشرع ، ولما كتب له أحد تلاميذه رسالة أطرى فيها الشيخ كثيراً أجابه قائلًا :

« وبعد : فأرجو الاقتصاد في التعبير ، ولنكن شرعيين ، فإنه يرضيني ما يرضي الشرع ، ويسخطني ما يسخطه . إنه لا يجوز تقبيل الأرض فما ورد من هذا في كتابك إليَّ ، لا يجوز شرعاً ، ولقد انقبضت نفسي لما رأيته ، حتى لقد ضربت على الجملة التي أفادت هذا المعنى، ولقد نص فقهاؤنا — رحمهم الله تعالى — على حرمة تقبيل الأرض بين أيدي العلماء وغيرهم من المعظَّمين . فلنقف عند حدود الله ولا نتعدَّها . . إ هـ »[1] .

الوَفَاء

إذا أردت أن تعرف وفاء الرجل فانظر حنينه إلى وطنه ، وما من بلد حل فيه سيدي ؛ إلا حن إليه ، كأنه ترك جزءاً من روحه وقلبه فيه ، فكيف كان حنينه إلى بلده الذي نشأ فيه ؟

---

(١) من الرسائل المحفوظة .

وإذا أردت أن تعرف مدى حبه لوطنه ، فاستمع معي إليه وهو في حلب أثناء دراسته في مدرستها الشرعية .

يا عين جودي بدمع منك مدرار ... على زمان مضى والأهل والدار
أيام أرتع في ظل النعيم ومن ... طيب المسرة قد قضيت أوطاري
سقياً لدهر مضى والأنسُ يجمعنا ... ويتجلي البدرُ محفوفاً بأزهار
رعى الإله بقاعاً طاب مربعُها ... فيها حييتُ وفي جناتها داري
فإن ذكرتُ الحمى حنّ الفؤادُ له ... إذ في المصائب قد قضيتُ أسفاري

وله على العاصي ذكريات عذبة يحن إليها قائلاً :

يرحمُ الله عهدَنا يوم كنا ... إذ رشفنا من الكؤوس زلالا
كنتُ حول العاصي وبين جنانٍ ... ألبستها يدُ الإله جمالا
مذ جرى الريح في الرياض عليلاً ... وغدا الغصن زاهياً مختالاً
وتجلتْ شمسُ السماء مليكاً ... يملأ الكونَ هيبةً وجلالا
ما ألذ المقام بين ربوعٍ ... قد حباها الجمال ربي تعالى
يا أهيلَ الوفاءِ إن فؤادي ... من فراقِ الأحباب ذاق الوبالا
قد بعدتم وفي حشاي سعيرٌ ... وهنائي قد غاب عني وزالا

ويئن قلبه شوقاً إلى حماة فيخاطبه معاتباً :

يا قلبُ ويحك كم تئن ... بليلك الساجي دجاهْ
تتذكر الإلف الجميـ ... ـل وطيبَ عيشٍ في حماهْ
أوّاه ما أحلى أويـ ... ـقاتٍ مضتْ أوّاه آه
عيشٌ لذيذٌ ناعمٌ ... وزماننا بالأنس زاهْ

البعدُ قد سحق الفؤا	دَ فصار ميْتاً في حشاهْ
ليتَ التداني عائدٌ	فنذوقَ من شهدِ جناهْ

ولما أقام في حلب ، أحبها وأحب قراها التي كان يتنزه فيها ، فقال فيها :

يا ريح إما جُزتِ جنة تاذف	فترفقي بمساكن الأصحابِ
وإذا وصلتِ إلى رياض بزاغة	فاقرِ السلام على فسيح رحابِ
هلا تذكرتم مشوقاً نائياً	يهفو إلى صحبٍ له أحبابِ
يا ليتَ أياماً لنا قد صُرِّمتْ	في قربكم دامتْ مدى الأحقابِ

ولا تسأل عن مدى تألمه عندما فارق مصر بعد أن أنهى دراسته فيها ، يكفيك أن تسمعه يقول :

ذبتُ يامصر مذ عزمتُ رحيلًا	ولو اسطعتُ عشتُ فيك طويلا
صانك اللهُ من صروفِ الليالي	وتنائتْ عن جانبيك قفولا
ليتَ شعري يامصرُ هل ثَمّ عوْدٌ	بعد بُعدٍ وهل أنال وصولا
أنا إن عشتُ عن حماها بعيداً	تتخذَ القلب نحو مصر سبيلا

وإذا كان حنينه إلى الأوطان والبلدان هكذا ، فكيف كان حنينه إلى القلوب التي أسكنها في قلبه ، وإلى الأرواح التي امتزجت بروحه ، وهو الذي كان يصرّح أنه من كثرة تأثره على فراق أحبابه عند نهاية دراسته في حلب ، جعله حينما ذهب إلى مصر يود ألا يصاحب أحداً ؛ كي لا يتأثر حين فراقه .

ذروة الحنين والشوق في قلبه كان لرسول الله ﷺ .

يا حبيب الرحمن يا صفوةَ الخلـ ـقِ ويامنيتي وراحةَ روحي
يا وليي وسيـدي وإمامي أنتَ لي خير مشفقٍ ونصيحِ
لا أبي لا أخي ولا صدر أمي لا ولا ذو الإخاء خِدنُ الروح
بلغوا شأوك العليّ ببرٍ أو وفاءٍ أو في الحنان الصحيحِ
يا بنفسي لُقاً ولو طرفَ عينٍ وبأهلي وكل غالٍ ربيحِ
حبّ هذا النبي سرُّ انقيادي وأخو الحب ما بـه من جموحِ

والحقُّ أن سيدي – رحمه الله تعالى – من الذين وصفهم رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم في الحديث الذي رواه مسلم عن أبي هريرة رضي الله تعالى عنه : « من أشد أمتي لي حباً ، ناسٌ يكونون بعدي ، يود أحدهم لو رآني بأهله وماله » .

ثم حنينه لشيخه ومرشده أبي النصر ، ولقد حدثتك عن تعلق سيدي به في حياته ، وأزيدك الآن عن وفاء سيدي له بعد وفاته . وقبل أن تقرأ حديثي ، اقرأ معي لسيدي – رحمه الله تعالى – هذين البيتين :

خليليّ ما فوق البسيطة كلّها ولا بين أحبابي على القلّ والكثر
ولا في فؤادي ساكنٌ أبدَ المدى سوى سيدي الشيخ الإمام أبي النصر

قلّ أن تجلس مع سيدي – رحمه الله تعالى – في مجلس ، إلا ويحدثك عن شيخه العظيم أبي النصر ، وما من مرة زار فيها حمص أو مرّ منها ، إلا زار قبر أبي النصر – رحمه الله تعالى – بل إن أكثر زياراته لحمص كانت من أجل زيارة قبر أبي النصر . هذا الوفاء تجلّى بصورة عملية في حب سيدي واحترامه لاولاد أبي النصر وأحفاده ، وهل تصدق أن شيخاً مثل سيدي بجلاله الديني ووقاره العلمي ، يقبل أمام

الناس يد شاب في سن أولاده ! لقد رأيته بعينيّ يفعل هذا في أحد شوارع إدلب المزدحمة بالناس ، في أحد أيام العيد بأحد أحفاد شيخه أبي النصر رحمهما الله تعالى .

هذا الوفاء ما كانت الأيام تزيده إلا ثباتاً ورسوخاً، ولكم كنت أسمع منه هذين البيتين للشيخ الرواس - رحمه الله تعالى - يعبر بهما عن رسوخه وثباته على حب شيخه ووفائه له :

لو تقطعتُ بوجدي إربــاً   قدمي عن نهجكم ما زاقا
وذراعي لو بسيف قُطعتْ   أبداً وجه السِّوَى[1] ماطرقا

الوفاء عند سيدي - رحمه الله تعالى - سجية من سجاياه التي فطره الله تعالى عليها ، لا تجد فيه أي تصنع أو تكلف ، زاده الخلق الديني صفاءً وجلالاً ، فمن الوفاء أن تشكر الناس وتكافئهم على معروفهم ولو كانوا كفاراً ، ورسول الله ﷺ سيد الأوفياء القائل في أسرى بدر : « لو كان المطعم بن عدي حياً وكلمني في هؤلاء النتنى لأطلقتهم من أجله » وذلك لأن المطعم أدخل النبي صلى الله عليه وآله وسلم مكة في جواره ، بعد أن منعه المشركون من دخولها بعد خروجه إلى الطائف ، وهو القائل أيضاً في الحديث الذي رواه الترمذي عن أبي سعيد الخدري رضي الله تعالى عنه : « من لم يشكر الناس لم يشكر الله » ولقد تمثل سيدي بهذا الخلق النبوي الكريم ، فما من أحد صنع معه معروفاً إلا شكر له الشيخ صنيعه وكافأه عليه ، مهما كان

---

(١) السوى : الغير

هذا المعروف قليلاً ، ولقد سمعته يثني على شخص ثناءً كثيراً، ويدعو له أكثر من مرة ، لأنه ناول الشيخ إبريق ماء طلبه منه . وبهذه المناسبة أحب أن يعلم الذين قدموا دماءهم لسيدي – رحمه الله تعالى – أثناء مرضه ، سواء في حماة أو في بيروت ، والأطباء الذين تفانوا في خدمة الشيخ وفي السهر عليه ، والأحباب الذين كانوا يبيتون حول بيت الشيخ في الليالي العصيبة ، أحب أن يعلموا جميعاً ، أن سيدي – رحمه الله تعالى – لن ينسى معروفهم هذا ، وأن الله سبحانه وتعالى سيكافئهم عليه أضعافاً مضاعفة ، ببركة هذا الوارث المحمدي العظيم .

ولما كان الوفاء سجية عنده – رحمه الله تعالى – فقد شمل كل الخلق حتى الحيوانات . وكم تدهش عندما يحدثك عن حبه لهر لجأ إلى بيته ، فرباه وحنا عليه ، ولكن الهر لما كبر عاث في البيت فساداً ، فاضطر الشيخ بعد إلحاح أهل البيت ، أن يبعد الهر إلى بيت صديق له في أطراف البلد ، وكان الشيخ - رحمه الله تعالى - يزور صاحب البيت من أجل رؤية الهر والاطمئنان عليه .

الظرف واللطف

وفوق كل هذا ، لطف نفسه ، وظرف لسانه ، وعذوبة روحه ، واسألوا كل من أسعده الحظ بمجالسته ، هل شبع من لطفه وظرفه ؟ ! وهل ارتوت نفسه من أنسه ؟ ! .

إذا جلستَ إليه ، غبتَ عن زمانك ومكانك ، وانطلقت

بنفسك وروحك ، تسبح في بحار الحبور والسرور ، وإياك إياك أن تطرح موضوعاً للبحث ،أو تستفسر عن مسألة، فأجمل المجالس ؛المجالس التي يترك الشيخ فيها إلى طبيعته وسجيته ، ففيها يفتح لك الشيخ قلبه ، فتفيض أنواره ، وتهتز أوتاره ، فتجد نفسك أمام مائدة أدبية أخاذة ، تحيّرك طعومها ، وتبهرك ألوانها ، وتنعشك روائحها .

عرف تلاميذ الشيخ هذا ، فكانوا إذا خرجوا مع الشيخ في نزهة ، تواصَوا فيما بينهم بالصمت وترك الأسئلة . وإذا أردت صحبة الشيخ في نزهة ، فاترك للشيخ اختيار المكان، فهو – رحمه الله تعالى – ذواقة للجمال ، فإما أن يأخذك إلى الجهات الشرقية من حماة ، لتجلس قرب قمة نواعير العوجيات مشرفاً على العاصي ، وهو يتهادى بين البساتين . أو يصعد معك إلى مشارفها الغربية ، لتطل على حماة ، فتشهد قمم المآذن بين أشجار الحور المتناثرة على ضفاف العاصي . أو إلى السهول الخضراء الجنوبية قرب المصافي ، حيث المياه المنحدرة من المصافي إلى الوديان . أو يجلسك قرب ساقية الري عند غروب الشمس ، تتأمل معه الغروب . وإذا وجدك متعباً اكتفى بحديقة البشريات ، وأجلسك معه تحت شجرة ضخمة ، تكاد غصونها تلامس الأرض ، مسنداً ظهره إلى ساقها ، مستقبلاً النهر وأشجار الصفصاف السابحة فوقه .

يا بنفسي وروحي تلك الأيام ما أعذبها وما أحلاها ! ذهبت بذهابه ، وانتهت بوفاته ، ولم يبق منها إلا ذكريات ، ذكريات تنتشي بها النفس ، ويحترق أسفاً على فراقها الفؤاد .

ولطفه وظرفه – رحمه الله تعالى – لا يفارقانه ، سواء في دروسه

الخاصة أو العامة ، يتحف تلاميذه كل فترة بأنواع الدعابات ، ويروي لهم أجمل النوادر الأدبية ، يروّحهم بها ساعة بعد ساعة ، ويحمّضهم بها فترة بعد فترة . وكذلك شأنه في المدرسة بين طلابه ، إذا أحس بتعب في أجسامهم وخمول في تفكيرهم ، شدّ عزائمهم ، وأزاح خمولهم بالملح اللطيفة والنكات الظريفة .

واسألوا أصدقاءه الحمصيين والمصريين ، عن مجالسه معهم ومنادماته لهم ، خاصة مع الحمصيين ، فله معهم جولات كثيرة ، فإذا أكثروا عليه وهو الحموي بينهم ، التفت إليهم قائلاً : والله لو لم يكن شيخي حمصياً ، لقلت كذا ، وقلت كذا ، مشيراً إلى النوادر الحموية الكثيرة عن أهل حمص .

وفي مصر التقى ظرف الشيخ ولطفه مع ظرف أهل مصر ولطفهم وحبهم للدعابة ، حتى اشتهر بينهم ، ولما كانت أكثر نكاتهم تتصل بالفول – طعام عامتهم الرئيسي – أصبح الشيخ عندهم ملكاً للفول ، وبايعوه على هذا ، فقال رحمه الله تعالى :

يا عصبةَ الفول دمتم لي ودمت لكم ... ودام مربعكم بالفول مزدانا
عشقتم الفول أشياخاً وشباناً ... وقد أقمتم لهذا العشق برهانا
هذي قدوركم بالفول زاخرةٌ ... أزيزها ملأ الأكوان ألحانا
وريحها عطّر الأرجاء قاطبة ... حتى غدا كل قلب فيه ولهانا
وقد أحبكم من ليس يعرفكم ... (والأذن تعشق قبل العين أحيانا)
يا عترتي يا أهيلَ الفول مجدُكم ... سامٍ وحاسدكم قد بات حيرانا
أكلتم الفول حتى جل قَدركم ... ونلتم بهواه في الملا شانا

يا ويل من لا له في جمعنا صلة ... حق له أن يذوق الجوع ألوانا
فالفول من رغبت عنه سريرته ... كان الجزاءُ قليّ والحظ حرمانا
ومن يكن راغباً فيه على شغف ... نال القبول وأوليناه إحسانا

وقال – رحمه الله تعالى – أيضاً :

ألا يا محبَّ الفول أصغِ لقولتي ... فقد عاد هذا الفول موضع فتنتي
يسيل لعابي إن شممت عبيره ... ويخذلني صبري وتضعف قوتي
وعينيَ قرت مذ رأتنيَ مقبلًا ... عليه بقلب صادق وبهمة
ألا يا محبَّ الفول خذني مربياً ... وكن سامعاً قولي مجلًا نصيحتي
ففول فؤول فاحترس من تشاؤم ... فإن اسمه يقضي بحسن المظنة
وإنك إن تأكله كل صبيحة ... ترَ الخير سحاً في الضحى والعشية
فكله بليمون وزيت طحينة ... وثوم وفجل واصطحبه بشطة
ولا تزهدنْ في هذه فهي عنصر ... له الفضل في تحصيل طيب ولذة
ألا يا محب الفول إنا لمعشر ... بلغنا بأكل الفول حد البطولة
فكن راشداً واقبل نصيحة وامق ... وعن حب هذا الفول لا تتلفت
ألا ليت شعري هل أدوم مصاحباً ... له إن بعدي عنه يسفك عَبرتي
وإن غرامي فيه غير مفارقي ... وذاك لعمر الفول أصل بليتي
وقد علم الأقوام أني مدنفٌ ... عُرفت بحب الفول بين عشيرتي
أهيب بقومي أن يهبوا لأكله ... وإني لأرجو أن يدينوا بنحلتي
ألم يعلموا مافيه من طيب مطعم ... ومن حسن لون قد تجلَّى بشقرة
عسى قدرة الفوال يعبق ريحها ... فيظهر فضل الفول في كل بقعة

وأنتم أهيل الفول أزكى تحيـة لكم من فؤاد عامر بالمحبـــة

وفي حماة ، كتب إلى أحد أصدقائه الحمويين رسالة ، يسأله عن كيفية صنع المشمش ، فقال :

« سيدي أبا عبد الله سابقاً ، وأبا أمين لاحقاً . السلام عليكم ورحمة الله وبركاته ، وبعد أداء فروض التبجيل والتعظيم لمقامكم الرفيـع الكريم أبدي ما يلي :

قيل إن لكم مهارة عظمى ، ودقة كبرى ، ويداً طولى ، في صنع المشمش الممروس المعوس المهروس إلـخ . . . فهـل هـــذا صحيـح مولاي ؟ وما إخـال الخبر إلا حقاً ، وصدقاً صدقاً ، فهل لكم – ويلكم – أن تدلونا على كيفية صنعه صنعاً جيـداً ، بحيث يسيل اللعاب شوقاً إليه ، ويشط الريال والريق انصباباً عليه ؟

أتحفونا بهذه المعرفة ، ودلونا على طريقها ، فقـد أحضرناه ، ومن نواه فصلناه، وبقي الآن جريحاً طريحاً ، فأمدوه بيدكم الشريفة، – ولومن بعد – فإنكم أهل المدد ، وإنكم سيد سند ، وفي الختـام تقبلوا مولاي الهمام ، أعطر التحية وأزكى السلام . . إ هـ» .

وسطا اللصوص مرة على غرفته في مصر ، فسرقوا ملابسه كلها ، واضطر إلى شراء ملابس جديدة غيرها ، فكتب إلى شيخه يقول :

« قد أنبت الله تعالى ريشي ، بعد أن سطا السارقون على غرفتي في غيابي ، وسرقوا منها ثيابي ، وقد شاء الله تعالى أن يلبسني ثيابـاً جديدة ؛ فالجبة جديدة ، والثوب جديد ، والطاقية جديدة ، والعمامـة جديدة ، والجراب جديد ، واللباسة أيضاً جديدة ، ولا ينقصني إلا

عروس جديدة ، وفرح بها جديد ، ولعل هـذه العروس في طريقها إليّ ، ولعلكم تدعون لي بهذا ، فقد طال الأمر عليّ ، وكاد صبري ينفد ، وأنا في بـلاد السفور ، ألقى من العنت والضيق ما يرهقني ، ويضيّق عليّ الدنيا .

معلوم لدى سيدي – قدس سره – أن الله حرم كل سبيل لقضاء الوطر إلا الأزواج والإماء . والزواج غـــير ميسور لي في مصر ، والإماء لا وجود لهن ، فكيف أصنع والجسم متين والدم غزير و . . . إلخ . .

الذي أرجوه من سيدي ، وهو أرحم الناس بي بعـد المصطفى ﷺ ، أن يتوجه اتجاهاً قوياً إلى الله تعالى في أن يزوجني في هذا الصيف الآتي ، امرأة حسناء ذات دين وفضل ، أرتاح إليها وترتاح إليّ ، وأسكن إليها وتسكن إليّ ، فقد كفاني تعباً وعناءً . . إ هـ »[1]

وبعد أن كشف الله عنه الضيق النفسي الذي اعتراه في مصر ، كتب أيضاً إلى شيخه يقول :

أي سيدي ، لقد كشف الله تعالى الضر عني بكم ، فعدت إلى غرفتي وإلى دروسي ، ودخلت الامتحان ، والله تعالى أرجـو أن تكون النتيجة سارة جميلة . وكذلك عادت إليّ شهـــوة الطعام ، فصرت آكل ولكن بشره عظيم ، حتى خشيت ألا يكفيني ما آخـذه من الراتب شهرياً ، وقد شكوت هذا إلى بعض إخواني المصريين ،

(١) من رسائل مصر .

فقال لي : اكتب إلى شيخك :(علشان يخليّ التوجه للأكل شوي شوي ، أما لانشراح الصدر معليش خلّيه يكون كتير قوي) ثم طلب مني أن أبلغكم تحياته وحبه لكم .. إهـ »[1]

ثم بعد هذا ألست معي في أن الشيخ - رحمه الله تعالى - كأنه يعني نفسه عندما كتب قائلاً :

« ومن الناس من يُعشق من حين يُرى ، فيملأ قلبك حبه ، وتحس بانجذاب عميق يقتادك إليه ، ثم إذا ما جالسته وجدته حلو الحديث ، حسن المحاضرة ، في فكاهة وظرف ، يصحبها لطف ، يزيدك به تعلقاً وله حباً ، وقد تكون من قبل في هم وحزن ، فيزولان عنك ويبدلان بالأنس والسرور ، فتتمنى ألا تفارقه ، ومهما طال مجلسكما وجدته قصيراً . . . إهـ » .

بعض أوصافه رحمه الله تعالى

كما سجلها الدكتور محمد سلمان نجار

كان - رحمه الله تعالى - زهر الربيع في هيئته ، وفي قوة الإنبات حاله ، في تواضعه كالغصن أثقلته قطوفه ، فكلامه ثمر ناضج . مهيب في أنس ، لا يمنعه الوقار من الدعابة وقد يبدؤها ، لا تحبسه الهيبة من الضحك ، فَطِن لموضع النكتة ، سريع البديهة ، مستحضر العلم ، حجة . يجود بعبرته حباً وشوقاً ، ورقة ورحمة ، خوفاً وطمعاً .

---

(١) من رسائل مصر .

دائم الفكرة ، طويل الزفرة ، غزير الدمعة . إذا تكلم تود ألا يمسك لعذوبة بيانه ، إلا إذا غضب ، تمنيت له ذلك رفقاً به ، والغريب أن بديهته في غضبه لا تفارقه ، فتقوى حجته ويسطع برهانه .

يقذف بالحق على الباطل فيدمغه فإذا هو زاهق ، صداعٌ بالحق ، صريحٌ في دين الله ، وإذا صمت لا تمل صمته لما يسري لك من قوة حاله .

كانت عصاه تخيف ، كأنها درة عمر رضي الله تعالى عنه ، إذا رغّب أوقف سامعيه على أبواب الجنة كأنهم يعاينون النعيم ، فتطير أرواحهم شوقاً إليها ، وإذا رهّب كأنهم على شفير النار ، يرون العذاب الأليم ، فتخفق قلوبهم خوفاً منها ، فكنا نعيش معه بين الخوف والرجاء .

كان حديداً في دين الله ، حاداً على من خالف الشرع والأدب ، صدّيقيّ الرقة ، عُمَري الحدة .

يتحرّى الصدق في أقواله وأفعاله وأحواله ، حتى احتسبته عند الله صدّيقاً ، كان عليماً بزمانه ، ينزل الناس منازلهم ، ويخاطبهم على قدر عقولهم ، شديد الملاحظة في كل شيء ، تكاد نظراته تقع على حركات جلاسه ، فيعطي كل جليس منهم شطراً من وجهه . وكان صدراً حيث جلس ، وما جلس في مكان قط إلا وظننت أن سيضيق عليه لمهابته .

قوي الفراسة ، صادق الكشف ، يكاد يحدثك بخبيئة نفسك ، يدخل إلى الناس من زوايا الخير فيهم ، وينميها لهم ، ولا يقابل أحداً بما يكره ، يقيل عثراتهم ، ويسارع في حاجاتهم .

كان إذا مشى فهمة الشباب ، يقتلع قدميه من الأرض اقتلاعاً ،

لا يلتفت ، يتخير لموضع قدمه وعصاه ، ينتهي بصره حيث ينتهي قدمه ، يكره فضول النظر كما يكره فضول الكلام .

وكان جهوري الصوت ، فيه غنة خفيفة ، تزيده عذوبة وجمالاً ، إذا سمعته أخذتك قشعريرة العبقرية .

فيه حدة يطفئها بالحلم ، لا يغضب لنفسه ، ولا يدع لأحد في عنقه ظلامة — ولو بشطر كلمة — إلا استسمحه ووفاه حقه .

وكان من سادات أهل الفتوة والكرم ، تأوي إليه الضيفان ، ويطلق يده في الإحسان ، ويحب كثرة الأيدي على الطعام ، يحسن إلى الجوار ويتحمل بوائقهم .

كان رقيق الشعور مرهف الإحساس ، يضم بين جنبيه نفساً شاعرية ، لكل لون من ألوان الجمال في الطبيعة وقع خاص في نفسه الشريفة ، يطرب لصوت الميزاب ينهمر بالمطر ، أو حفيف أوراق الشجر . منوّر القلب جميل الصبر ، كثير الشكر سليم الصدر ، سريع الرضى . تحدثك ملامح وجهه الشريف بما انطوى عليه من الصفاء ، فكأنما تنظر إلى الماء أو إلى البدر في كبد السماء . يؤثر قضاء حوائجه بنفسه على كثرة المتسابقين إليها ، ولا يرى لنفسه حقاً على أحد ، ويقول : « **أخشى أن يكون حظي من العلم التعظيم** » . زهد في الدنيا فأحبه الله ، وزهد بما في أيدي الناس فأحبه الناس ، فرّ من الشرف فاتبعه الشرف ، زهد في المناصب فسعت إليه ، ثم رفضها وتوقفت عليه .

يحب الوفاء ويحث عليه ويتمثل له ، فيقول : إذا أردت أن

تعرف وفاء إنسان، فانظر حنينه إلى الاوطان ، وشوقه إلى الإخوان، والبكاء على ما مضى من الزمان .

إذا أردت أن ترى إيماناً متجسداً ، فانظر إليه ، تر جوارحه ومنافذ روحه قد استقامت على أمر الله ، فكيف بحقيقة روحه الشريفة، ونفسه الزاكية المطمئنة ، فكأنه قرآن يمشي على الأرض . ما رآه أحد من أهل القبلة إلا أحبه ، ولا عدو إلا هابه . يدقق فكره بالحلال تورعاً ، حتى كان يضيق عليه رزقه ومنزله، ويوصي بعدم الشبع والتوسع، ويقول : **إننا في زمان من لم يأكل الربا أصابه غباره** .

ديدنه العلم ونشره ، ودرء الشبهات ، فعلمه جامع لشتى العلوم ، يكرم العلم ويجل العلماء ، يشغله ذكر الله ، رضي الله عنه وأرضاه

تطرقه الأحوال الشديدة ، فلا تفارقه حتى على المنابر ، فتبدو عيناه الشريفتان كأنهما جمرتا نار تتوقدان ، لا يطاق النظر إليهما، فيصيح تارة ويبكي تارة ، فيسري ذلك إلى من حوله بالصياح والبكاء والاضطراب .

كنت استعذب النظر إلى محياه — رحمه الله تعالى — فأسارقه الطرف ، وما استطعت أن أملأ عينيّ منه مرة واحدة ، حريص على طهارة ثوبه وبدنه ، وما وقعت عيني منه إلا على لطيف جميل طاهر نظيف ، وما اتصل نظري بنظره الشريف ؛ إلا وشعرت بأن قلبي جناح عقاب دائم الخفقان ، يريد أن يقفز إليه قفزاً ويهتز ، وما جلست إليه مرة قط وتمنيت أن أنصرف ، وما فارقته إلا وبفارغ الصبر انتظرت لقاءه .

الباب الخامس

محامده الأدبيّة

وعلى الهادي صلاة وسلام — وجميع الآل والصحب الكرام
ما شدا الحامد يوماً قائلاً — يا أحبابي بكم قلبي هـــام

محمد الحامد

تمهيد

هذا الفصل ليس دراسة لأدب الشيخ - رحمه الله تعالى - إنما هو عرض لبعض آثاره الأدبية : الشعرية والنثرية ، تكميلًا لمهمة الكتاب في تسجيل مآثره وملامح شخصيته العظيمة رحمه الله تعالى .

أما الدراسة ، فأتركها لأهل الاختصاص والمتفرغين لهذا الشأن، ومن المعلوم أن الشيخ - رحمه الله تعالى - جمع الله له العلم والأدب، فلقد كان عالماً وشاعراً ، ولكنه - رحمه الله تعالى - رجّح جانب العلم على الشعر ؛ حرصاً منه على خدمة دينه ، بيَّن - رحمه الله - ذلك في الرسالة التالية التي أرسلها إلى أحد تلاميذه :

« يا بني ، لأن تكون عالماً فقيهاً خير لك وللأمة من أن تكون شاعراً أديباً ، إننا إلى أن يكون منك عالم محقق أحوج منا أن ينشأ منك شاعر مفلق . ولقد كنت في الماضي أعاني النظم والشعر ، ثم انقلبت إلى العلم ، وإليه توجهت على ما فيَّ من خلقة شعرية عاطفية عنيفة ، حتى إني لأهتز أقوى اهتزاز لبيت من الشعر يلامس مني مكان الحس الروحي الديني ، وقد أضطرب ، وقد أبكي ، وقد تغشاني الحال التي تغشى أصحابها بشدتها ، ولكنها تقلع عني بسرعة لانشغالي

بالعلم ، وهذا من فضل الله عليّ وعلى الناس . لا بأس بقليل منه ينظم في الأغراض الشريفة والمقاصد الحسنة ، أما انصراف الهمة إليه فخسران أربأ بك عنه ، لا سيما في هذا الزمان الذي كثر فيه الشعراء والمتشعرون ، وإن في منظوماتهم ما هو رصف كلام فقط ، دون أن يكون للروحانية صلة به . . إهـ » .

ولعل ما في هذه الرسالة يغنيني عن كل حديث في هذا الموضوع ، (فأهل مكة أدرى بشعابها) ولقد تحدث سيدي عن نفسه ، فوصفها وصفاً يتعرف القارىء منه على الملامح الرئيسية لشخصية سيدي الأدبية وأبعادها ، ونظرته إلى الشعر وعلاقته به . ونظراً لاهتمامه – رحمه الله – بالعلم لم يعتن بجمع شعره ، لذلك ضاع أكثره ، وما بقي منه حرصت على جمعه ، وقد ذكرت قسماً كبيراً منه في ثنايا الكتاب ، وأذكر فيما يلي قسماً آخر منه .

قال – رحمه الله – في مدح سيدنا رسول الله صلى الله تعالى عليه وآله وسلم :

يا حبيبَ الرحمن ياصفوةَ الخلـ ... ـق ويا منيتي وراحة روحي
ياوليّي وسيدي وإمامي ... أنتَ لي خيرُ مشفقٍ ونصيحِ
لاأبي لاأخي ولا صدرَ أمي ... لا ولا ذو الإخاءخِدْنُ الروحِ
بلغوا شأوَكَ العليّ ببرٍ ... أو وفاءٍ أوفي الحنانِ الصحيحِ
يا بنفسي لِقاً ولو طرف عينٍ ... وبأهلي وكل غالٍ رَبيحِ
فنعيم اللقاء فيه حياتي ... وهنائي وفيه تشفى جروحي

حبُ هذا النبي سرُ انقيادي ... وأخو الحب ما به من جُموحِ
والمحبون طائرون قلوباً ... وبباب الحبيب كم من طريحِ
ملك الحبُ أمرهم فاستكانوا ... لهواه أسرى إسارٍ مُريحِ
ويخافون أن يكون انفكاكٌ ... أو تراخٍ يريح من تبريحِ
حبذا العيش والرضى عيشُ قومٍ ... في غرامٍ كم فيه من مستريح
وعليك الصلاة ممسىً ومغدىً ... تتوالى مع السلام الرجيح
وعلى الآل والصحاب وأهل الـ ... ـحب والمدح بالبيان الفصيح

وقال – رحمه الله تعالى – يصف أشواقه للنبي صلى الله عليه وآله وسلم :

خطراتُ الهوى تروح وتغدو ... ولقلبِ المحبِ حلٌ وعقدُ
وأخو الحب بالوفاء موافٍ ... أمره في الغرام صدق وعهدُ
شوقه طائر إلى الحبِ ما للـ ... ـشوقِ في مذهب المحبين حدُ
والهوى مالىءُ الجوانحِ منه ... إن تراخى وجدٌ تجدد وجدُ
وعذابُ التبريح يلقاه عذباً ... وعناءُ الهوى فلاحٌ ورشدُ
إن حداه الحادي جرت من جواه ... أدمعٌ في الخدود تشدو وتحدو
كله للرضا رجاءٌ ويخشى ... أن يعوق الوصالَ صدٌ وردٌ
يا هنائي إن كان يوم منائي ... منْعماً باللقا وحسبيَ وعدُ
إن راجي الرضى يسير حثيثاً ... شأنهُ في المسير سبقٌ وجدٌ
وأراني صفر اليدين فما عنديَ ... سعيٌ وهل لمثلي عند ؟ !
لا خبيء من صالح في وفاضٍ ... إن زها العاملون فيما أعدوا

ربّ ِعدْ بالحنان وارحم عُبَيداً ما له من سؤال عفوك بُدّ
وأذقه من الرضى نفحاتٍ ما إليهنّ في المذاقة ِ شُهدُ
صلّ ربي دوماً على قلب ِحبي وعلى الآل ما تردد حَمدُ
مع سلام تهنا به الروح منه ما تغنّى حاد ٍ وأقمر سعدُ

وله في مدح سيدنا رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم قصائد كثيرة ، عبّر فيها عن تعلقه الكبير بالجناب المحمدي ، ولكنها — مع الأسف الشديد — ضاعت . ومن جملتها قصيدة أرسلها عام ١٣٥٧ هـ مع أحد الحجاج ، لتتلى قبالة الحجرة الشريفة ومطلعها :

بأعتاب ِ طه لي مثال متيم يلوذ لدى الأعتاب بالذل مُعْلَم

أما أكثر قصائده المحفوظة ، فهي التي قالها في مدح شيخه ومرشده العظيم محمد أبي النصر — رحمه الله تعالى — والسبب في حفظها أن سيدي — رحمه الله تعالى — كان يرسلها إلى شيخه ، فيعطيها الشيخ إلى ولده فضيلة الشيخ عبد الباسط حفظه الله تعالى ، ليحفظها ، فجزى الله الوالد العظيم وولده الكريم خير الجزاء .

ولقد سبق لي ذكر بعض هذه القصائد ، وأزيد القارىء قسماً آخر منها .

ففي الثالث من شوال ١٣٥٦ هـ كتب — رحمه الله — وهو في مصر :

هي الروح تسري في الهوى حيثما يسري
وتصعد في نجد وتهبط في غَور

وكل مناها أن يكون أليفها ... بمشهدها والبعد من أنكر النكر
وأنكر منه أن يكون متيم ... قصياً ومرمياً بشيء من الهجر
فذاك أسى فوق الأسى ومرارة ... بجانبها يحلو الزعاق من المر
ولولا له الآمال بالقرب واللقا ... قضى حزناً أو غاص في أبحر الضر
ولكنها تبدو فيغدو بفرحة ... ويسكن مرتاحاً ويأمل باليسر
خليلي ما فوق البسيطة كلها ... ولا بين أحبابي على القل والكثر
ولا في فؤادي ساكن أبد المدى ... سوى سيدي الشيخ الإمام أبي النصر
فروحي به هامت وقلبي له عنا ... وذكراه في جهري وسري في سري
أجل إمام قام في الناس مرشداً ... فسيقت له الأرواح من عالم الذر
ونادى يهدي فاستجاب له الألى ... أريد بهم خيراً وخير على خير
فقاموا خشوعاً ثم تاهوا بجمعهم ... هياماً لشيخ الكل في محفل الذكر
وما مثله فيهم وقد لاح نوره ... عليهم إلا البدر في الأنجم الزهر
هو القطب في الإرشاد والمدد الذي ... تلين به صم الجنادل والصخر
كريم المحيا في جلال وهيبة ... وسيم إذا تلقاه يلقاك بالبشر
له الهمة العلياء علي مقامه ... وبين رجال الله مرتفع القدر
تقي سخي طيب القلب خاشع ... ألحو ضعة في نفسه واسع الصدر
يقوم ظلام الليل والناس هجع ... فيعبد مولاه إلى مطلع الفجر
وإن سمع القرآن أطرق باكياً ... ووالى بدمع في التحدر كالقطر
تبارك ربي خصه بفضائل ... ويمنح ربي من يشاء بلا حصر
لقيت شيوخاً غيره غير أنني ... وحق الهوى ما ملت عنه إلى غير
وكيف ولي عهد وثيق بحبه ... وإني واف لست في الحب ذا غدر

على أنه للروح أعظم قائــد بصير بأحوال القلوب أخو خبر

●●●●

أيا سيدي حتى م أبقى مقصـراً أسير على بطء وأعرج في سيري
وحتى مَ أفني العمر لا أنا آخذاً نصيباً من التقوى ولا مصلحاً أمري
وكم أتمنى أن تحوّل حالــتي فأقرب من خير وأبعـد عن شرّ
فبالله يامولاي جُدْلي بدعـــوة تنير بها قلبي وتصلحني عمري
ومُنْ أيا شيـخ الرجال بنظرة أعود بها في الناس منجبر الكسر
ويا صاحب القلب الرحيم تحنناً على ابنٍ لكم يشتاقكم وهو في مصر
أحبكم مولاي حباً مبرّحـــاً وحسبي هواكم مؤنساً ليَ في قبري
وأرغب في أن تلحظوني بسركم وحسبي رضاكم عدة لي في حشري
وإني والله الفقير بـــذلة وعزيَ أني للكريم أخو فقر
وحبي رسول الله للقلب مالىء وحبي رسول الله من أنفـع الذخر

●●●●

لقد نبت يا مولاي عن خير مرسل وخير حبيب من بـه معقد الفخر
رسول إله العالمـــين وحِبّــه وسيد خلق الله في البر والبحر
عليه صلاة الله ما أنّ مغرم وما دام مشتاق بسير الهوى يسري

●●●●

وفي مفكراته كتب رحمه الله تعالى :

الخميس ــ ٧ صفر ــ سنة ١٣٥٣ هـ

في هذا اليوم ، سافرت من حماة إلى حمص ، لزيارة سيدي العالم العامل والمرشد الكامل ، السيد الأستاذ محمد أبي النصر قـدس الله تعالى سره :

تترامى روحي إلى أرض حمص   وفؤادي تهزه الأشـــواق
وبروحي حِبٌّ أقام بقلبي   هو للداء كله تريـــاق

••••

وفي ٢٥ – صفر – ١٣٥٣ هـ قال رحمه الله تعالى :

هبت علينا نسمةٌ حمصيـــة   فأزاحت الأكدار عنا والعنا
والروح تسعى قبل جسمي للقا   ولقاؤكم فيـــه المسرة والهنا
أضحى فؤادي في هواكم عالقاً   وبحبكم يا سادتي متمكنا
فلكم أثار الوجد مني ساكناً   يدع الكئيب الصبَّ في حال الضنا

••••

وفي ٢٦ – صفر – ١٣٥٣ هـ قال رحمه الله تعالى :

يا سادتي والله أنتمُ مقصودي   وهواكم ديني فجودوا بالمنى
قد خالط الشوق المبرِّح أعظمي   والحب في الأحشاء أمسى ساكنا
منوا علينا بالقبول تكرماً   أنتم أولو الأفضال أرباب السَّنا
صلى الإله على الحبيب محمد   ماذاب قلب الصبِّ والظهر انحنى

••••

وفي ٨ – شوال – ١٣٤٨ هـ قال رحمه الله تعالى :

هو البدر إلا أنه ليل تمـــه   غدا مشرقاً وسط السماء منيرا
هدى الله أقواماً به كان دأبهم   فساداً وعيثاً في الديار وزورا
فإن رمت رشداً من ضلالك فاتخذ   أبا النصر شيخاً واتخذه أميرا
ألست ترى نور الهدى بجبينه   وفي حلبة العليـاء كان جسورا

فيا سيدي إني ببابك واقف　　وقد تهتُ في بحر الضلال كثيرا
وأنّى لمثلي أن يُصدولي بكم　　صلاتٌ تبدّت حين كنت صغيرا
لك الله نرجو من إلهك نفحة　　بها نتقي يوم المعـــاد سعيرا
ويدخلنا جمعاً فراديس جنة　　ونمـلأ من بحر الهناء صـــدورا
بحرمة خير الخلق أحمد من به　　نؤمّل من رب السماء أمـــورا

●●●●

وفي ١٢ – ذي القعدة – ١٣٥٢ هـ قال رحمه الله تعالى :

يا نسيماً سرى إلى أرض حمص　　بلّغ الحِبّ أنني في اشتياقي
وإذا ما وردتَ دار حبيبي　　فاسألنْه متى يكون التلاقي
يا أبا النصر زاد وجدي وقلبي　　يشتكي بعدكم مرّ طول الفراق
آه لو كنتُ في حماك قطيناً　　أحتسي الراح منك يا خير ساقي
يا إمامي وأنت قـــرة عيني　　جـــد بعطف يحل قيد وثاقي
ففؤادي من حبكم في عناء　　والحشا من فراقكم في احتراق
غير أني من فيضكم في نعيم　　وجميعي لروحكم في عناق
ولو أني أبعدت عنكم لضاقت　　بيَ أرضي وليس لي ثمّ واقي
أنت روحي وأنت في القرب أنسي　　ونعيمي ومن سقامي راقي
يا عذولاً في جهـــله يتمارى　　حب شيخي أراه حلو المذاق
وحبيبي له المحاسن تتـــلى　　ولقد بزّ في مجال السبـــاق
برضاء الإله فاز وحاز الوصل　　والقرب في أعـــز المراق

●●●●

وفي ٢٣ – ذي القعدة – ١٣٥٢ هـ قال رحمه الله تعالى :

بين المحبين سر ليس يفشيه ... خط ولا قلم عنه فيحكيه
نار تقابله أنس يمازجه ... نور يخبره عن بعض ما فيه
شوقي إليه ولا أبغي به بدلاً ... هذي سرائر كتمان تناجيه

●●●●

وفي ٢٤ – ذي القعدة – ١٣٥٢ هـ كتب رحمه الله تعالى :

وقلت في سيدي ومولاي وقرة عيني ، الأستاذ العالم العامل ، والمرشد الكامل ، الشيخ محمد أبي النصر خلف الحمصي النقشبندي قدس سره :

يا أحبايَ بكم قلبيَ هامْ ... فارحموا الصبّ الضعيف المستهامْ
واقبلوا من ينتشي من ذكركم ... وله قلب عن الأغيار صامْ

●●●●

آه ما أحلى مقامي عندكم ... أستقي من دَنّكم في كأسكم
وأراعي شمسكم في حيكم ... وحياتي تزدهي في قربكم

●●●●

إن روحي في غيابي طائرة ... وبأكناف حماكم دائرة
أنتم أنسي وروحي فيكم ... علقت والنفس فيكم حائرة

●●●●

ليتها دامت سويعات الهنا ... إذ فؤاد الصبّ يحظى بالمنى
يشهد الحِبّ وقد زال العنا ... قد دنا ثم دنا ثم دنا

●●●●

إن في حمص لنـا كل الشؤون وأبو النصر بهـا نور العيون
فهو البحر وناهيك بـــه وهو في الإمداد والفيض المتون

●●●●

أنا مفتون بشيـخ ذي جمال وجلال وعلاء وكمال
في سويداء فؤادي ساكنٌ وحبيبي كرمت منـه الخصال

●●●●

آه كم همت بكم يا سنـدي ولكم طبتُ ومنكم مـددي
ولـكم ألبستموني حـللاً يا أهيل الفضل بل والسؤدد

* * *

وعلى الهادي صلاة وسلام وجميـع الآل والصحب الكرامْ
ما شدا الحامد يوماً قائـلاً يا أحبايَ بكم قلبي هامْ

* * *

وفي عام ١٣٦٠هـ بعد وصوله إلى مصر، كتب إلى شيخه أبي النصر — رحمه الله تعالى — رسالة قال فيها :

سيدي ، قد أسمعتُ الشيـخ محمد خالد الأنصاري لما كان في حماة بعض أقوالي فيكم ، فرأيت منه عتباً ، إذ لم أقل فيه شيئاً ، مع أنـه أجازني بالأذان ، وبأعلى السند إلى النبي ﷺ عن طريق الإمام البخاري رضي الله تعالى عنه ، وقد يسر الله تعالى لي نظم القصيدة الآتية، وتوارد عليّ معظمها ، وأنا في السيارة بين بيروت ويافا ، وقد شاء الله سبحانـه — وله الفضل — أن يزينها بالنبي صلى الله تعالى عليه وسلم وبكم ، فاسمه

الكريم مشرق فيها واسمكم تالٍ له. ولعمري إن مقام سيدي – قدس سره – أحق بأن أقول فيه من مقام الشيخ الأنصاري ؛ مع احترامي إياه وتبركي به ، وهل يحن المرء إلى غير أصله ؟ وأيضاً فهل فرع الشجرة إلا منها ، وعلى هذا فقد يكون من أسرار ابتدائي به واختتامي بكم ، أن الأمور بالخواتيم، وأني أسأل الله ختاماً حسناً كحسنكم . هذا والئن أوصلني الشيخ الأنصاري إلى النبي ﷺ بسبعة عشر شيخاً هو منهم ، فأنا أعتقد أنه ليس بيني وبينه ﷺ عن طريقكم سواكم ، فأنتم الباب وعن يدكم الوصول القريب إن شاء الله تعالى . أما القصيدة فهي :

انتجع حمص مطلع الأقمار والحظ فيها بالجهبذ الأنصاري
سيد ريحه ينم عن الصدق كريم الخصال بدر ساري
علم في العلوم حبر عظيم طيب القلب ساطع الانوار
يا أبا الفضل أنت فرد بمعناك وفيض العرفان عندك جاري
كم سمعنا منكم حديثاً طريفاً والكم شقتنا بحلو السمار
ولكم كنت بالفوائد شتى هامعاً كالسحابة المدرار
نظر ثاقب وفكر صحيح في ثناياه نخبة الأفكار
فإليكم حقاً تحث المطايا يالجليل الأعمال والآثار
لكم سيدي نسبت وقد نلت بعطف منكم عظيم الفخار
إذ وصلتم هذا الحقير بقوم هم نقاة التقاة والأبرار
رأسهم أشرف الخلائق طراً أحمد الرسل سيد الأخيار
يا بروحي حديثه وحلاه كم بذاك الحديث من أسرار
ليت عيني تراه يالهف نفسي بلامي شم عرفه المعطار

ساعة الأنس بالرسول لعمري ساعة لا تقاس بالاعمار
يا أبا الطيب الأمان فإني جئتكم في مذلة وافتقار
وقديماً عداك نالوا أماناً منك لما تجلببوا بانكسار
هذه وصلتي إليكم بإسناد حبانيه شيخي الأنصاري
قد علا واستنار فهو قريب وقد ازدان بالإمام البخاري
فبأشياخي الكرام أجرني - يا ضيا العين - من عذاب النار
فدعاكم حاشا يرد وكم حط به ذو الجلال من أوزار
وبمولاي ذي الأيادي أبي النصر أرجي دخول دار القرار
سيد الأولياء بدر سناهم الحسيب النسيب رحب الدار
هو والله في فؤادي مقيم حاضراً أو أكون في الأسفار
كم سقاني من الشراب لذيذاً ولكم حلني من الآصار
ولكم بت في حماة أراعي وجهه المستنير بالأذكار
ولكم هاجر المنام يناجي ربه في دياجر الأسحار
يا رسول الإله هذا أبو النصر بكم قد بدا علي المنار
فاقبلوني بحبه فأخو الحب يجازى بالعفو والإغتفار
أدخلوني به رحاب التداني خالصاً من شوائب الأكدار
وصلاتي كذا السلام عليكم كلما ذر شارق الأقمار
وعلى الآل والصحاب جميعاً والمحبين يا كريم الجوار

* * *

ومن شعره الوجداني القصيدة التالية التي قالها في مصر سنة ١٣٥٧ هـ :

ضاقت الأرض بالغريب الكئيب ... فتولى وصفوه في النحيب
غرقت نفسه بلجة هم ... وعلاه من فوق موج الكروب
زفرات له تخال جحيماً ... وهو إن أن قلت: أن حريب
كلما لاح بارق برجاء ... عرض الحظ عابساً بقطوب
وتوالت سوء المصائب تجلى ... بعصيب يجيء إثر عصيب
حيل بيني وبين راحة قلبي ... فهو باك من شدة التعذيب
وأشد العناء ما كان في القلب ... وهذا البلاء كان نصيبي
غير أني وإن دهتني الدواهي ... آمل رحمة القريب المجيب
في ليالي الآلام يرتقب الفجر ... إذا مادجى ظلام الخطوب
رب إني إليك محض افتقاري ... فأعذني من لوعة التنحيب
وأجب دعوتي وحقق رجائي ... وارحمن غربة النئي الغريب
وأفض نعمة على القلب فيها ... نفحات من فيضك المصبوب
وأدم لي كما تحب رشادي ... وأنلني من الرضا مطلوبي
ومن الله كل آن توالى ... صلوات على الرسول المهيب

* * *

وفي مصر استبدت به الأشواق إلى أحبابه فقال :

آه مما تلقى سويدا فؤادي ... من غرام محرّق وقّاد
قد ألح الوجدُ المبرّح في القلب ... وتاقت روحي لأهل ودادي
وتهافت مدنفاً من هواهم ... والهوى قد يذيب قلب الجماد
آه من مهجتي ومن حر قلبي ... زاد وجدي في يقظتي ورقادي
إن تراءوا للروح في النوم أصبحت ... وأنسي وفرحتي في ازدياد

أو أتاني منهم لطيف كتاب   عظمت منهم لديّ الأيادي
يا أهيل الوفا تحية قلب   قلبته نار الجوى والبعاد
إن هجرتم ففي حناياه باكٍ   أو وصلتم ففي الجوانح شادي

* * *

وقال في الاستغفار :

يا أرحم الرحماء مالي حيلة   إلا الرجوع إليك يا رباه
أناقد أسأت وأنت رب غافر   غوثاه مما قد عرا غوثاه
ياسيدي يامن إليه شكايتي   أوّاه ممـــا نابني أوّاه
أدرك بلطفك نادماً ذا حسرة   مستغفراً مما جنته يداه
ماللضعيف إذا ألمت كربةٌ   إلا الدعـــا اللهُ يا الله
يارب نفّس عن عبيدك كربةً   وأرحْه مما قد عنا ودهاه

* * *

ومن الاستغفار أيضاً قوله :

تا الله بابُ العفو بابٌ واسعٌ   هو للألى عكفوا على الاوزار
وبرحمة الغفار أطمع أن أرى   أبداً بعيداً من عذاب النار
يا رب إن الذنب أثقل كاهلي   وغدوت محسوباً من الأشرار
بدّل بفضلك حالتي وإساءتي   حتى أضاف لزمرة الأخيار
ياقلب حُلّ عزيمة الإصرار   والجأ إلى الرب الكريم الباري
فعساه يرحم مثقلاً بقيوده   ويحلّه أمناً وحسن جوار

* * *

وقال يرثي أخاه شاعر العاصي بدر الدين الحامد :

يا لها ليلة كوتني بنار طالعتني بأسوأ الأخبار
غاب فيها بدر فطال سهادي وتوارى أنسي وشب أواري
سكن الرمس صامتاً بعد شدو وحداء حلو كسجع الهزار
لهف نفسي عليه أمسى وحيداً ولقد كان نزهة السمار
يملأ القوم حكمة وبياناً ونظيماً من طيب الأشعار
وله صرخة إذا الخصم أزرى بكريم الأبطال والأحرار
كنت في حجره صغيراً يتيماً فرعاني رعاية الأبرار
حاطني من حنانه بإطار وبه انجاب غيهب الأكدار
ولقد كان ذا جنان رفيق بسوائي وتلك حال الخيار
ماله للأذى اعتياد وما كا ن لقلب الرحيم من أضرار
أمّل الخير والرضا أنت عبد مؤمن بالعلي ذي الاقتدار
عالق السر بالرسول أمين اللـ ـه ذي الفضل أحمدَ المختار
سيدُ الرسل وافدٌ قد أتاكم يرتجي منكم كريم الجوار
وشفاعاتكم حديثاً وقدماً لجليل الأخطاء والأوزار
رب فارحم بدراً وعامل بلطف منك عبداً أفضى لدار القرار
واجعلنْه في جنة الخلد جذلا ن فأنت العفوُ أكرم جار
صل مولايَ ما رضيت على حبّـ ـك نور الأنوار شمس الفخار
وعلى الآل ما ترتل وحيٌ وتلاه العبادُ في الأسحار

* * *

وقال في الرضى بقضاء الله وقدره:

رضينا بما قد خطه قلم القضا　　ولولا الرضا ضاقت بناسَعَةٍ الفضا
ويا أيها الثاوي وحيداً بحفرة　　من الأرض إناذا كرون لما مضى
عزاء قلوب ناضجات من الأسى　　لفقدك، أن العيش كالبرق أومضا

وكتب – رحمه الله تعالى – بين يديّ الأبيات التالية :

قلت رثاءً على لسان أحد إخواني يبكي صديقاً له مات اسمه عبد الله :

رعى الله عهداً كنت فيه رفيقي　　وأنت أعَبدَ الله خير صديق
لقد نعمت روحي بروحك حقبةً　　وما بيننا من نكرة وفروق
وها هو حزني مذ ثويت مصاحبي　　وإني بالسلوان غير حقيق
وأنى لقلبي أن يسر وإنه　　من الهم والإحراق غير طليق
سقى الله قبراً أنت فيه موسدٌ　　وجادك غيث الفضل كل شروق

وله في الحنين إلى الأصحاب والأوطان قصائد كثيرة مر بنا بعضها ، ولنستمع إلى قسم آخر منها :

قال – رحمه الله تعالى – يمدح صديقه الأول عالم المعرة الشيخ أحمد الحصري حفظه الله تعالى :

حُيّيتِ يا أرضَ المعرة　　فيك الكرامة والمبرة
فيك الحياة وفي حما　　ك الروحُ تسرح في مسرة
منك الذي هو ساكن　　في القلب إمساءً وبكرة
إن غاب عني غبت عن　　أنسي ولاقتني المضرة
أو كان عندي كان بيـ　　ـتي فوق دارات المجرة

حبّيه قد ملأ الفؤا دَ فصرت من أشباه عُذرة[1]

وكتب إلى بعض أصدقائه في مصر بعد عودته إلى حماة :

رعى الله دهراً سعدت به بعبد المعز وعبد البديع[2]
وحيّى زماناً مضى وانقضى وخلّف ذكراه بين الضلوع
أحبايَ هذا فؤادي لكم وهذي عيوني وهذي دموعي
لقد فعل الشوق بي فعله وما من مجيب وما من سميع
تركت بمصر صحاباً كراماً لهم طار شوقي وشتّ ولوعي
رجال لهم في التقى مأرب تلوح عليهم سمات الخشوع

وفي حلب حنّ إلى حماة ونواعيرها ، فقال :

آهاً على وادي حما ة إذا نسيم الصبح هبا
آهاً على تلك الربو ع وأهلها بعداً وقربا
النهر يخترق الريا ض وقد جرى حلواً وعذبا
دولابه يبكي ويسـ قي الدمعُ فاكهة وأبَّا
أنى أرى ذاك الحمى ؟ إني رأيت البعد صعبا
مذ غبتُ عنه بكى الفؤا د ومات هذا القلب كربا
يا من بقلبي ودُّهم وبحقهم لم أجن ذنبا
لا تقطعوني إنني قد كنت والله المحبا

ولما عاد إلى حماة حن إلى حلب وإلى أصحابه فيها ، فقال :

---

(١) عذرة : قبيلة عربية اشتهر أفرادها برقة قلوبهم ونبل مشاعرهم

(٢) اسمان لصديقين له من مصر .

يا رياح الشمال هُبي علَيّا وامليئني من نفح طيبك ريّا
آه لو دمت لي ودام زمان كنت فيه عن اللغوب قصيا
يا أخلايَ هل معاد إليكم يرجع العهد عهدنا الذهبيا
مذ بعد تم أعقبتموني حزناً كنت منه وقت التداني خليا
إذ سروري بكم عظيم وعيشي يا أحباي كان عيشاً هنيا
إيه يا صحب هل شجا كم بعادي؟ فلقد سيقت الكروب إليّا

ولشدة حبه للجمال وتذوقه له ، أقبل على محاسن الطبيعة يصفها ، ويتغنى بمحاسنها ، ويمجد مبدعها ، وبارئها سبحانه وتعالى .

وفي إحدى مفكراته كتب في ١٠ / ذي القعدة / ١٣٤٨ ﻫ ، فقال :

« يوشك الربيع أن يقوّض خيامه الرحيل، فودعوه بشم وروده ولثم خدوده ، واغتنام أوقاته ، وشرب كاساته ، وإني بادئكم بهذا ، فسأقوم إن شاء الله تعالى برحلة أطفىء بها أوامي ، وأروي بها غلتي ، من التمتع بجمال هذا الفصل ، والضرب في أرض الله بالطول والعرض ، هابطاً بطون الأودية ، وصاعداً قمم الجبال ، فقد فتنني الأرج اللطيف لا القد الظريف ، والحدائق الغناء لا القامة الهيفاء ، والجنان الخضرة لا الخدود النضرة ، ولا تعجبوا من هذا وإن كان جنوناً ، كذا خلقت وما لذة العيش إلا للمجانين .. إ ﻫ » .

ولما كان في مصر، قام برحلات كثيرة في بلادها وقراها ، حتى وصل إلى أقصى الجنوب إلى الأقصر وأسوان ، وزار الفيوم ورأى فيها جو بلده حماة وخاصة نواعيرها ، فقال في رحلاته هذه قصائد متعددة

ضاع - ويا الأسف - كلها ما عدا القصيدة التالية ، وجدتها في مفكرته بتاريخ ١٥ ذي الحجة ١٣٥٦ هـ قال - رحمه الله - في أولها :

في هـذا اليوم خرجت إلى منتزه القناطر الخيرية ، وعدت إلى القاهرة بعد العشاء :

خرجنا بكرة نبغي القناطرْ ... وقد علقت ببهجتها الخواطرْ
وكنا اثنين ليس لنا سوانا ... وكلٌ برٌّ صاحبه يبادر
ولما أن بلغناها بلغنا ... منىً قد كان مكنون الضمائر
ورحنا نبتغي ربعاً خصيباً ... لتحلو منه للعين المناظر
فإن القلب ذو شغف بحسن ... وحب الحسن قد سكن السرائر
جلسنا في بسيط قد تحلى ... بأعشاب له منها ستائر
وملنا هكذا حيث انتحينا ... ظلالاً نتقي حر الهواجر
وكان مرافقي خير الندامى ... يشارك في حديثي أو يشاطر
أخو فضل وذو نبل سليل ... لأمجادٍ لهم تتلى المآثر
له شيم وأخلاق ويغني ... صلاحُ الدين عن كل المفاخر
أنسنا في الخمائل واغتبطنا ... وقد نعمت بها منا النواظر
وأغصان تميّل بالأزاهر ... كما مال العذارى بالغدائر
ظهرنا فوق ظهر اليم كيما ... يزف لنا الهنا أجلى المناظر
وعدنا والسرور لنا قرين ... يسايرنا ويا نعم المساير

وحب الجمال محب للرحلة ، وسيدي - رحمه الله تعالى - كان كثير السياحة دائم التنقل ، ولما كان يدرس في حلب قام برحلات كثيرة في نواحيها وقراها والأقاليم القريبة منها ، حتى وصل إلى الاسكندرون

ومر في طريقه على مدينة أنطاكية ، ولقد سجل الأبيات التالية في مفكرته عنها ١ محرم ١٣٥١ هـ :

في هذا اليوم سافرت من حلب إلى أنطاكية .

سرنا نرومك أنطاكية الروم ... ونبتغي حسن منظور ومشموم
الشوق يحدو بنا والحب يدفعنا ... وفي جنانك تفريج لمهموم
يا ليتني عشت دهراً في حمى بلدٍ ... في مربع هو من خير الأقاليم
الغصن يختال والأرواح باردة ... والطير يصدح مسروراً بترنيم

وعن دمشق كتب مايلي : ١٩ ربيع الأول ١٣٥١ هـ .

إن رمت تنظر جنة الدنيا ففي ... مغنى دمشق يسر طرف الناظر
وإذا أردت محاسناً قد جمّعت ... فاشرع إلى بحر الجمال الزاخر
فهي الخريدة تزدهي في حسنها ... وتتيه إذ تجلى بوجه زاهر

وفي ١٢ جمادى الأولى ١٣٥٩ هـ وقبل رحيله عن مصر قال رحمه الله تعالى :

ذبت يا مصر مذ عزمت رحيلا ... ولواسطعت عشت فيك طويلا
كنت ممن رموك بالنكر لكن ... عاد صوت النكير قولاً جميلا
صانكِ الله من صروف الليالي ... وتناءت عن جانبيك قفولا
وكذا دمتِ ما بقيت مناراً ... لفخار وللعلاء مقيلا
ما أحيلى خمائلاً ومروجاً ... مرتع الروح بكرة وأصيلا
هب فيها النسيم يسحب ذيلاً ... يؤنس الروض فاتراً وعليلا
وجرى النيل صافياً سلسبيلاً ... يملك القلب أو يبلُّ غليلا

يا رعى الله ما وقفت عليه حين أن نلت بالهنا المأمولا
ليت شعري يامصر هل ثَمّ عودٌ بعد بُعدٍ وهل أنال وصولا
أنا إن عشت عن حماها بعيداً تخذ القلب نحو مصر سبيلا

وللصوفية غزل رمزي يرمزون به إلى معاني رفيعة ، ولسيدي — رحمه الله تعالى — في هذا الشأن بعض القصائد ، منها قوله :

فرقتَ بيني وبين عقلي بفرقة منك يا حبيبُ
ورحتَ حيران ذا ولوع وإن أمر الهوى عجيب
يحرّق الشوق في فؤادي ونار حبي لها لهيب
وها حشائي بها حنينٌ وهاك قلبي به وجيب
وقد أضر الهوى بروحي وأنت ياسيدي الطبيب
ألا حنان على غريب تا الله ولهانكم غريب
ولو رحمتم بكاه يوماً لزال بأس وزار طيب

وقوله :

ما كنت أحفل بالسواد مزوّقاً حتى جننت بعينك السوداء
سهم مريش من عيونك صائب أصمى الفؤاد ومر في الأحشاء
يا أسود العينين سحرٌ فيهما هلا رثيت لعلتي وضنائي
منك السقام وفي رثاك شفائي ولأنت مبعث راحتي وعنائي
يا ويح قلبي مذ رأى عين المها ترنو أقام على عظيم الداء
قلب بأعطان المحاسن موثق يرعى الجمال بعفة ووفاء
طيب الحياة إذا خلا بحبيبه متستراً عن أعين الرقباء
بعثت عيونك ما تحب من الهوى فابعث لنا في الحب نور رجاء

إني أرى هـذا السواد تألقاً   لي دون رتبته سنى الأضواء
وعـاه يغمرني فأغدو نائراً   وأتيهُ في بحـر من السراء

وقوله :

جذبتَ يدي إليك فسرت أسعى   وقلبي قائـلاً سمعـاً وطـاعه
لعمركَ ما المحب أخا امتناع   إذا ناداه من يهوى أطاعه
حبيب الروح إما شاء أمراً   رآه المدنف المضنى متاعه
لدى هذا الحبيب دمي وروحي   فيا ويلاه إن شاء الإضاعه

وليس له – رحمه الله تعالى – في الهجاء شيء سوى قصيدة واحدة هجا فيها الذباب ، وهي :

قبحتَ من طير يقوم ويرتمي   فوق الموائد بالوقاحة مُعلّم
مهما طردت تعود ، تلك وقاحة   وبها لعمري عدت غير مكرّم
قد صرت معروفاً لدى كل الورى   بدناءة وبهـــا وُسمت بميسم
كم تزعج الأحبـاب في خلواتهم   ولكم تغير على الرُّقود النوّم
يا أثقل الثقلاء حسبك ما مضى   وكفاك شراً وامتياحاً من دمي
أرقتني وحرمتني طيب الكرى   بشنيع طنـــاتٍ وسوء تهجم
لا صفو إلا إن رأيتك نائياً   إذ أنت يا مشؤوم أصل تذمُّمي

ومن شعره بالدعابات .

قال رحمه الله تعالى : وقـــد ألفتني هرة ، وكنت أشعر بشفقة عليها ، فولدت في هذه الأيام ثلاث قطط صغيرة ، فقـال الأخ الكريم الشيخ سعيد المسعودي البابي مهنئاً لي بذلك :

يهنيك هرتك البيضاء قد ولدت   خير الهريرات من خير الهوارين
عاشت برغدو عاشوا حامدين لكم   لازلت كنزاً وذخراً للمساكين

فقلت مجيباً له :

وهبتك الهرة البيضا وما ولدت   خلص فؤادي وقلبي من شياطيني
فكن لهم محسناً براً وإن فعلوا   ذنباً فدونك ضرباً بالسكاكين

ولما ولد للأستاذ الشاعر منذر شعار ولده نعمان ، أرسل له الشيخ – رحمه الله تعالى – يهنئه بولده، فقال : دعوة وتهنئة لولدي البار وأخي الوفي ، الشاعر منذر الشعار بولده نعمان ، على معتبتي عليه بخمريات أبي النواس ، والخمر رجس من عمل الشيطان[1] .

يا نعمانُ عشتَ في خير نعمى   وتسامت بك المعالي لأسمى
وتلاقت بك الحظوظ جميلا   ت حساناً وصرن وصفاً ووسما
يا هلالاً ينمو ، سميُّك في النا   س مليك قد حاز حزماً وحلما
فإلى التمّ سر بأوج رفيع   في فؤاد يفيض حكماً وعلما
وتهانٍ لمنذر أرتضيها   مذ غدا والداً لهذا المسمى

ولعل أعظم مداعباته الشعرية قصيدة الفول التي سبق ذكرها ، ولقد حظيت بشهرة كبيرة بين طلاب الأزهر في ذلك الزمن ، حتى إن

---

(١) بين الأستاذ منذر سبب العتاب ، فقال : كنت قبل ذلك بيومين أو أكثر كتبت فصلاً في صحيفة الفداء قلت فيه : إن خمريات أبي النواس من رائق شعر العرب ، وكلاماً كهذا، وأطلت الحديث وأنا أستغفر الله مما كرهه لي أستاذي الصالح رحمه الله .

الشيخ عبد الباري خطاب قام بتشطيرها، أذكرها فيما يلي تتميماً لصورة الدعابة الشعرية :

ألا يا محب الفول أصغ لقولتي — لقولة حق كالشعاع مضيئة
ولا تعذُلنّي واقتصد في ملامتي — فقد عاد هذا الفول موضع فتنتي
ومهما أجد قدراً بفول مليئة — بخارُ حشاها من حرارة مهجتي
وريح شذاها كالأماني تحققت — أعدُ لاشتياقي في خبال وحيرة

●●●●

يسيل لعابي إن شممت عبيره — وتهضم أمعائي وتختل فكرتي
ويجذبني هـذا العبير بسحره — فيخذلني صبري وتضعف قوتي
ولا تعجبن حبيه حقاً أضرّبي — فعدت كنيضو[1] في تلافيف ظلمة
وحيرني مذ زرت في الجوع قدره — وأرقني فيه لذقني ولحيتي

●●●●

وعينيَ قرت منذ رأتنيَ مقبلاً — على ريحه من بعد يوم وليلة
وأشعر أني حين أقدم هائماً — عليه بعـــزم صادق وبهمة
ألا يا محب الفول خذني مربياً — تسير بتوجيهي إلى خير وجهة
ولا تهـاون في نصيحة عارف — وكن سامعاً قولي مجلاً نصيحتي

●●●●

ففول فؤول فابتعد عن تشاؤم — وحسبك أن الشؤم شر مصيبة
حذار تظن السوء بالفول مرة — فإن اسمه يقضي بحسن المظنة

---

(١) النضو : بالكسر حديد اللجام . والمهزول من الإبل . إه قاموس.

وإنك إن تأكله كل صبيحة حظيت إذن منه بأطيب لذة
فقربه ياذا الشوق في كل أزمة تر الخير سحاً في الضحى والعشية

●●●●

فكله بليمون وزيت طحينة رويناه عن أسلافنا خير أمة
أضفنا إليه قولهم في رواية وثوم وفجل واخلطنه بشطة
ولا تزهدنْ في هذه فهي عنصر كريم يزكيه بخير شهية
يقولون عنه في الأسانيد إنه له الفضل في تحصيل طيب ولذة

●●●●

ألا يا محب الفول إنا لمعشر ذوو عزمات من شيوخ وفتية
وتسألنا عن مجدنا ، وجوابنا بلغنا بأكل الفول حد البطولة
فكن راشداً واقبل وصية وامق[1] له في اختيار الأكل أبرع خطة
ولا تتحير بين لحم وكفتة وعن حب هذا الفول لا تتلفت

●●●●

ألا ليت شعري هل أعيش مصاحباً من الناس مشغوفاً بتأييد فكرتي
فتبقى بأنصاري مع الحب صحبتي له إن بعدي عنه يسفك عبرتي
وإن غرامي فيه غير مفارقي أروح وأغدو وهو قبلة معدتي
إذا الجوع أصلاني تخيلت قدره وهذا لعمر الفول أصل بليتي

●●●●

أما وعبير الفاتحات بعطره وصاد يحب الفول في كل نغمة

---

(١) ومقه : أحبه فهو وامق . اﻫ قاموس .

ينادي جياع البطن في كل وجبة ... له القلب مرعى في منام ويقظة
وقد علم الأقوام أنيَ مدنف ... وقد ذوبت قلبي تباريح لهفتي
وذاع به اسمي كالنسيم وأنني ... عرفت بحب الفول بين عشيرتي

••••

أهيب بقومي أن يهبوا لأكله ... كأنيَ أدعوهم لفعل الفريضة
وما زلت أدعوهم بشتى وسائلي ... وإني لأرجو أن يدينو بنحلتي
ألم يعلموا ما فيه من طيب مطعم ... وشدة إشباع بـــأرخص قيمة
وما فيه من تمثيله قلب عاشق ... ومن حسن لون قد تجلّى بشقرة

••••

عسى قدرة الفوال يعبق ريحها ... كما عبقت بالعطر أرجاء روضة
وتمشي به الركبان شرقاً ومغرباً ... فيظهر فضل الفول في كل بقعة
وأنتم أهيل الفول أزكى تحية ... لكم وأمان صاغها ذوب مهجتي
دعوت بأكل الفول في كل جوعة ... لكم من فؤاد عامر بالمحبة

••••

دعاني لتشطير القصيدة أنهـــا ... تشيد بحب الفول أكل الكتيبة

تم هذا التشطير في ٢٤ صفر ١٣٦٠ هـ بالقاهرة — مصر .

وأما نثره - رحمه الله تعالى — فقـد مرّ معنا الكثير منه ، فيما عرضت من رسائله وخطبه ، ولهذا سأختم هذا البحث بذكر نماذج من رسائله لخاصة تلاميذه ، لأنها لون خاص متميز من أدبه النثري ، وهي

تظهر لنا أسلوبه ـ رحمه الله تعالى ـ في مخاطبة تلاميذه وإرشـادهم وتوجيههم .

أرسل إليه أحدهم من مصـر ـ حيث يدرس في الجامعة الأزهرية ـ رسالة ضمنها قصيدة يمدحـه فيها ، فأجابه رحمه الله تعالى قائـلًا :

« من الحقير الفقير إلى الله تعالى الغني الحميد إلى ولده الحبيب...

وعليكم السلام ورحمة الله وبركاته وبعد : فإني أحمد الله العظيم الذي لا إله إلا هو سبحانه ، و أصلي وأسلم على حضرة رسوله الكريم صلى الله تعالى عليه وآله وسلم تسليماً .

قرأت كتابك الكريم ، وإن ما أفضيت فيه من العاطفة المجيدة، كنت أحسه من نظراتك إليّ ، ومما يظهر على صفحات وجهك ونبرات صوتك . فإذا أفضت في كلامك بـه من بعد ، فإنما تترجم عن واقـع أكيد ، وحب عتيد ، والله المرجو أن يجعله منه سبحانه وإليـه ، وفي سبيله اجتماعاً وافتراقاً عليه .

يا ولدي ، الأرواح يحاضر بعضها بعضاً ، وتتجـاذب على القرب والبعد جميعاً ، بل لقد يكون البعد أمتع ، وعن الانحراف أمنـع ، فإن الشوق حارس الأفئدة من التحول ، وباعثهـا على التعلق ، فيكون التآخي في الله قوياً سوياً ، ومجيداً ومديداً معاً .

ثق أنني أحمل لك في نفسي عاطفة هي بالأبوة أشبه منها بالأستذة، على ما لهذه من شرف وعلاء ، ولئن كان هناك استخلاص قلبي مني لبعض

تلامذتي الصادقين في الولاء ، كفلان وفلان وفلان إلخ . . . فأنت منهم ، أنت من هؤلاء الذين أتمنى لهم على الله سبحانه أطيب الأماني ، وأرغب إليه عز وعلا في أن يجعلهم من أهل الحسنى في الآخرة والأولى. وبعد: فالمحمود الله عز وجل على ما وفقك إليه من تيسير الانتساب إلى الجامعة الأزهرية ، هو المشكور على هذه النعمة ، وإن الاغتراب في العلم مبرور ، فيه ثبوت الأجر ، وانتفاء الوزر مهما صحت النية وخلصت الطوية .

ما كنت أحسب أنك شاعر ، وشاعر مسموع ومطبوع ، إلى أن قرأت قصيدتك التي أتحفتني بها ، وما أنا لها بأهل ، ولكنه الصدق في المودة ، إنه لينطق الأبكم ، ويحيل الباغم[1] صادحاً ، بَلْهَ الذكي المبين ، وإنك لناطق وامق ، ومحب صادق . . إهـ »

وأرسل إلى آخر ، فقال في مطلع رسالته :

« ولدي الحبيب . . .

وعليكم السلام ورحمة الله وبركاته ، وبعد : فإن القلوب متقابلة والأرواح متناجية ، والدنيا راحلة ، والبقاء في دار القرار ، وحسبنا الحب في الله، والسير في ركب الصالحين، والانضمام إلى قافلتهم المباركة التي رضيت عن الله ورضي الله عنها . . إهـ » .

وفي رسالة أخرى إلى تلميذين من تلاميذه قال :

« أوصيكما بتقوى الله ، والبعد عن مخالفة أمره سبحانه وتعالى،

---

(١) الباغم : الذي لا يفصح لصاحبه عن معنى ما يحدثه. كذا في القاموس

وإني أرجو لكما ولي ولأبنائي الطلاب الصالحين خير الدنيا وكرامة الآخرة . . إﻫ » .

وفي رسالة أرسلها قبل العيد لبعض تلاميذه ، قال فيها :

« إن لكم في السر منازل حبية ، وكلكم لاصق بقلبي ، وعالق بروحي ، والذي يسلّي ، أن أيام الغياب وشيكة الانقضاء ، وباللقاء يتضاعف السرور بالعيد . . إﻫ » .

ولقدكان — رحمه الله تعالى — ربيعاً كله في أنسه ولطفه ، ربيعاً في روحه ، ربيعاً في نثره وشعره، ربيعاً في أخلاقه ومعاملاته، وكم كان يحب الربيع!! ولنستمع إليه،وهو في شبابه، يحدثنا عن الربيع وآماله وأمانيه في الربيع :

« الربيع شباب الزمان ، وروح الحيوان ، به تلبس الأرض زخرفها ، وتزهو السماء بزرقتها ، ويخلص أديمها في الغالب من السحب الكثيفة ، إلا ما كان من بعض قزعات تزين الجو وتزيده رونقاً وجمالاً ، وبالجملة فإن الدنيا في هذا الفصل تظهر بلباس جديد ، جمعت فيه شتى المحاسن . فالناس به مغرمون،وعلى حسنه مجمعون ، فهو مضرب الأمثال في الرقة والجمال ، والضالة المنشودة في الحل والترحال .

حسن الربيع أمر مسلمٌ لا جدال فيه ، والذي يحسن بنا أن نذكره ، أنه متفاوت بحسب الأمكنة ، فليس كل ربيع ربيعاً ،وما ربيع الصحارى القاحلة كربيع البقاع النضيرة ، وليست الوديان ومنحدراتها وبطونها ذات الخمائل البهجة ، كالحُزون والأراضي الصعبة

في المفاوز المهلكة ، وإن على طالب حسن الربيع ومبتغي وصاله ، أن يرتاد لنفسه منزلاً رحباً جميلاً ، يجمع جلّ المحاسن إن لم يجمعها كلها ، حيث تحلو فيه الإقامة ويطيب العيش .

يسرح بي الخيال أحياناً ، فتتمنى عليّ النفس أماني مستلذة ، يصعب حصولها ، ويعز نوالها ، فأصغي إلى حديثها شاعراً باللذة منه ، شأن من يندفع وراء آماله الحلوة . وهاك بعضاً منها .

أريد منزلاً في جبل خضر نضر ، تنحدر منه الأنهار ، وتكثر فيه الينابيع ، تتناوح أغصانه ، وترق نسماته ، مشرف على قسم من البحر ، وجانب من البر ، فيتمتع الطرف بمشاهدتها ، وكلٌ له جمال .

وأرغب أن يكون هذا المنزل في جانب قرية إسلامية ، يحرص أهلها على دينهم ، فلا يعكر صفو الحياة رؤية الفجور والفسوق ، وأن يكون لي قرين حسن النعت والصفة ، موطأ الأكناف ، في دماثة أخلاق وحسن عشرة ، وأن يكون عندي من الكتب ما يهواه قلبي ، فأدرس العلم الذي أحبه ، غير متكلف لما استصعبه ، ويستعصي عليّ من غيره ، وأن يكون لي وارد بسيط ، فأعيش كفافاً مطمئناً ، وادعاً في ظل الهناء ، تاركاً متاعب الدنيا وكدوراتها ، أشهد شروق الشمس وغروبها ، وطلوع الكواكب وأفولها ، وأرقب سير الفصول وتقلبات الكون ، وهكذا حتى يأتيني اليقين .

وما أحسن الأمر إذا قمت أحياناً برحلات ، انتجع فيها الرياض والجنان ، ذائقاً لذة التنقل من مكان إلى مكان .

هذه بعض أمانيّ نفسي ، وأذكر أني كنت حدثت بعض إخواني بنحو هذا ، فقال لي : إنك تجد أمنيتك في الجنة ، والله المستعان في التوفيق للعمل الصالح ، ونوال رضوانه ، وما ذلك عليه بعزيز ..إﻫ»

لعلك يا سيدي وجدتها بفضله ورحمته ، مع النبيين والصديقين والشهداء والصالحين وحسن أولئك رفيقاً .

وبعد : فالحديث عنك ياسيدي لمَّايدنته بعدُ ، ولاتزّال له بقية ، والله أرجو أن يهيء فرصة مواتية لتكميله . كما أساله تعالى حسن الختام ، والوفاة على الايمان ، وأن يجمعني بكم يوم القيامة ، تحت لواء سيد المرسلين ، عليه أفضل الصلاة وأتم التسليم .

تنويه وشكر

لقد كان للجهود التي بذلها الأستاذ الكريم محمد علي دولة في تصحيح الكتاب وتنسيقه ، فضل كبير في إخراج الكتاب بهذا الشكل ، فجزاه الله خير الجزاء ووفقه لكل خير

المؤلف

المـــراجع

١ – إحياء علوم الدين للإمام الغزالي
٢ – إرشاد الناس إلى أحكام الحيض والنفاس لعبد الحميد طهماز
٣ – الأنوار القدسية للشعراني
٤ – بوارق الحقائق للرواس
٥ – الترغيب والترهيب للمنذري
٦ – التعرف لمذهب أهل التصوف للكلاباذي
٧ – التعريفات للجرجاني
٨ – تفسير البيضاوي
٩ – تنبيه الفكر إلى حقيقة الذكر لمحمد أديب كلكل
١٠ – تيسير الوصول للشيباني
١١ – حضارة الاسلام (مجلة دمشقية) عدد خاص بالشيخ الحامد رحمه الله
١٢ – ١٣ – ١٤ – ردود على أباطيل، الخطب المكتوبة، الرسائل المحفوظة للشيخ الحامد رحمه الله
١٥ – رفرف العناية للرواس
١٦ – ١٧ – صحيح البخاري ، صحيح مسلم
١٨ – ١٩ – الفتح الكبير للسيوطي ، فيض القدير شرح الجامع الصغير للمناوي
٢٠ – ٢١ – القاموس المحيط للفيروز أبادي، كشف الخفا للعجلوني
٢٢ – ٢٣ – مجمع الأمثال للميداني ، مختار الصحاح للرازي

فهرس